بسم الله الرحمن الرحيم

معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي

قسم الدراسات النظرية

شعبة اللغة العربية

البناء الفني لشعر المتنبي

(دراسة تحليلية نقدية)

بحث لنيل درجة الماجستير في الأدب والنقد

إعداد الطالب:

صلاح أحمد عبد القادر مطر

إشراف البروفيسور :

محمد الحسن علي الأمين

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيـــــــــة

﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

سورة التوبة الآية (١٠٥)

إهـــــــــــداء

إلى الحنونة دائماً، إلى شمسي وقمري، إلى أغلى كواكب الدنيا، إلى الروح الزكية التي يتوب عندها كل شقاء، إلى الشمعة التي أضاءت طريقي بالرغم من كبرياء الظلام

إلى أمي رعاها الله

إلى كفايتي وكافيتي المستكفية بالله التي أنارت دربي في دجى الليل الحالك

إلى الكواكب المضيئة دنيا ماجستير رياضيات هداية بكالوريوس E د. إبراهيم

ماجستير طب د. إسماعيل بكالوريوس فطوم بكالوريوس E.

إلى من تذوقت معهم أجمل اللحظات إلى من جعلهم الله أخوتي في الله إلى قنديل

الذكريات إلى الذين أحببتهم وأحبوني

أصدقائي

إلى هذا الصرح العلمي الفتى الجبار

جامعة أمدرمان الإسلامية

،،،أهدى جهدي،،،

شكر وعرفان

الهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلى بطاعتك.. ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك.

إلى الذين مهدوا لنا طريق العلم والمعرفة إلى جميع أساتذتنا الأفاضل.

(كن عالماً.. فإن لم تستطع فكن متعلماً، فإن لم تستطع فأحب العلماء، فإن لم تستطع فلا تبغضهم).

وأخص بالتقدير والشكر **الأستاذ الدكتور/ محمد الحسن الأمين** الذي أقول له بشراك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الحوت في البحر، والطير في السماء، يصلون على معلم الناس الخير) [1].

وإلى كل الذين كانوا عوناً في بحثي هذا ونوراً يضيء الظلمة التي كانت تقف أحياناً في طريقي إلى من زرعوا التفاؤل في دربي وقدموا لي المساعدات والتسهيلات والأفكار والمعلومات، ربما دون يشعروا بدورهم بذلك فلهم مني كل الشكر.

([1]) رواه الطبراني .

الفهرس

محتوى الصفحة	رقم الصفحة
الآية	أ
الإهداء	ب
الشكر والعرفان	ج
الفهرس	د
الباب الأول **الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية لعصر المتنبي**	
الفصل الأول: الحياة السياسية	٢
الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية	٥١
الفصل الثالث: الحياة العقلية	٦١
الباب الثاني **حياة المتنبي**	
الفصل الأول: نسبه ونشأته	٧٧
الفصل الثاني: ارتباطه بالخلفاء والأمراء	٨٥
الفصل الثالث: شعر المتنبي بين أنصاره وخصومه	٩٦
الباب الثالث **أغراض شعره**	
الفصل الأول: المدح ــ الرثاء ــ الغزل	١٥٤
الفصل الثاني: الفخر الهجاء الوصف	١٦٥
الفصل الثالث: الشكوى ــ العتاب ــ الحكمة ــ المثل	١٨٤
الباب الرابع **الدراسة الفنية**	
الفصل الأول: بناء القصيدة عند المتنبي	٢٠٦
الفصل الثاني: الموسيقى الشعرية	٢١١
الفصل الثالث: الصورة الشعرية عند المتنبي	٢١٥
الفصل الرابع: الأسلوب الجزل ــ السهل ــ الحوشي ــ	٢٣٤
الفصل الخامس: الفنون البديعية عند المتنبي ــ طباق ــ جناس ــ التورية	٢٣٧
الخاتمة	٢٥٤
المصادر والمراجع	٢٥٧

مقدمة

الشعر العربي ديوان العرب، فمن خلاله يسجل الشـــعراء مفـــاخر قبـــائلهم وأنسابهم، ويذكرون فيه حروبها وأيامها، ويدوّنون تاريخهـــا وحيـــاتهم بمختلـــف مناحيها، لذا وجد هذا الشعر عناية فائقة واهتماما كبيرا من الباحثين، الذين حاولوا سبر أغواره وكشف مزاياه، فنظروا في أغراضه التي تنوعـــت بتنـــوع البيئـــات والأزمنة، كما درسوا حياة من أبدعوا في نظمه وتأليفه.

وها أنا ذا أحاول أن أسير في ركاب هؤلاء الباحثين، الصورة الفنية في شعر عمر بن أبي شيبة ، الطالب عصام الدين يوسف أحمد إشراف د. محمـــد الحســـن الأمين ، جامعة أم درمان الإسلامية ، كلية اللغة العربية ، قسم الدراسات الأدبيـــة والفنية ، ٢٠١٠م ، والصورة الفنية في شعر إدريـــس محمـــد جمـــاع ، الطالـــب عبدالنبي عبدالله جمعة ، إشراف الدكتور بلة عبدالله مدني، الخرطوم ، جامعـــة أم درمان الإسلامية ، معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي، قسم الدراسات الأدبية والفنية (٢٠٠٩م) ، الصورة الفنية ي شعر ابن أبـــي معـــين ، الطالبـــة ليميـــاء عبدالرحمن حسين ، إشراف فاروق الطيب البشير ، جامعة أم درمان الإســـلامية، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات الأدبية والنقدية ، فأحذوا حذوهم ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

أهمية البحث

تكمن أهميته في أنه يتناول شاعرا فذّا شغل بال الباحثين قديما وحديثا منـــذ بزوغ نجمه وحتى بعد وفاته، كما أنه يبين محاسن شعره ومآخذه، مما جعل النقاد ينقسمون حيال إنتاجه إلى فريقين

أهداف البحث

١/ خدمة اللغة من خلال المساهمة في كشف خصائص شعر شاعر فذّ مـــن شعرائها.

٢/ تبيان أغراض شعره.

٣/ توضيح البناء الفني لشعره.

٤/ كشف السجال الذي دار حول شعره

مشكلة الدراسة

١/ ما أكثر الأغراض الشعرية التي نظم فيها شعره

٢/ على أي شكل سار في تأليفه للشعر.

٣/ ما هي آراء النقاد في شعره.

٤/ ما الأسباب التي جعلت بعض الباحثين ينالون من شعره

فروع البحث

١/ كان أغلب شعر المتنبي مدحا.

٢/ زاوج في نظمه للشعر بين منهجين (منهجي التجديد والتقليد)

٣/ اختلف النقاد في تقييم شعره بين مدافع مهاجم

منهج البحث

سوف يتبع الطالب –إن شاء الله– في بحثه المنهج الشامل، لأنه –في رأيه– يتناسب مع هذا النوع من الدراسة

هيكل البحث:

الباب الأول: **الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية لعصر المتنبي**:

الفصل الأول: الحياة السياسية

الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية

الفصل الثالث: الحياة العقلية

الباب الثاني: **حياة المتنبي**:

الفصل الأول: نسبه ونشأته

الفصل الثاني: ارتباطه بالخلفاء والأمراء

الفصل الثالث: شعر المتنبي بين أنصاره وخصومه

الباب الثالث: **أغراض شعره**:

الفصل الأول: المدح – الرثاء– الغزل

الفصل الثاني: الفخر الهجاء الوصف

الفصل الثالث: الشكوى – العتاب – الحكمة – المثل

الباب الرابع: **الدراسة الفنية**:

الفصل الأول: بناء القصيدة عند المتنبي

الفصل الثاني: الموسيقى الشعرية

الفصل الثلث: الصورة الشعرية عند المتنبي

الفصل الرابع: الأسلوب الجزل – السهل – الحوشـــي – الألفـــاظ والجمـــل والتكرار

الفصل الخامس: الفنون البديعية عند المتنبي– طباق –جناس – التورية

الخاتمة

المصادر والمراجع

الباب الأول

الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية لعصر المتنبي

الفصل الأول : الحياة السياسية.

الفصل الثاني : الحياة الاجتماعية.

الفصل الثالث : الحياة العقلية.

الفصل الأول

الحياة السياسية

شهد عصر المأمون استقدام العنصر التركي إلى الدولة العباسية، في ظروف احتدم فيها الصراع بين الأخوين: محمد الأمين، وعبد الله المأمون والذي كان صراعاً – كما أشرنا– شبه عرقي بين العرب الذين ناصروا الأمين ذا الأم العربية من جهة، والفرس الذين كانت تربطهم بالمأمون خؤولة من جهة أخرى، وبخاصة أن الفرس سعوا نحو استعادة مكانتهم التي فُقدت في نهاية عصر الرشيد، الذي قضى على نفوذ البرامكة. فحاول المأمون – بما عُرِف عنه من اعتدال أن يسعى نحو إحلال الاستقرار وتعميمه في أرجاء الدولة، وكانت وسيلته في سبيل تحقيق ذلك هي كبح جماح كل من العرب والفرس وتخفيف حدة النزاع بينهما حتى ينصرف كل منهما عن إثارة الفتن. (١)

من أجل هذا بدأ المأمون في الاستعانة بالأتراك الذين خيرهم إبان إقامته في خراسان، واستقدم منهم عدداً محدوداً في أول الأمر، ألحقهم بجيشه ليكونوا مساعداً على إقرار الأمور، بإيجاد نوع من التوازن بين الفرس الذين تفاقم نفوذهم وسلطانهم على أيدي الفضل والحسن ابني سهل، والعرب الذين اشتد قلقهم بعد فشل جهودهم التي حاولوا بها استعادة مكانتهم، وهي المحاولة التي انتهت بمقتل الأمين(٢).

ولما ولي المعتصم – وكانت أمه تركية – الخلافة، استكثر من الأتراك بصورة أضرت بمصلحة الشعب، فعمل الخليفة على تخفيف ضررهم بنقلهم إلى مدينة سامراء، التي بناها لهم وأخذهم بالقوة والحزم في سبيل التخفيف الذي أسرف في استخدام الأتراك في جيشه(٣)، وبدلاً من أن يكون هؤلاء الأتراك بمثابة

---

(١) د. هاشم عبد الرحمن محمد علي ، قضايا ومواقف من التاريخ العباسي ن ط٢، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، ص١٢٥.

(٢) د. محمد حلمي ، الخلافة والدول في العصر العباسي ، ص٨٣

(٣) جلب المعتصم هؤلاء الأتراك من بلاد ما وراء النهر (تركستان) . وكانوا عبارة عن تجمعات قبلية عند وادي سيحون، ثم دخلت بعض هذه القبائل في الإسلام، يراجع في ذلك كتاب (تركستان: لبارتولد، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، وتاريخ الترك في آسيا الوسطى لبارتولد ، أيضاً، ترجمة: د. أحمد السعيد سليمان).

عامل توازن بين العرب والتواجد الفارسي الذي كان له دور بارز في مجريات الأحداث – خلال العصر العباسي الأول – أصبحوا بعد تزايد أعدادهم، وبعد استحواذهم على المناصب الكبرى، ذوي النفوذ الصارخ في كل شيء، وأدركوا أنهم القوة المؤثرة في حياة الخلافة، فعملوا لما يحقق أهدافهم ويثبت مكانتهم، وأصبح مؤكداً أنهم كانوا حكام تلك الدولة لفترة تقرب من قرن من الزمن (٢٣٢هـ/٨٤٦م:٣٣٤هـ/٩٤٥م) حتى لقد اكتسبوا الحق في اختيار الخلفاء وفي عزلهم. وكان من عوامل التخفيف من جبروتهم وتطرفهم أنهم كانوا لا يخضعون لفرد، ولو كان من بينهم، ولم يكونوا إلا فئات متباينة، وجماعات كثيرة لكل منها زعماؤها ورؤساؤها ولكل منها مصالحها الخاصة، ولذلك انصرفوا إلى منازعاتهم الداخلية، وتنافسوا على مراكز الصدارة، حتى فرقتهم الفتن، واضطر زعماؤهم إلى المطالبة بأن يتولى قيادة الجيش أمير من بني العباس أنفسهم(١).

وقد تمكن الأتراك من أن يجعلوا نفوذهم محسوساً منذ اللحظة الأولى، وتأثيرهم في هذا يختلف عن تأثير أسلافهم الفرس، حيث أدرك الأتراك أنهم إنما جاءوا ليكونوا قوة عاملة فعالة تستند إليها الخلافة، فعملوا بما يحقق هذا الهدف مباشرة، ومن أقصر الطرق، والواقع أن الأتراك لم يكتفوا بأن يعملوا إلى جانب الخلافة لمساعدتها على مواجهة عوامل الخطر التي تتهددها من جهة الفرس وتطاولهم في نفوذهم، وإنما أرادوا أن ينفردوا بالسلطان الفعلي دون الخلفاء.

وعلى أية حال فقد ظل نفوذ الأتراك مختفياً ومستتراً خلف قوة شخصية المعتصم بالله والواثق بالله، ولم يكن في مقدور الأتراك – إبان عصر هذين الخليفتين– أن يتدخلوا بشكل ملحوظ في صنع القرار، أو في مجريات الأحداث المختلفة في الدولة، وبوفاة الواثق بالله في ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م – آخر خلفاء العصر العباسي الأول – أطل النفوذ التركي برأسه منذ اللحظة الأولى،

---

(١) كان ذلك في عهد المهتدي ٢٥٥-٢٥٦هـ، وتحقق في عهد المعتمد ٢٥٦-٢٧٩هـ، فجاء أخوه الموفق قائد الجيش من بني العباس، وكان رجلاً ذا بأس واضح فخدم قضية قومه، وقضى على المنافسات الداخلية والثورات الخارجية، وفرض نفسه حاكماً بجوار أخيه (سنذكر أنه بلغ به الأمر أنه حجر على أخيه٩ ثم جاء ابنه المعتضد خليفة بعد عمه، فكان على مثال والده من القوة والكفاءة د.هاشم عبد السلام محمد عيسى ، مرجع سابق ، هامش ص ١٢٦.

حيث لم يكن الواثق بالله قد نص – قبيل وفاته – على اختيار أحد من بعده ليكون ولياً للعهد، ثم يعقبه على الخلافة؛ إذ يروي التاريخ أن هذا الخليفة تورَّع عن تحمل مسئولية الاختيار، أسوة بالرعيل الأول من الخلفاء الراشدين، فقد قيل إن بعض خاصته عرض عليه أن يوصي بالخلافة من بعده، فتحرج أن يفعل، قائلاً عبارة مشابهة لما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لا يراني الله متقلدها حياً وميتاً).

وكان من الممكن أن تستعيد الأمة حقها في اختيار من تراه صالحاً لقيادتها من أبناء الأمة على وجه العموم، بيد أن كبراء الدولة، ورجال البلاط، نظروا في اختيار الخليفة الجديد وكاد اختيارهم يقع على ولد للواثق يسمى (محمداً) وهو طفل صغير، لولا أن تدخل القائد التركي (وصيف) [١] قائلاً: (أما تتقون الله؟ تولون مثل هذا الخلافة، وهو لا تجوز معه الصلاة). فعدلوا عن اختياره، وولوا جعفر بن المعتصم الخلافة، ولقبوه المتوكل على الله.

وهكذا يمكن أن نعتبر خلافة الواثق بالله بن المعتصم بالله (٢٢٧هـ – ٢٣٢هـ) فترة انتقال بين عهدين، الأول منهما هو عهد تمكن الأتراك مع بقاء هيبة الخليفة، والثاني، ويبدأ بالخليفة المتوكل على الله – الذي يستشعر فضل الأتراك في اختياره خليفة – وهو عهد الأتراك مع زوال هيبة الخليفة وانحدار مكانته[٢].

وقد تشبه المتوكل بجده هارون الرشيد، فجعل ولاية العهد لأولاده الثلاثة وهم: محمد (المنتصر)، ومحمد (المعتز)، وإبراهيم (المؤيد) وعقد لهم الألوية بذلك، بيد أن السيوطي[٣] يردف معقباً على ذلك: (ثم إنه (المتوكل) أراد تقديم

---

(١) كان هؤلاء : محمد بن عبد الملك الزيات الوزير، وأحمد بن أبي فؤاد القاضي ، واثنان من القادة الأتراك هما وصيف وإيتاخ، وانظر ترجمة وصيف التركي في المنتظم لابن الجوزي جـ/١٢، ص٧٠، ترجمة رقم ١٥٥٨.

(٢) د. أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي (بالاشتراك) ص٣٢٥.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠

المعتز لمحبته لأمه[1]، فسأل المنتصر أن ينزل عن العهد فأبى، فكان يحضره مجلس العامة، ويحط منزلته ويتهدده، ويشتمه ويتوعده).

ولم يكن الأتراك ليتركوا المتوكل يصنع قراراً دون الرجوع إليهم، إذ لم يكن اختيارهم للمتوكل نفسه إلا راجعاً في اختيار شخصية مناسبة تصلح لهذا المنصب، وتسمح لهم بأن يكونوا أصحاب الكلمة العليا في اختيار الخلفاء، وفي عزلهم، وفي تعذيبهم وفي قتل بعضهم أحياناً – كما سنشير.

وحسبنا أن نشير إلى أن المتوكل نفسه كان خاضعاً – في بعض الأحيان– لإيتاخ[2] القائد التركي، الذي صار بيده معظم الأمور، إذ يشير الطبري إلى أنه لما ولي المتوكل الخلافة كان إيتاخ في أعلى مرتبته، إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبربر والحاجبة ودار الخلافة، حتى لقد خرج المتوكل مرة متنزهاً إلى ناحية القاطول وشرب، وعربد على إيتاخ، فهم إيتاخ بقتله فلما أصبح – أخبر المتوكل بذلك، فاعتذر إلى إيتاخ، وقال له: (أنت أبي، وربيتني) [3]. وهذا النص يوضح لنا علو شأن إيتاخ ومنزلته في الدولة، كما أن المتوكل اضطر إلى التغاضي عن محاولة إيتاخ لقتله لأنه يعلم منزلة إيتاخ، وبخاصة في سامراء.

ورأى المتوكل أن يتخلص من إيتاخ، فدّبر له خطة محكمة تحقق هدفه، وتجنبه سخط الأتراك، ونجح في ذلك بفضل مساعدة إسحاق بن إبراهيم– أحد كبار رجال الدولة، حيث تم التخلص منه بعيداً عن سامرا، بتقييده وتجويعه، حتى

---

(١) تروى كتب التاريخ أن المتوكل كان شغوفاً بأم المعتز (قبيحة) وسماها المتوكل بذلك لجمال صورتها، فهو من أسماء الاضداد، وهي أم ولدرومية الأصل . انظر ترجمتها من (أعلام النساء ٤/١٨٤-١٨٧، تاريخ الطبري ، الأغاني ، والمستظرف من أخبار الجواري للسيوطي).

(٢) وإيتاخ كان غلاماً خزرياً يعمل طباخاً، فاشتراه المعتصم من سيده (سلام الأبرش) سنة ١٩٩هـ، وكان ذا رجولة وبأس فرفعه للمعتصم ، ومن بعده الواثق، حتى ضم إليه من أعمال السلطان أعمالاً كثيرة ، الطبري جـ١١ /٣٣ن أحمد أمين:ظهر الإسلام جـ/٩ ثم انظر (الاتجاهات السياسية والحضارية في الدولة العباسية في عهد المتوكل على الله، رسالة دكتوراه إعداد : نادية حسنى صقر، بكلية النبات – جامعة عين شمس سنة ١٩٧٩م ، ص٧٧

(٣) تاريخ الطبري ٣٣/١١، ظهر الإسلام ٩/١

لقي حتفه في سنة ٢٣٥هـ، وأشهد إسحاق بن إبراهيم على موته القضاة، وصاحب بريد بغداد، وأوضح لهم أنه لا توجد في جثته آثار ضرب أو تعذيب[١].

ولم يؤد مقتل إيتاخ إلى إضعاف الأتراك، أو إرهابهم، بل أوغر صدورهم ضد المتوكل، حتى بلغ العداء حداً لابد معه أن يتخلص أحدهما من الآخر، وبخاصة أن الأتراك استشعروا نية المتوكل في الغدر بهم، والتخلص منهم[٢]، وهنا فكر الأتراك في الخلاص من المتوكل، واستعانوا – في سبيل تحقيق غرضهم – بأقرب الناس من المتوكل، وهو ابنه محمد المنتصر، الذي كان أبوه قد سعى لعزله من ولاية العهد – كما أسلفنا. فانضم المنتصر إلى الأتراك، ليحتفظ لنفسه بالخلافة، وتآمر معهم على قتل أبيه، وتم لهم التخلص من المتوكل على الله، حينما باغته جماعة من الأتراك، على رأسهم بغا الصغير، وباغر حارس الخليفة وهو الذي تولى قتله، ثم قتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان.

ثم أقبلوا إلى ابنه المنتصر بالله وبايعوه بالخلافة، وأخذوا له البيعة من وجوه الدولة، ومن بقية القواد، كما أحضروا أخويه المعتز بالله، والمؤيد فأجبروهما على مبياعته، واستعملوا العنف مع الغاضبين من الناس، وهكذا كان مصرع المتوكل مصرعاً لسلطان الخلافة ومجداً للأتراك، فلم يعد للخليفة معهم شيء إلا مظهر اسمي اقتصر على السكة والخطبة وتألم الناس لما وصلت إليه الخلافة وعبر الشعراء عن هذا الألم، فبكوا معه مكانة الخلافة، وحرمتها، وتحسروا على عهد الفرس الذين كانوا يحتفظون للخليفة بأبهته وعظمته، ويعملون ما عملوا في ظل خدمته، وكان الناس يرون في الخلافة مجد الأمة، وعز الإسلام.[٣]

وكان من الطبيعي أن يهيمن الأتراك على المنتصر بالله (٢٤٧هـ/٨٦١م-٢٤٨هـ/٨٦٢م) وأن يصبح ألعوبة في أيديهم. وبلغ سلطانهم ذروته. إذ لم يكن

---

(١) مسكوبة : تجارب الأمم

(٢) وكان المتوكل قد نوى التخلص من ابنه المنتصر ، ومن الفتك من (وصيف بغا) وغيرهما من قود الأتراك ووجوههم.

(٣) أحمد إبراهيم الشريف، مرجع سابق ن ص٣٣١، ابن الأثير : الكامل جـ٧، ص٣١-٣٦ ، ظهر الإسلام، ١٢-١٣.

أحدٌ يستطيع الاجتراء على معارضتهم، وكانوا يحرصون على تثبيت سلطانهم على الخلافة، فيقصون عنها من يرون فيه احتمال معارضتهم. وقد خشوا من المعتز والمؤيد ابني المتوكل لو ولي أحدهما الخلافة بعد المنتصر، لذلك أمروا المنتصر أن يخلعهما من ولاية العهد، حتى يحولوا بينهما وبين الوصول إلى منصب الخلافة، وحتى يتركوا لأنفسهم الحرية في اختيار من يرون مصلحتهم في استخلافه، ولم يملك المنتصر أن يعترض، فأذعن لأمره وهو كاره، وخلع أخويه.

وما يرويه المؤرخون في هذه المناسبة أن المؤيد قال لأخيه المعتز، حينما استدعاهما أخوهما الخليفة المنتصر بالله: (يا جاهل تراهم قد نالوا من أبيك (المتوكل)– وهو من هو – ما نالوا ثم تمتع عليهم؟. اخلع – ويلك – ولا تراجعهم). وقد كتب كل من الأميرين استقالة جاء فيها: (إن أمير المؤمنين المتوكل على الله قلدني هذا الأمر وبايع لي، وأنا صغير من غير إرادتي ومحبتي، فلما فهمت أمري علمت أني لا أقوم بما فادوا. ولا أصلح لخلافة المسلمين، فمن كانت بيعتي في عنقه فهو من نقضها في حق، وقد حللتم منها وأبرأتكم من أيمانكم، ولا عهد لي في رقابكم، ولا عقد، وأنتم براء من ذلك) [١].

ولما توفي المنتصر بالله بعد خلافته بستة أشهر تعاهد الأتراك على توحيد كلمتهم (فاستحلفوا القواد الأتراك والمغاربة والاشروسنية[٢] على أن يرضوا بما يرضى به بغا الكبير وبغا الصغير أنامش)– وجميعهم من القواد الأتراك، وأجمعوا على اختيار أحمد بن محمد المعتصم، ولقبوه (المستعين بالله) سنة ٢٤٨هـ/٨٦٢م، وكان الأتراك قد قرروا ألا يختاروا أحداً من إخوة المنتصر حتى لا يسعى للانتقام منهم لقتلهم المتوكل من قبل. وكان قادة الأتراك قد جعلوا من أنفسهم أهل الحل والعقد في اختيار خليفة المسلمين.

وقد ساءت العلاقة بين المستعين وقادة الأتراك، فقد توجس منهم شراً، وعزم على الاستقرار في بغداد وأيده بعضهم، ولكن الآخرين طلبوه بالعودة إلى سامراء، فلما امتنع خلعوه وولوا مكانه ابن عمه المعتز بن المتوكل، واستمرت

---

(١) د. محمد حلمي: الخلافة والدولة في العصر العباسي ، ص٩٥.

(٢) والأشرونسية نسبة إلى أشروسنة ، بلدة كبيرة بما وراء النهرين سيحون وسمرقند (معجم البلدان ١٩٧/١)

الحرب بين الأتراك المؤيدين للمستعين، والأتراك المعارضين له حيث بدأ الأتراك ينشقون على أنفسهم وتكونوا أحزاباً متناحرة، هذا حزب (داغر) وهذا حزب (بغا) و (وصيف) وأخذ بعضهم يضرب رقاب بعض فاشتعلت الحرب بين الفريقين، واستمرت في محسبه. وجاءوا بابن عمه محمد بن المتوكل، ولقبوه (المعتز بالله) سنة (٢٥٢هـ/٨٦٦م). وكان عمره تسع عشرة سنة، ولم يل الخلافة – قبله – أحد أصغر منه [١].

وزاد منذ ذلك الحين استخفاف الأتراك بالخلفاء، وتطاولوا عليهم، فكان الخلفية في يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه، وإن شاؤوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه)[٢]

وهكذا أصبح الخلفاء العباسيون مثاراً للتفكه والسخرية، حيث يروى أنه عندما تولى المعتز الخلافة، اجتمع بعض خواصه في مجلس وأحضروا معهم بعض المنجمين، وقالوا لهم: انظروا كم يعيش عمره وخلافته، فقال: فكم تقول إنه يعيش وكم يملك؟ قال: قدر ما يريد الأتراك، فلم يبق في المجلس إلا من ضحك.[٣]

لم تنعم الدولة العباسية بالهدوء والاستقرار بعد أن انفرد المعتز بالخلافة، بل اختل توازنها من جراء استفحال نفوذ الأتراك واختلافهم فيما بينهم، ولم يكن للخليفة إلا مراعاة جانبهم حيناً، وتمرير الحيل والدسائس حيناً آخر. [٤]

وكان المعتز يخشى الأتراك أشد الخشية، ويخاف منهم (بغا الصغير) [٥] بصفة خاصة؛ ولهذا لم يكن مطمئناً في نومه، لا يخلع سلاحه في ليل أو نهار، وكان يقول: (لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم: لبغا رأسي، او رأسه لي، إني لأخاف أن ينزل عليّ من السماء، أو يخرج عليّ من الأرض).

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٥٩، وذكر السيوطي إن اسمه (الزبير بن المتوكل) كما أشار السيوطي إلى أن المعتز أرسل إلى أحمد بن طولون ان يذهب إلى المستعين فيقتله فقال: والله لا أقتل أولاد الخلفاء ، فندب له سعيد الحاجب فذبحه في شوال ٢٥٢هـ وله إحدى وثلاثون سنة. المصدر السابق ، ص٣٥٩

(٢) ابن الطقطاقي: الفخري ص١٩٧.

(٣) الفخري ص١٩٧، دز محمد حلمي : مرجع سابق ، ص٩٦، د. محمد الرفاعي ، مرجع سابق ، ص٨٠

(٤) د. محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ، ص٣٢، ط ١، دار الفكر الغربي ، سنة ١٩٧٦م.

(٥) انظر ترجمته في المنتظم جـ١٢، ص٧٣ ترجمة رقم ١٥٦٠.

وقد حدث للمعتز ما خافه من جانب الأتراك، إذ اختلف معهم في بعض الشئون المالية، فدخلوا عليه يريدون محادثته في أمرها، ويعرضون عليه أن يخلصوه من عدوه وصالح بن وصيف – أحد قادتهم – فاعتذر عن عدم لقائهم، مدعياً المرض، فدخلوا عليه وجروه من رجله، وتعاوروه بحرابهم، وأقاموه في الشمس بقميصه الملوث بالدم، يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر، وأرغموه على التوقيع على وثيقة تنازله عن الخلافة، ثم سجنوه ثلاثة أيام منعوا فيها منه الماء والطعام، وواصلوا تعذيبه في محبسه حتى مات[١].

ولما نزل المعتز عن الخلافة، بايع قواد الأتراك محمد بن الواثق، ولقبوه المهتدي بالله (رجب سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م) وكان رجلاً عدلاً محباً للشعب، ويقول د. جمال الدين سرور[٢] : (ولو أنه جاء في عصر غير هذا العصر لبرهن على مقدرة ممتازة، وكفاية منقطعة النظير). وذكر الخطيب البغدادي أنه لم يزل صائماً منذ ولي غلى أن قتل، حيث كان يتشبه بعمر بن عبدالعزيز، ويقول: إني أستحي أن يكون في بني أمية مثله ولا يكون مثله في بني العباس) [٣].

بيد أن الأتراك حرصوا أيضاً على سلب المهتدي بالله سلطته، وأساءوا التصرف في شئون البلاد، حتى صاروا يرجون الخلاص منهم، وليس أدل على ذلك مما رواه الطبري [٤]، فقد ذكر أن المهتدي عندما أقلق باله القائد التركي موسى بن بغا، رفع يديه إلى السماء، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (اللهم إني إبرأ إليك من فعل موسى بن بغا وإخلاله بالثغر، وإباحته العدو، فإني قد أعذرت فيما بيني وبينه، اللهم تولّ كيد من كايد المسلمين، اللهم انصر جيوش المسلمين حيث كانوا، اللهم إني شاخص بنيتي إذا عدمت صالح الأعوان).

---

(١) ذكر السيوطي أنهم أخذوا المعتز بعد خمس ليال من خلعه ، فأدخلوه الحمام ، فلما اغتسل عطش فمنعوه الماء ، ثم أخرج فسقوه ماء يثلج، وسقط ميتاً – وهو أول ميت مات عطشاً (يقصد من الخلفاء) (تاريخ الخلفاء ص٣٦٠، ثم أنظر ابن دحية : النبراس ص٨٨، محمد حلمي : مرجع سابق ص٩٦)

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ، ص٣٣.

(٣) ذكر السيوطي أنه قال: فعرْتُ على بي هاشم ، فأخذت نفسي بما رأيت ، (تاريخ الخلفاء ص ٣٦١.

(٤) تاريخ الطبري ٤٨٨/٩.

وقد أكثر الأتراك من مصادرة الناس في أموالهم، وكان من مصائب الرجل أن يكون غنياً، فصادروا الكتاب والأمراء والكبار، ولم يسلم البيت العباسي من مصادرتهم حيث صادروا قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز، بعد أن قتلوا ابنها، وكان لها أموال كثيرة، وهربت إلى مكة، وسُمعت وهي تدعو بصوت عال، قائلة: (اللهم اخز صالحاً (صالح بن وصيف التركي) كما هتك ستري، وقتل ولدي، وشتت شملي، وأخذ مالي، وغربني عن بلدي، وركب الفاحشة مني...) [١]

وهكذا أصبح واضحاً أن العباسيين عاجزون عن التصدي لنفوذ الأتراك أو كبح جماح قوتهم، ولم يعد أمامهم إلا باب السماء، يتضرعون إلى الله أن ينقذهم من هذا الذل، وتلك المهانة التي لحقت بهم.

وفي انتفاضة غير معهودة، – عبثاً – حاول المهتدي أن يتصدى للأتراك، الذين اقتحموا داره[٢] أثناء بحثهم عن صالح بن وصيف – وأقاموه وحملوه على فرس ضعيفة وانتهبوا القصر، وأدخلوا المهتدي إلى الأتراك – في اليوم التالي متقلداً سيفه – وقال: بلغني شأنكم ولست كمن تقدمني مثل المستعين والمعتز، والله ما خرجت إليكم إلا وإنا متحنط، وقد أوصيت. وهذا سيفي، والله لأضربن به ما أستكست قائمته بيدي، أما دينٌ؟و أما حياءٌ؟وأما دعة؟ لم يكون الخلاف على الخلفاء، والجرأة على الله؟)[٣].

وحاول المهتدي أن يستعمل الحيلة ويستعين ببعض الأتراك ضد بعض، فطلب من بايبكاك[٤] (قائد تركي) أن يقتل موسى بن بغا، لكنه بدلاً من ذلك كشف له الأمر، فتحالف الأتراك بعضهم مع بعض، واجتمعوا على خلع المهتدي. ولم تغن عن المهتدي شجاعته، التي توهّمها من خلال إشهاره لسيفه، والتهديد بخطبته التي هاجم فيه الأتراك، محاولاً ضرب بعضهم ببعض، حيث جاء فيها: (أما إنك تعلم يا بايكباك أن بعض المتصلين بك أيسر من جماعة إخوتي وولدي؟ تعرف

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ٦/٢٠٢-٢٠٣ (أحدث سنة ٢٥٥هـ)

(٢) وكان موسى بن بغا قد استأذن عليه، فلم يأذن له، فاقتحم داره.

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٦٢

(٤) ذكره السيوطي بكيال (تاريخ الخلفاء ص٣٦٣)، وذكره ابن الأثير بابكيال (الكامل جـ٦ /ص٢٢٠)

ذلك – فانظر هل ترى في منازلهم فرشاً، أو وصائف أو خدماً او جواري أو لهم ضياع أو غلات؟ سوأة لكم). [١]

وباءت محاولة المهتدي ضرب الأتراك بالفشل، حيث دارت الدائرة عليه، وهاجموا الخليفة، الذي تصدى لهم ببعض جيوش الخلافة من المغاربة والفراعنة (نسبة إلى فرغانة)[٢] والأشروسنية، ودام القتال إلى أن هزم جيش الخليفة، وأمسكوا الخليفة، وعذبوه حتى مات سنة (٢٥٦هـ/٨٦٩م)[٣]. فكانت خلافته سنة غلا خمسة عشر يوماً.

ويقول أحمد أمين[٤]: (ومع هذا فقد كان لحركة المهتدي أثر في استرداد البيت العباسي بعض سلطانه. وكان من أسباب ذلك – أيضاً – انتقال الخليفة من سامراء، وهي حصن الأتراك، إلى بغداد، وفيها عناصر كثيرة تريد أن تحمي الخلافة من شرورهم).

صحوة مؤقتة للخلافة (٢٥٦هـ/٨٦٩م: ٢٨٩هـ/٩٠١م)[٥]:

أدى تصاعد النزاع الداخلي بين قادة الأتراك، ثم سوء معاملتهم لجنودهم، وازدياد شكوى الجمهور من مضايقاتهم، أدى ذلك كله إلى خلق اتجاه قوي – داخل الجيش– يدور حول جعل القيادة العسكرية العليا في يد أحد أمراء البيت العباسي ممن يختارهم الخليفة، ويدين له الجميع بالطاعة. وقد أمكن تنفيذ هذا الطلب في بداية عهد الخليفة المعتمد بالله الذي بويع له بالخلافة سنة (٢٥٦هـ/٨٦٩م)، فكان هذا سبباً بارزاً من أسباب صحوة الخلافة[٦]. حيث عهد

---

(١) الطبري ٤٠٩/٩ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ٢٤/١.

(٢) وفرغانة مدينة واسعة بما وراء النهر، متاخمة لبلاد تركستان . (معجم البلدان ٢٥٣/٤).

(٣) ذكر أنهم خلعوا أصابع يديه من كفيه ، وأصابع رجليه من قدميه ، وقيل إنه امسك ثم داسوا على خصيته حتى مات. انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٦٣، المنتظم ١٠٢/١٢ ، الكامل ٢٢٠/٦

(٤) ظهر الإسلام ٢٤/١-٢٥

(٥) قامت د. أميرة إبراهيم بإعداد رسالة ماجستير عن هذه الفترة من كلية دار العلوم سنة ١٩٨٧من وانظر د. هاشم عبد الراضي: الوزارة في العصر البويهي ن ص٢٤.

(٦) د. عبد الرحمن سالم : مرجع سابق ن ص١٥٦.

المعتمد إلى أخيه الموفق طلحة[1] بقيادة الجيش، وأسند إليه – مع هذا – الشئون الإدارية في الكوفة والحجاز واليمن، ثم في بغداد والجزيرة والبصرة والأهواز وفارس وقنسرين والعواصم، أي انه قد جمع في يده السلطة الفعلية في الشئون الإدارية في الولايات الشرقية وفي الجيش.

وبالفعل فقد كان الموفق طلحة عند حسن الظن به – رغم حجره على أخيه المعتمد – إذ كان ذا شخصية قوية، مكنته من القبض على مقاليد الأمور، والهيمنة على الأحداث، وتمكن منة مقاومة الصعاب في الجيش، وإسكات حركات التمرد الداخلية فيه، فاستتب له الأمر.

بيد أنه من الملاحظ أن الموفق طلحة بالغ في سيطرته على الأمر – دون الخليفة – حتى لم يكن لأخيه – الذي صار محجوراً عليه – قدرٌ يذكر من السلطة، وقد عبر عن ذلك ابن الطقطقي قائلاً[2]: (وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة. للمعتمد الخطبة والسكة، والتسمي بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي، وقود العساكر، ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور، وترتيب الوزراء والأمراء).

وتوفى الموفق سنة (٢٧٨هـ)، ولحق به أخوه في العام التالي في رجب سنة (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، وبويع بالخلافة لأبي العباس المعتضد بالله بن الموفق، الذي ورث من أبيه قوة شخصيته، (فأزال الليل، وأقام العدل، وبذل المال، وأصلح الحال، وحج وغزا، وجالس المحدثين، وأهل الفضل والدين) [3]

وقد كانت الخلافة في عصر المعتضد (٢٧٩هـ/٨٩٢م: ٢٨٩هـ/٩٠١م) أعظم هيبة وأكثر انتعاشاً منها في عصر المعتمد، ذلك لأن الموفق نجح – في أيام أخيه المعتمد، وفي ظل الظروف التي تولى فيها قيادة الجيش – في استعادة نفوذها

---

(١) هو طلحة بن جعفر (المتوكل على الله) لم يل الخلافة اسماً، ولكنه تولاها فعلاً، كان شجاعاً قوياً عادلاً، عالماً بالأدب والأنساب والقضاء، توفى سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م. انظر تاريخ بغداد ١٢٧/٢، حيث سماه الخطيب البغدادي (محمد بن جعفر) ثم قال ويقال اسمه طلحة، النجوم الزهراء ٧٩/٣.

(٢) الفخري ص ٢٢٦، ثم أنظر (الوزراء في العصر البيهي) للمؤلف ص٢٤.

(٣) النبراس ، ص٩٠

بعد جهاد طويل، واستفاد المعتضد – حين ولي الخلافة – من جهود أبيه الموفق، وواصلها هو في خلافته، فبقيت في عصره السيطرة القوية الناجحة[١].

واستطاع المعتضد أن يزيح الكابوس الذي جثم على صدر الخلافة، والذي تمثل في الأتراك، فعمل على توطيد أركان الخلافة، وأعاد لها هيبتها، ونجح في إلزام الدولة الحمدانية بالدخول في طاعة الخلافة العباسية، وهابه الناس، وهدأت – في أيامه – الفتن؛ حتى كان جديراً بأن يطلق عليه (السفاح الثاني) لأنه جدد ملك بني العباس، وإلى هذا المعنى أشار ابن الرومي[٢]– في مدحه – قائلاً[٣]:

هنيئاً بني العباس إن إمامكم *** إمام الهدى والناسِ والجود أحمدُ

كما بأبي العباس أنشئ ملككم *** كذا بأبي العباس – أيضاً– يُجدد

وبوفاة المعتضد، صارت الخلافة إلى ابنه أبي محمد علي بن المعتضد المكتفي بالله سنة (٢٨٩هـ/٩٠١م) حيث انتهت الصحوة المؤقتة التي انتعشت خلالها الخلافة.

وقد حاول المكتفي بالله أن يسير على نهج أبيه في بسط نفوذه، بيد أن الفتن التي كانت قد بدأت في عهد أسلافه، استفحلت وعظم أمرها[٤]، فعجزت الخلافة عن توطيد قوتها، وعاودها الضعف ثانية، بعد أن اتسع الخرق على الراقع، ومن ثم فقد وجد الأتراك مندوحة للوثوب إلى السلطة، واستعادوا مكانتهم في الهيمنة على الخلافة. فكثرت الدسائس والصراعات بين الوزراء والقادة.

وعلى الرغم من ذلك فقد نجا المكتفي من الخلع أو السمل أو القتل، وإنما لقي ربه في ذي القعدة سنة (٢٩٥هـ/٩٠٧م) من خلال وفاة طبيعية.

ويبدو أن الأتراك والوزراء قد سئموا من اختيار الخلفاء القادرين الأكفاء، أمثال الهندي والمعتضد والمكتفين فأرادوا أن يعدلوا عن هذه السنة، ويولوا عديم

---

(١) د. محمد حلمي ، الخلافة والدولة في العصر العباسي ، ص١٢٠.

(٢) أبوالحسن علي بن العباس الرومي الأصل شاعر عباسي كبير من طبقة بشار ابن برد والمتنبي، كان جده من موالي بني العباس، كان متشائماً متناقضاً إذا مجد احد عاد إليه فهجاه، مات مسموماً ببغداد سنة ٢٨٣هـ

(٣) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص٣٦٩، أحمد أمينة ، ظهر الإسلام جـ١/ص٢٦.

(٤) وأهم هذه الفتن : الإسماعيلية، القرامطة، والفاطميون.

الكفاية ولذلك طال اجتماعهم وتفكيرهم بعد موت المكتفي، وكان عبد الله بن المعتز أول المرشحين للخلافة، وهو كفء، عالم أديب قادر، فعدلوا عنه إلى أبي الفضل جعفر بن المعتضد (المقتدر بالله)[١]، وهو صبي صغير في الثالثة عشرة من عمره[٢]، ليكون أسلس قيادة من عبدالله بن المعتز.

وقد كان من المفيد أن نلقي مزيداً من الضوء على عصر كل من المقتدر بالله، ثم القاهر بالله، وهي الفترة الانتقالية التي تحولت السلطة الفعلية بعدها من يد الخليفة العباسي إلى يد (أمير الأمراء) الذي استحدث منصبه الخليفة الراضي بالله سنة (٣٢٤هـ/٩٣٦م) حينما عجزت بنفسه عن تدبير الأمور، فكان هذا المنصب باباً ولجت منه القوى التي هيمنت على الخلافة العباسية من (٣٣٤هـ/٩٤٥م) وحتى سقطوها سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، والتي تمثلت في النفوذ البويهي والسلجوقي.

عصر المقتدر بالله (٢٩٥هـ/٩٠٧- سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م):

لا يخفى على باحث في التاريخ الإسلامي أن عصر المقتدر قد تمخض عن أحداث جسام في مختلف نواحي الحياة السياسية والاجتماعية وغيرها. حيث شهدت فترة حكمه – التي بلغت ربع قرن من الزمان– صراعات عنيفة بين النظام الحاكم المتمثل في الخليفة والتيارات السياسية المختلفة، التي تمثلت في القصر ونسائه والخدم والحاشية من جهة، والجيش وقياداته العسكرية من جهة أخرى. فضلاً عن حركات المعارضة التي برزت في عصره، والتي كان من أبرزها حركات الشيعة والقرامطة.

وبالجملة فإننا نستطيع أن نوجز أهم الملامح الرئيسية لعصر المقتدر من خلال النقاط التالية:

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام ١/ص٢٦، د. جمال سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق وانظر النبراس ص٩٥، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣٧٨

(٢) لم يل الخلافة قبل أصغر منه ، وأمه روميه وقيل مركبة

شخصية الخليفة وتوليه الخلافة:

تكاد المصادر التاريخية تجمع على أن المقتدر كان رجلاً ضعيفاً، كثير الانغماس في الترف واللهو، وأنه بويع بالخلافة عند موت أخيه المكتفي، وعمره ثلاث عشرة سنة[١]، ولم يل الخلافة من قبله أصغر سناً منه، ولهذا فقد أثارت تولية المقتدر خلافاً وجدالاً بين الفقهاء ورجال السياسة حول مدى شرعية خلافته.

ويشير أحد الباحثين[٢] إلى أن عصر المقتدر بالله كان حاسماً في عمر الخلافة، لا لأهمية الخليفة وقوته، بل على العكس، لضعفه وللظروف المحيطة بالخلافة، وللنتائج التي ترتبت عليها، وقد اقترن عهد هذا الخليفة الشاب بالتبذير والإسراف المفرطين.

وحسبنا في هذا الصدد (إسرافه) أن نشير إلى ما أورده الصابي على لسان الوزير ابن الفرات قائلاً: (عندما توفى المكتفي كان في بيت مال الخاصة[٣] أربعة عشرة ألف دينار، أطلق منها العباس – الوزير – مال البيعة ثلاثة آلاف دينار) [٤] بينما يذكر ابن تعزي بردي[٥] أن المكتفي (سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م–٢٩٥هـ/٩٠٧م) خلف في بيت مال الخاصة خمسة عشر ألف دينار، وهو ما كان خلفه المعتضد، وزاد عليه المكتفي.

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ١٠/١٣٩، المنتظم ١٣/٦٠، النويري: (نهاية الأرب) جـ ٢٢/ص٢٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٦، ص٤٣٩، ابن الطقطقي: الفخري ص ٢٠٩: ابن ظافر الأزدي: اخبار الدولة المنقطعة – تاريخ الدولة العباسية ص ٢١٣، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٦٩، الغرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ جـ٢، ص١٣٦

(٢) حمدان عبد المجيد الكبيسي: عصر الخليفة المقتدر بالله (دراسة في أحوال العراق الداخلية) ص ٤٨، ط النجف بغداد سنة ١٩٧٤م

(٣) جدير بالذكر أن بيت مال الخاصة وجد لأول مرة في عهد الخليفة المعتضد ، وتجمعت الأموال في بيت مال الخاصة من الكنوز المتجمعة من عهود الخلفاء السابقين ، والمبالغ الضخمة المتروكة من قتلهم والمصادرات الكثيرة ، وكان الهدف الأساسي من بيت مال الخاصة سد نفقات الخليفة وحاشيته ، وقد أنشئ له ديوان خاص، سمى ديوان بيت مال الخاصة ، انظر المرجع السابق ، ص٤٩ هامش ٩٣ نقلاً عن: Fischel.W: the Bat Mal Al Khassa PP:538-539

(٤) الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، ص٣١٧.

(٥) النجوم الزهراء ، جـ٣/ ص١٨٠.

وهكذا فإنه على الرغم من تلك الثروة الطائلة التي ورثها المقتدر إلى أنه كان ذا أم مستولية، ومؤثراً لما لا فلاح لمثله معه من مجالس النساء في اللعب والبطالة فوقع في الأموال كاللص المغير، وتجاوزها إلى الجواهر، فبذرها فيهن، وضيعها بأيديهن، واحتشم وزيره (العباس) ورام إسكانه بالاشتراك في النهب وتلويثه بالخيانة ليعمى عليه، وأنفذ إليه من الجواهر ما يعظم مقداره)[1] فكان مترفاً إلى حد أنه أنفق في سنوات قليلة ما ظل أجداده يجمعونه في سني ملكهم، حتى إنه قدم الدرة اليتيمة[2] لإحدى حظاياه.

ولعل هذا يدفعنا للإشارة إلى أهم العوامل المؤثرة في حكم المقتدر، وأبرزها:

تأثير النساء في سياسة الدولة:

لاشك أن تربية المقتدر، وصغر سنة، من أهم العوامل التي دفعت به للدخول تحت تأثير النساء، إذ اشتهر عصره بنفوذ النساء، وسطوتهن، وتدخلهن في أمور الحكم بصورة لم يسبق لها مثيل[3].

ومن المفيد أن نلقي نظرة سريعة على أبرز مظاهر السيطرة النسائية على الخليفة، والتدخل في شئون البلاد، ذلك أنه لما أفضت الخلافة إلى المقتدر بالله سنة (٢٩٥هـ/٩٠٧م)، كان غلاماً صغير السن، لا خبرة له بشئون الحكم، عندئذٍ صار الأمراء والوزراء والحريم والكتاب هم الذين يدبرون سياسة الدول، وليس الخليفة الصغير شأن في ذلك.

يذكر ابن دحية[4] أن المقتدر بالله منذ تولي وقد غلب عليه أصحاب الدواوين، فلا ينفذ له أمر دونهم، وأرسل النساء والخدم.. وأعدموا خزائنه الدينار والدرهم، وجعل جارية تعرف بثمل القهرمانة تجلس للمظالم، ويحضرها الوزراء والقضاة والعلماء.

---

(١) البروني : كتاب الجاهر في معرفة الجواهر ص٥٧.

(٢) ابن الطقطقي: الفخري ص٢٠٩، والدرة اليتيمة من الجواهر الثمنية وكان وزنها ثلاثة مثاقيل.

(٣) انظر في ذلك د. علي إبراهيم حسن ، نساء لهن في التاريخ نصيب ، د. وفاء محمد علي : نفوذ النساء في الدولة الإسلامية في العراق ومصر.

(٤) السراس في تاريخ خلفاء بن العباس ، ص٢٠٩.

ولعل من الطريف أن نذكر أن الخليفة المعتضد (والد المقتدر) قد تنبأ لابنه بسيطرة النساء عليه، أو – على حد تعبيره– ذكر أنه تحتوى عليه النساء، لقرب عهده بهن فيقسم ما جمعه من الأموال.. ويبذر ارتفاع الدنيا ويخرجها، وتضيع الثغور، وتنشر الأمور، وتخرج الخوارج، وتحدث الأسباب التي يكون فيها زوال الملك عن بين العباس أصلاً...وولي المقتدر فكانت الصورة – كما قال المعتضد– بعينها[١]، إذ ظل مؤثراً للشهوات، كثير الشراب.

وقد أورد التنوخي[٢] نماذج من إسراف الخليفة المقتدر، ذكر فيه أن المقتدر كلف بستانياً أن يسحق من المسك بمقدار ما يحتاج إليه البستان من السماد ليسمده بهن وذلك لرغبة الخليفة في أن يشرب – كعادته – في ذلك البستان، ثم نُهِبَ هذا المسك كله، وخرج من المال شيء عظيم في ثمن ذلك المسك.

وأعتقد أنه من المفيد أن نذكر بعض الأمثلة التي تدل على تدخل النساء، اللاتي كان لهن الأمر كله، وكن يعملن الأعمال الكبار: يعزلن الوزراء، ويولين الولاة، ويجلسن للمظالم، بل ذهبن إلى أبعد من هذا وذاك، حيث كن يقضين بين الناس. فقد ذكر السيوطي أنه في سنة (٣٠٦هـ/ سنة ٩١٨م) صار الأمر والنهي لحرم الخليفة ولنسائه لركاكته، وآل الأمر إلى أن أمرت أم المقتدر (ثُمْلَ[٣] القهرمانة أن تجلس للمظالم وتنظر في رقاع الناس كل جمعة، فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها. وأضاف ابن الجوزي[٤] أن (ثمل) هذه جلست تنظر في المظالم وأحضرت القاضي (أبا الحسين بن الأشناني) وأخرجت إليه التوقيعات على السداد، وحضر مجلسها القضاة والفقهاء.

وقد تجدر الإشارة إلى ما ذهب إليه رجال الفقه السياسي إزاء الموقف الشرعي بشأن تولية المرأة منصب القضاء، وبخاصة أن ما حدث في عهد المقتدر

---

(١) والقصة الكاملة أوردها بن الجوزي في المنتظم جـ/١٣ ، ص٦٥-٦٦ ، كما ذكرها التنوخي في (نشوار المحاضرة) قصة ١٥٥ جـ١ ، ص٢٨٧-٢٩١، تحقيق : عبود الشالجي ، ط سنة ١٩٧١

(٢) السابق جـ١ص٢٩٥ ق (١٨٥)

(٣) تاريخ الخلفاء ، ص٣٨١

(٤) المنتظم ١٣/١٨٠-١٨١، واقرأ ما كتبه النويري في (نهاية الأرب) عن عزل الوزراء في عهد المقتدر جـ٢٣/ص٢٣-١٠٥

يعتبر بادرة، تكاد تكون الأولى من نوعها فقد ذهب الإمام الماوردي[١] (ت سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) إلى أنه لا يجوز أن يتقلد القضاء إلا من تكاملت فيه شروطه التي يصح معها تقليده، وينفذ بها حكمه، والشرط الأول منها أن يكون رجلاً يجمع صفتي البلوغ والذكورة. وعلل ذلك قائلاً: (فأما البلوغ، فإن غير البالغ لا يجري عليه قلم، ولا يتعلق بقوله على نفسه حكم، وكان أولى أن يتعلق على غيره حكم، وأما المرأة فلنقص النساء عن رتب الولايات وأن تعلق بقولهن أحكام).

ويلاحظ أن منصب القضاء – حتى وقتنا هذا في نهاية القرن العشرين الميلادي – لا تضطلع به امرأة في مصر، ولا زالت النساء تطالبن به إلى اليوم، هذا فضلاً عن أن ولاية المظالم[٢] التي اضطلعت به السيدة (ثُمل) كانت أكثر خطورة من القضاء العام؛ لأن من شأنها أن تنظر في النزاع والخصومة بين أفراد الشعب وكبار رجال الدولة والحكومة، الأمر الذي يقضتي صلاحيات أكبر للناظر في ديوان المظالم، الذي يشبه الآن مجلس الدولة، والمحاكم الإدارية العليا وربما أحياناً المحكمة الدستورية التي تنظر في دستورية القوانين.

كذلك فقد كان للقهرمانات دور بارز في تعيين المناصب العليا الأخرى كالوزارة، وكان على الخليفة أن يسمع ويطيع ويتمثل لأمر قهرمانته، إن أشارت عليه بتعيين وزير أو بعزل آخر.

فقد ذكر الصابي أن أم موسى القهرمانة هي التي أوصت أبا الحسين بن أبي البغل إلى الوزارة، فكان لا يخرج عن أمرها، وكانت تجلس أخاها عند القصر فيلقاه الناس وأصحاب الحوائج فيأخذ رقاعهم وشكاواهم وقصصهم إليها. [٣]

---

(١) الأحكام السلطانية ص٨٣ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٩٨٥م

(٢) انظر الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص٩٧-١١٩، عبد المتعال الجبري: نظام الحكم في الإسلام بأقلام فلاسفة النصارى ص ٩٦- ٩٧. د. إبراهيم البغدادي : النظم الإسلامية ص ٢٩٥. ثم انظر ما كتبه آدم متر في ذلك (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) ترجمة: محمد أبو ريدة جـ١، ص٤٣٢-٤٣٣ ، ط٤ ، بيروت ١٩٦٧م.

(٣) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٩٥، د. صلاح الدين المنجد بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي ص٢٠٨.

ولا يتسع المقام هنا لإبراز الدور الذي لعبته نساء القصر، بدءاً من السيدة شُغب[1] أم المقتدر – التي ظهرت على المسرح السياسي، بمظهر صاحبة النفوذ والسلطة والقوة، فأخذت تتدخل في شئون الدولة، كبيرها وصغيرها وأمسكت بزمام الأمور بالتعاون مع قهرمانتها وجواريها– وانتهاء بأية جارية من جواري القصر، أو محظية من محظيات الخليفة، ممن نلن وافراً من كرم الخليفة الذي لم يرعوِ مما كان فيهن ولم يستنكف أن يكون ألعوبة في أيدي أية واحدة منهن. وهكذا رأينا كيف تبوأت المرأة منصباً قضائياً رفيع المستوى في عهد المقتدر، وهذه بادرة جديدة في عصره.

كما اتضح لنا مما سبق عرضه ما كان عليه هذا العصر، وما كان من أثر النساء فيه وما أدى إليه تدخلهن في الأمور، من انخراق الهيبة، وضياع الأمور، وانتشار الفوضى، إذ يعلق أحد الباحثين[2]، على ذلك قائلاً: (وهذه نتائج طبيعية محتومة لمن يتولى أمره ويدعها تفعل ما تشاء).

وربما تسنى لنا أن نذكر بيتاً أورده البيروتي[3] لأحد الشعراء في سياق حديثه عن قرمنات المقتدر يقول فيه:

فلا كانت الدنيا إذا ساسها النسا *** وإن سسن يوماً فالسلام على الدنيا

دور كبار رجال الدولة والخدم والحاشية في السياسة العامة زمن المقدر:

يبدو أن كبار رجال الدولة والحاشية قد استاؤوا وشعروا بطغيان إدارة النساء، ولمسوا تأثيرهن في توجيه الخليفة ومجريات السياسة العامة للدولة، فانعكس ذلك على بعضهم، حيث جاء رد فعل العناصر العسكرية في محاولة منهم لإعادة سلطانهم الضائع، ونفوذهم المفقود، الذي غلب عليه نفوذ الحريم، وكان ذلك متمثلاً في تلك الثورات العسكرية التي نظمها الجيش، الذي كانت غالبية تشكيلاته من الجند المرتزقة الأعاجم، فتعددت العناصر والأجناس التي تتكون منها فرق

---

(١) راجع ترجمتها في : (أعلام النساء جـ٥/ص٦٧-٧٠) في حرف (م) ام المقتدر.

(٢) د. صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلعاء ن ص١٦.

(٣) الجماهر في معرفة الجواهر ، ص٥٨، ط المنسي ، والبيت من البحر الطويل.

الجيش وتعارض وتصادم هذه الأيدي الأجنبية الدخيلة، آل ذلك – بطبيعة الحال – إلى ضعف مركز الخلافة، واستبداد العمال في الولايات واستقلالهم؛ الأمر الذي أدى إلى بروز ظاهرة الحركات الانفصالية في الدولة العباسية[١].

ومن ثم فقد وجد الجيش نفسه مضطراً للتدخل في شئون البلاد، إذ أسهم الجند بصورة مباشرة في توجيه سياسة الدولة، وتعيين الوزراء وعزلهم، حتى أصبح (مؤنس)[٢] صاحب الحول والطول في بلاد المتقدر، وكان أول اصطدام علني بين الجيش والحكومة، في وزارة ابن الفرات الثالثة (سنة ٣١١هـ/٩٢٣م– سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م) الذي كان يبغضه مؤنس ويكن له كل سوء، وصار مؤنس المحور الذي تحاك فيه الدسائس والمؤامرات[٣]، ثم سيطر الجيش على الدولة سيطرة تامة، وأصبح الخليفة عاجزاً عن ضبط الأمور، وليس لديه أدنى قدرة على السيطرة على جنوده.

وهكذا كان الجيش عاملاً مؤثراً في معظم أحداث عصر الخليفة المقتدر بالله، إذ كان قواده وجنوده – على نحو ما أشرنا – يتدخلون في رسم السياسة العامة للدولة بصورة سافرة.

---

(١) حمدان عبد المجيد الكبيسي : عصر الخليفة المقتدر ، ص٣٦٣.

(٢) مؤنس الخادم (٢٣١هـ – ٣٢١هـ/٨٤٦م–٩٣٣م٩ الملقب بالمظفر المعتضد: أحد الخدام الذين بلغوا رتبة الملوك، كان من خدم العتضد العباسي، وكان فارساً شجاعاً من الساسة الدهاة بقى ستين سنة أميراً.. ولي دمشق للمقتدر ، ثم حاربه ، وقتل المقتدر ، وخلفه القاهر بالله، فلما تمكن القاهر قتله. (انظر : خير الدين الزركلي: الأعلام جـ٧، ص٣٢٥، بن تعري بردي: النجوم الزاهرة ٣١٦/١٣–٣١٧، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٦٨–٢٧٨)

(٣) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ٢٠٨، مسكوبة: تجارب الأم جـ٥، ص١١٥، وانظر ما ذكره الصابي في تحفة الأمراء ص ٥٢، وابن الفرات: هو أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات ، ولد سنة ٢٤١هـ سنة ٨٥٥م. تفوى سنة ٣١٢م/٩٢٤من وهو من الوزراء الدهاة الفصحاء الأدباء، اتصل بالخليفة المعتضد بالله ، فولاه ديوان السواد، ثم ولى الوزارة للمقتدر بالله٩ ثلاث مرات انظر الأعلام ٢٢٤/٤، الصابي : تحفة الأمراء ص ١١

الأحوال الداخلية في عصر المقتدر:

ومع بداية عصر المقتدر بالله ظهر بوضوح أن الخلافة العباسية قد تطرق إليها الضعف والانحلال والاضطراب، فكثر الخارجون عليها، فضلاً عن فساد الإدارة وانتشار الرشوة بين كثير من عمال النواحي[١] حتى كان منصب الوزارة من أهم المناصب التي تعرضت للرشوة آنذاك.

وعلى سبيل المثال نذكر أن الساعين لهذا المنصب كانوا يتنافسون في دفع الرشاوي للخليفة أو المقربين منه، فيروى ان الوزير حامد بن عباس أهدى في سنة (٣٠٨هـ/٩٢٠م) إلى المقتدر بالله البستان المعروف بالناعورة ببغداد، وكان قد بناه له وأنفق على بنائه من ماله ألف دينار، وعلق على المجالس – التي فيها – الستائر، وفرشه باللبود الخرسانية[٢].

كما أهدى أبو الحسن على بن الفرات في وزارته الثالثة في سنة (٣٠٠هـ/٩١٢م)- قبل القبض عليه – إلى مؤنس المظفر، وإلى بعض كبار القادة والخدم هدايا اشتملت على سبع مئة ألف درهم. [٣]

وتشير مصادر التاريخ العباسي إلى أن تفشي ظاهرة الرشوة هي التي أدت إلى زيادة نفوذ المرتشين من أهل الوساطات، كالقادة ونساء القصر وحاشيته، الذين درت عليهم أرباحاً وفيرة، أدت إلى نظام المصادرات[٤] الذي كان وسيلة من وسائل الانتقام بين الطوائف المتناحرة على السلطة أو النفوذ مما أدى إلى مزيد من الفوضى والاضطراب، وفقدان الأمن الداخلي بين طوائف المجتمع العراقي.

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ٦ ص ٤٣٨-٤٣٩، عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ٤١.

(٢) ابن الزبير: الذخائر والتحف ، ص٦٠، تحقيق: د. محمد حميد الله ، ط، الكويت سنة ١٩٥٩م.

(٣) الذخائر والتحف ، ص٦٠.

(٤) هذا النظام استحدث حينما أدى اضطراب الأمور وتسلط الأتراك واستقلال الأطراف إلى فراغ بيت المال، في الوقت الذي ازدادت فيه حاجة القصر والجيش والقادة إلى المزيد من الأموال، فبدأت الخلافة منذ عهد المتوكل سياسة المصادرات لأموال الوزراء والكتاب وغيرهم من رجال الدولة ، لتساعد على إمداد من بعض رجالهم رغبة في جمع الأموال لبيت مال الخلافة ولسد حاجات الأتراك، راجع ما كتبه د. محمد حلمي محمد أحمد عن هذا النظام وبخاصة في عهد المقتدر في كتابة الخلافة والدولة في العصر العباسي ص١٢١-١٢٤.

قد يتبادر إلى الذهن سؤال حول سر أهمية التركيز على عصر المقتدر – وإن كانت طبيعة البحث قد فرضت علينا الإيجاز الشديد– والحرص على إبراز أهم ملامحه المختلفة؟ ونقول: إن عصر المقتدر كان بمثابة نقطة التحول في مجريات السياسة العباسية، أو بمعنى آخر، كانت خلافته بداية الانحدار نحو الهاوية التي أودت – في نهاية المطاف – بالخلافة العباسية وسقوطها على أيدي المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، حتى وإن بدا لنا أن الفترة ما بين عهد المقتدر وسقوط الخلافة طويلة، بيد أنها كانت مليئة بالأحداث الجسام، التي أخذت تنخر في عظام الخلافة حتى أسقطتها، ذلك أن شخص الخليفة العباسي ودوره في السلطة ظل هزيلاً وضعيفاً، ولم تشهد الخلافة نوعاً من الازدهار أو القوة إلا في سنوات قليلة كانت تشبه نوبات الإفاقة من غيبوبة الموت، ولعلي لست مبالغاً في ذلك، فالذي يتتبع نفوذ الخلفاء العباسيين – منذ عهد المقتدر – يلمح، دون إعمال فكر، أنهم كانوا رموزاً لا مهابة لها ولا إجلال، فهم رمز للمنصب الديني، لكنهم محرومون من التوقير والإجلال، ومع هذا فقد تمسك الخليفة العباسي بهذا النفوذ الديني، بل واعتبره سلاحاً قوياً يقاوم به استئثار البويهيين، ثم السلاجقة بالسلطة.

وفي ذلك يقول البيروني[١] (إن الدولة والملك قد انتقل من آل العباس إلى آل بويه، والذي بقى في أيدي خلفاء الدولة العباسية إنما هو امر ديني اعتقادي لا ملك دنيوي.. من غير ملك ولا دولة فالقائم من ولد العباس – الآن (زمن البيروني)– إنما هو رئيس الإسلام.. لاملك)[٢].

وهكذا كان الأمر كله بيده المتغلبين والحاكمين، يصرفونه كيفما يشاؤون، غير مقيدين برعاية المصالح، وتوخى العدالة، لذا فقد انتشرت الفوضى، وتفشى الخراب، وعمّ الفساد.

---

(١) الآثار الباقية ، ص١٣٢.

(٢) د. هاشم عبد الرحمن محمد ، مرجع سابق ، ص١٤٧.

ومما سبق يرى الباحثان أهم سمات عصر المقتدر يتمثل في النقاط التالية:

أولاً: كان هذا العصر ملئياً بالأحداث في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصراعات العسكرية، وبخاصة بين السلطة الحاكمة من جهة، وبين المعارضة التي تجسدت في أنماط كثيرة من المجتمع العراقي، كما حدث من شغب العامة وثورتهم، وهجمات العبارين، وحركات الشيعة والقرامطة[1]. الذين استغلوا ضعف هيبة الخلافة وأثاروا الفتن. وكان أشدها خطراً ما قام به القرامطة الذين حاولوا الهجوم على بغداد سنة (٣١٦هـ/٩٢٨م).

ثانياً: كانت شخصية المقتدر تتسم بالرعونة، وكذلك طفولته، ونشأته وعبثه، ولهوه، من أبرز العوامل التي كان أثرها في مجريات الحياة السياسية، كما كان لإسرافه وتبذيره وخضوعه لآراء النساء دور في تدهور الأوضاع الاقتصادية، وانعكس ذلك على مظاهر الحياة الاجتماعية آنذاك.

ثالثاً: تأثرت سياسة المقتدر الداخلية والخارجية بنفوذ السيدة أمه، والقهرمانات وسائر نساء القصر اللاتي تدخلن تدخلاً مباشراً في سياسة الدولة، ومن ثم فقد خضع سلطان الخلافة – في عهده – لتأثير الحريم في مختلف شئون البلاد حتى القضاء على نحو ما أشرنا.

رابعاً: أدت العوامل السابقة وغيرها إلى وجود تيار قوي من المعارضة، وحركات التمرد التي أفضت مضجع الخليفة، وذلك على المستوى الاجتماعي والدين كحركة الحسين بن منصور الحلاج[2] وعلى المستوى الفكري كحركات الشيعة والقرامطة. وعلى المستوى السياسي، تمرد الحمدانيون بعد أن أصبح لهم – في عهد المقتدر– نفوذ قوي على مسرح الأحداث.

---

(١) د. محمد أحمد عبد المولى ، العبارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي ، ص١١٢.

(٢) هو الحسن بن منصور الحلاج الزاهد المشهور، وهو من أهل البيضاء (وهي بلدة بفارس) نشأ بواسط العراق ، صوفي اختلف الناس في أمره ، منهم من بالغ في تعظيمه ومنهم من كفره، وابتدأ حالة بالزاهد والتصوف وإظهار الكرامات والخوارق.. أحل حامد بن عباس وزير المقتدر دمه بحضرة القاضي ، وقد قتل سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م . انظر ترجمته (وفيات الأعيان جـ٢ ص١٤٠-١٥٧، وابن الجوزي: المنتظم جـ١٣ ، ص٢٠١-٢٠٧ ترجمة رقم (٢١٧٩)، ابن الوردي : تتمة المختصر ، جـ١/٣٨٣ – ٣٨٥، الزركلي : الأعلام ٢/٢٦٠

خامساً: كان للأتراك نفوذ كبير، كما كان للجيش أثر بالغ النفوذ في السيطرة على الأمور، وتحول الجيش من عنصر حماية للدولة الإسلامية إلى فرق عسكرية متناحرة، ليست أهلاً للوثوق بها؛ حيث تدخل الجنود في شئون البلاد الإدارية وتحكموا في تعيين الخلفاء والوزراء وبعض الولاة.

وقد حدث ذلك حينما اجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن على خلع المقتدر وعزله والبيعة لابن المعتز سنة (٢٩٦هـ/٩٠٨م)، وقد أعقبت هذه الأحداث فتنة وفوضى واضطراب وسلب ونهب[١] حتى أصبح تدخل القواد والجنود مصدر قلق للخليفة فوقع تحت تأثير أهوائهم ورحمتهم، وظل يسترضيهم بالمناصب والهبات والأموال.

وأخيراً: فإنه يتسنى لنا – من خلال القراءة المتعمقة – في أحداث عصر المقتدر بالله – أن نلاحظ أن هذا العصر قد اصطبغ بالتطرف الشديد في مختلف نواحي الحياة، حتى بلغ فيه التفاوت والاختلاف بين الناس حد التناقض الحاد بين الغنى والفقر، والتدين والإلحاد، وغيرهما من مظاهر التناقض التي كان وجودها في المجتمع العراقي كافياً بأن يفكك عراه، ويزعزع أركانه ويقوض أسسه، وهكذا نلمس التناقض والتطرف الشديدين في الحياة الاجتماعية، بحيث أصبح ذلك من أهم خصائص العصر، ولعل مرد ذلك يعود إلى فساد النظام المالي، الذي سبب اختلالاً هائلاً في الدخل بين الأفراد والجماعات، فضلاً عن آثار النظام الطبقي الذي ساد المجتمع في ذلك العصر[٢].

وقد وصف (موير) حالة الدولة العباسية في عهد المقتدر، قائلاً: (إن عهد الخليفة التعس قد هوى بالدولة إلى الحضيض، فقد ضاعت ممتلكاتها في الخارج، فضاعت أفريقية وأوشكت مصر أن تضيع، واستقل أمراء بني حمدان بالموصل، واستطاع البيزنطيون أن يشنوا غاراتهم المتصلة على الحدود، التي ضُعف الدفاعُ عنها. ومع ذلك بقى شيء من الاعتراف بسلطان الخلافة في البلاد الشرقية، حتى

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ٦ ، ص٤٤١-٤٤٤، وانظر ما كتبه حمدان عبد المجيد الكبيسي في كتابه عصر الخليفة المقتدر بالله في المصل الخاص بالحديث عن الجيش وأثره في أحداث العصر) ص٢٥٥، ٣٣٨.

(٢) الكبسي: المرجع السابق ، ص٩.

بين أولئك الأمراء الذين نادوا – أخيراً – باستئصال ولاياتهم، أما في الأراضي القريبة من حاضرة الخلافة، فقد أخمدت ثورات القرامطة المخيفين إلى حين. وفي بغداد نفسها صار الخليفة المقتدر – الذي كان آلة في أيدي رجال البلاط المفسدين، ذوي الأطماع الدنيئة – تحت رحمة حُراسه من الأجانب، الذين أصبحوا يأتمرون إلى حد كبير بأوامر القواد من الأتراك وغيرهم الذين لا يمتون إلى العباسيين بصلة، والذين كانوا يشعلون نار الثورة من حين إلى حين) [١].

عصر الخليفة القاهر بالله (٣٢٠هـ/٩٣٢م- ٣٢٢هـ/٩٣٤م):

ازداد أمر الخلافة العباسية انتكاساً بعد عهد المقتدر بالله، الذي خُلع ثلاث مرات، ثم كانت نهايته القتل بإيعاز من القائد التركي مؤنس الخادم سنة (٣٢٠هـ/٩٣٢م)[٢].

ولم يكن الخليفة القاهرة بالله أحسن حظاً من سابقيه من الخلفاء العباسيين الضعاف، فقد خُلع وسلمت عيناه حتى سالتا جميعاً فعمي[٣]، وهو أمر لم يُسْمَع بمثله في الإسلام، وأشار المسعودي إلى أنه لم يُسمل قبله أحدٌ من الخلفاء وملوك الإسلام[٤] ثم سجن القاهر، وظل محبوساً في دار السلطان إلى سنة (٣٣٣هـ/٩٤٤م)، وخرج من السجن فكان تارة يُحْبس، وتارة يُخلى[٥] وهو ما يوضح لنا مدى الضعف والمهانة التي حلت بالخلافة العباسية.

وتناقضت الموارد المالية للدولة في تلك الفترة وعجزت الحكومة من مطالبة الولاة بالأموال، فاضمحلت أموال الخلافة وبيت المال، حتى غدا الخليفة وحكومته عاجزين تماماً عن إدارة شئون البلاد.

---

(١) MULIR, SIR WILLIAM: THE CALIPHATE.PP-568 ADINBURGE 1925

د. حسن أحمد محمود ، د. أحمد إبراهيم الشريف : العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٣٥٩.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم جـ ١٣/ص٣٠٥، مسكوبة: تجارب الأمم ٥/ ٢٤١، المسعودي /مروج الذهب جـ٤/ص٣٩٢.

(٣) ابن الجوزي : المنتظم /١٣ ٣٣٥، الصولي : أخبار الراضي ص١.

(٤) التنبية والإشراف ص ٢٨٨.

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ٣٣٥/١٣.

والذي لاشك فيه أن الخليفة القاهر قد ورث خلافة متهاوية واهنة، ونظاماً سياسياً وحكومة لا تملك صنع القرار، فضلاً عن تنفيذه، وجيشاً يموج بالصراعات بين جنوده، وقواداً يتصارعون على النفوذ والهيمنة على عرش مريض، وأحوالاً اقتصادية مضطربة – على نحو ما أشرنا – تجمع بين كافة المتناقضات من غنى وثراء فاحش لبعض الطبقات، إلى فقرٍ مدقع لكثير من الناس، الأمر الذي انعكس بوضوح على الأنماط الاجتماعية للشعب، وعلى النسق السلوكي بين أفراد المجتمع فزادت الفوضى وكثرت اللصوصية، واستشرى خطر العبارين والشطار والخارجين عن النظام، وأصبح المجتمع مزيجاً من الفوضى والقلق، وكان هذا إنذاراً بأن الخرق قد اتسع على الراقع، ولابد من حدوث طفرة سياسية تحاول إعادة اتزان كافة النظم السياسية والاجتماعية والعسكرية لما كان ينبغي أن يكون عليه.

أجدني لست مفتقراً إلى أدلة كثيرة للبرهنة على ما أشرت إليه آنفاً من تردي الأوضاع في عهد الخليفة القاهر، وحسبي أن أشير إلى أن الخليفة كان لا يصحو من سكر، ولا يفتر من سماع الغناء، أهوج سفاكاً للدماء، كثير التلون والاستحالة (التحول) مدمن خمر[1]؛ إذ لا ريب أن حاكماً منغمساً في مثل هذه الرذائل، لا يمكن أن يكون له عطاء سياسي يذكر. فنحن لا نجني من الشوك العنب، لذلك بات من الواضح أن الفوضى التي تعيشها الخلافة الإسلامية – المتمثلة في القاهر – برهان صادق، وانعكاس جلي للأوضاع العامة التي سادت البلاد.

كذلك فقد مهدت هذه الظروف إلى بروز عنصر جديد كان يسعى إلى القبض على السلطة والسيطرة على مقاليد الحكم في بغداد من أيدي الخلفاء العباسيين، تكون لهم الكلمة العليا وحق السمع والطاعة.

تمثل هذا العنصر في الديالمة الذين تسلقوا إلى سُلم الحكم بدءاً من سنة (٣٢١هـ/٩٣٣م)[2] حينما بدأت بواكير الدولة البويهية في الظهور على مسرح

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٨٦، ص٣٨٨ن وذكر أنه لولا جودة حاجبه (سلامة) لأهلك القاهر الحرث والنسل.

(٢) النويري : نهاية الأرب ١١٦/٢٣.

الأحداث، وهي دولة – على تعبير ابن الطقطقي– نبعت بما لم يكن في حساب الناس، ولم يخطر ببال أحد فدّوخت الأمم، وأذلّت العالم، واستولت على الخلافة، فعزلت الخلفاء وولتهم، واستوزرت الوزراء وصرفتهم، وانقادت لأحكامها أمور البلاد العجم أمور العراق، وأطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق[١].

وكان من الطبيعي أن يكون للخليفة القاهر وأمثاله من المستهترين خصوم يناوؤنه العداء. وكان هؤلاء الخصوم قد اتفقوا على خلعه وتحالفوا على ذلك، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل، فتمكن القاهر منهم وأمر بقتلهم جميعاً، بيد أن وزيره ابن مقلة[٢] قد استطاع بحيلة، وبما أوتي من مكر ودهاء أن يوغر صدور الجنود الساجية والحجرية[٣] ضده، حتى اتفقوا على خلعه، وهجموا عليه من سائر الأبواب، فاستيقظ مخموراً وعجز عن الهرب، ثم قبضوا عليه وحبسوه، وسلموا عينيه، كما أسلفنا، وانتهت خلافته التي كانت – كما ذكر الشيخ الخضري[٤] جامعة للمعايب والقبائح.

---

(١) الفخري : ص٢٢٤.

(٢) هو أبو علي محمد بن علي بن الحسن بن مقلة استوزره المقتدر سنة ٣١٦هـ/سنة ٩٣٠م، ثم غضب عليه وصادره ونفاه إلى فارس سنة ٣١٨هـ/سنة ٩٣٠م ، ثم استوزره القاهر بالله سنة ٣٢٠هـ/سنة ٩٣٢م، ثم اتهمه بالمؤامرة على قتله، فاستتر سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م، واستوزره الراضي – فيما بعد سنة ٣٢٢هـ/ ثم قطع يمناه ولسانه سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧من وسجن حتى مات في سجنه ، انظر: الزركلي: الأعلام جـ٦/ص٢٧٣، وفيات الأعيان: جـ٥ ص١١٣-١١٨، ويعلق الثعالبي على حادثة قطع يده قائلاً: (ومن نكد الدهر ان مثل هذه اليد النفسية تقطع) (ثمار القلوب).

(٣) الساجية: فرقة من عسكر الخلافة سميت بهذا الاسم نسبة إلى أبي الساج (ديوداذ بن ديودست) القائد العباسي الذي لمع منذ عهد المعتصم، وكان لهذه الفرقة دور بارز في كثير من الأحداث السياسية والمعارك الحربية زمن المقتدر، ثم استمر دورهم الفعال في عصر القاهر، واشتمل نفوذهم حتى شمل خلافة الراضي ، إلى أن قام بن رائق بقتل جميع قواد الساجية، وكانوا نحو أربعمائة (سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م: ٣٣٣هـ/٩٤٤م) ابن الأثير: الكامل جـ٧، ص١٥٨، مسكوبة : تجارب الأمم جـ٦، ص٢٢، الصولي الأوراق ٢٠٨-٢٠٩.

أما الحجرية: فهم نوع من الحرس الخاص، وجدوا في دار الخلافة وسموا بالغلمان الحجرية، ذكر القلقشندي (أنهم جماعة من الشباب يناهزون خمسة آلاف نفر مقيمون في (حُجر) منفردة : لكل حجرة منها اسم يخصها، عدتهم كاملة (صبح الأعشى جـ٣/ص٥٥٢، بيروت سنة ١٩٨٧م) وعدهم الصابي من جملة خدم المقتدر ، وانهم ألوف رتب امرهم على المقام في القصر والحجر تحت مراعاة الخدم، وأن المعضد هو الذي استخدمهم وسماهم الحجرية (رسوم دار الخلافة ص٨ حاشية).

(٤) يذكر الصفدي أنه خُلع في جمادي الأولى سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م وسُلمت عيناه فسالتا، وحبوسه مدة، ثم أهملواه وطلقوه فمات في جمادي الأولى سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠، (نكث الهيمان في نكتب العميان) ص٢٣٦. الدولة العباسية ص٣٤٣ ط، مؤسسة دار الكتاب الحديث – بيروت سنة ١٩٨٩م.

الخلافة العباسية في ظل النفوذ البويهي:

كان الخلفاء العباسيون في مطلع الدولة يتمتعون بنفوذ واسع، ويجمعون بين السلطة الروحية أو الدينية، والزمنية، وسار الأمر على هذا المنوال ردحاً من الزمن، حتى سيطر الأتراك على مقاليد الدولة، بعد أن تعرض نفوذ الخلفاء للضعف، إذ ضاعت هيبتهم – لأسباب كثيرة – يضيق المقام عن ذكرها، وهي لا تخفى على دارسي التاريخ الإسلامي– بعد أن أصبح الأتراك يتدخلون في اختيار الخلفاء وتوجيه سياستهم: الداخلية، والخارجية، المالية، والعسكرية، ولقى بعض الخلفاء حتفهم على أيدي الطامعين في السلطة من الأتراك.

بيد أنه على الرغم من ذلك إلا أن الخليفة العباسي – حتى نهاية عهد نفوذ الأتراك – كان يتمتع ببعض الامتيازات والحقوق التي ورثها منذ قيام الدولة العباسية سنة (١٣٢هـ/سنة ٧٥١م)، والتي كانت رمزاً لسيادة الخلفاء العباسيين: السياسية والدينية، وتشمل هذه الامتيازات: حق الخليفة في تعيين وزير يعاونه في إدارة شئون الدولة، وإقامة الخطبة له في المساجد، ونقش اسمه على السكة، وضرب الطبول أمام داره في أوقات الصلوات الخمس، والاحتفاظ بضياعه السلطانية[١]، كما كان من حقه تعيين الأمراء والقضاة العدول وأصحاب الحسبة، ونقباء الأشراف، وأمراء وخطباء المساجد، ومنح الألقاب[٢].

وبعد هذا يحسن بناء أن نستهل حديثنا عن علاقات البويهيين بغيرهم؛ بالحديث عن علاقة بني بويه بالخلفاء العباسيين؛ إذ على ضوء هذه العلاقة يمكن للباحث في التاريخ الإسلامي أن يتكون لديه حدس دقيق عن علاقة هذه الأسرة بغيرها من الدويلات المجاورة.

---

(١) وهي أراض زراعية تعود ملكيتها إلى الخلفاء العباسيين وتوجد في بلاد العراق وبعض الأقاليم الإسلامية، وكانت إيراداتها تحمل إلى بيت المال الخاص، وتعد إحدى موارد الخليفة العباسي الهامة، ولما استبد البويهيون بالسلطة صادروا أغلبها وأقطعوها لقوادهم (د. عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع ص ٢٥-٢٧).

(٢) د. فاضل الخالدي: الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق ، ص٩-١٠، د. إبراهيم سلمان الكروي: البويهيون والخلافة العباسية ص١٧٨، الباحث : الوزارة في العصر البويهي ص ١٦٥.

وبداية ينبغي أن نقرر أن مركز الخلافة قد ضعف تماماً إثر دخول البويهين بغداد حيث استبدوا بالسلطة، واستأثروا بالنفوذ دونه، وأساؤو معاملته، واستولوا على جميع أملاكه وذخائره، بعد أن (ازداد أمر الخلافة إدباراً ولم يبق لهم – للعباسيين– من الأمر شيء البتة، وقد كانوا يراجعون، ويؤخذُ أمرهم فيما يُفعل والحرمة قائمةُ بعض الشيء، فلما كانت أيام المعز الدولة[١] زال ذلك جميعهُ، بحيث إن الخليفة لم يبقَ له وزير، وإنما كان له كاتب يدير إقطاعه وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد) [٢].

فلم تكن سياسة البوهيين كسياسة آبائهم الفرس مع الخلفاء في العصر العباسي الأول، إذ كان الأولون من الفرس يأتمرون بأمر الخليفة ويرعون ولاءهم له، وطاعتهم إياه، فلما جاء بنو بويه لم يتبعوا سياسة سلفهم، وإنما حذوا حذو الأتراك في التنكيل بالخليفة والاستهانة به، واستغلوا ضعفه ولم يعل شأنه بل زاده ضعفاً، وصاروا يعاملونه أمام الناس جميعاً معاملة سيئة لا تُراعي له فيها حرمة، ولا يعرف له فيها قدر[٣].

وكان أول عمل قام به معز أحمد بن بويه، أغضب به الخليفة العباسي المستكفي بالله، أنه أستأذن الخليفة في أن يستكتب لنفسه ابن شيرزاد – وهو الشخص الذي كان الخليفة يكرهه ويخشاه لدسائسه ومؤامراته وغدره – إذ يذكر صاحب كتاب (العيون والحدائق)[٤] أن الخليفة المستكفي لما سمعه يذكر ابن شيرزاد، قال له: (لا تذكره لي فإني قد حلفتُ أن لا يتصرف في أيامي ودولتي،

---

(١) ومعز الدولة هو أول أمراء بني بويه الذين استطاعوا أن يهيمنوا على مقاليد الحكم، ويستأثروا بالسلطة دون الخلفاء العباسيين، من خلال استيلائهم على منصب أمير الأمراء. فظلت الخلافة العباسية تحت قبضتهم من سنة ٣٣٤هـ. راجع ما كتبه المؤلف عن هذه الدولة في رسالته للماجستير والدكتوراه بكلية دار العلوم.

(٢) ابن الأثير : الكامل ٧/ص ٢٠٧ – ٢٠٨

(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام م/١ ص٥١ الرابعة سنة ١٩٦٦م، د. محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ، ص٥٣، ط: دار الفكر العربي سنة ١٩٧٦م.

(٤) العيون والحدائق في أخبار الحقائق لمؤلف مجهول، تحقيق : عمر السعيدي جـ٤/ق٢/ص٤٣١ط، دمشق سنة ١٩٧٣م

واستكتب أنتَ من شئت من أهل الحضرة، ولا تستعمله فإنه إنسانُ سوء، كثيرُ التضريب بيني وبين أصحابي).

بيد أن معز الدولة يبدو ملحاً في مطلبه قائلاً: (ولابد لي منه)، حتى أرغم الخليفة على الانصياع لأمره، والامتثال لمطلبه، رغماً عنه، أو على حد تعبير الراوي: (فأجابه المستفكي على كُرْهٍ، ورأيت عينيه وقد تغرغرت بالدموع لعظم ما ورد عليه من مسألته)، وعينه معز الدولة على ما يسوء الخليفة ويؤذيه.. وقبل الخليفة ذلك مرغماً صاغراً.

من ذلك الوقت مر بالخلافة عهد كله خنوع ومذلة، وغدا أمير المؤمنين ألعوبة في أيدي الأمراء البويهيين، حيث قبض هؤلاء على أزمة الحكم ببغداد حائزين لإمارة الأمراء، فلم يتركوا للعباسيين إلا التحكم الاسمي[1].

وقد يكون من الأفضل أن تبرز بعض النماذج من أساليب معاملة أمراء بني بويه للخلفاء العباسيين، ثم نعرض لما ورد من تفسير لأسباب هذه المعاملة التي لم يكن البويهيون يراعون فيها ما للخلفاء العباسيين من حرمة وقدر. فضاعت هيبتهم بعد أن تجرد الخليفة العباسي من كل سلطان، (وتحول الحكم في المجتمع الإسلامي من حكم له قواعده وأصوله المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، إلى سلطان يقوم على البطش وقوة السلاح والمكر والخديعة) [2].

وربما كان من أبرز سياسة بني بويه مع الخلفاء، ذلك السلوك الذي انتهجه معز الدولة تجاه الخليفة المستكفي بالله، في مستهل سلطان البويهيين على الحكم، حيث تورد بعض المصادر التاريخية أن أعمال العنف من جانب البويهيين بدأت منذ دخول معز الدولة بغداد سنة ٣٣٤هـ وبالتحديد بعد دخوله باثني عشر يوماً، أي في الثاني والعشرين من جمادي الآخر سنة ٣٣٤هـ[3]، وقد استخدم معز الدولة في ذلك السياسة والغدر، حيث ركب معز الدولة منحدراً إلى دار الخلافة في قومه وعشيرته، وسلم على الخليفة وقبّل الأرض بين يديه، وكان قد أمر

---

(١) سيديو : خلاصة تاريخ العرب ، ص٢١٢، ط الثانية سنة ١٩٦٩م.

(٢) د. حسن عبد العال: التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ص٥٤

(٣) ما أوردناه على المشهور، وذكره مسكويه في (تجارب الأمم٩ جـ٦/ص٨٧، والهمذاني: تكملة تاريخ الطبري ص٣٥٥ وابن الأثير: الكامل : جـ٧/ص٢٠٦.

رجلين من نقباء الدويلم بالفتك بالخليفة[1]، وكان قد حضر مجلس الخليفة رسول الأمير الساماني نوح بن نصر (٣٣١هـ/سنة ٩٤٢م) صاحب خراسان، وجمع من الناس ثُمّ تقدم رجلان من الديلم نحو المستكفي بالله وهما يصيحان، فمد إليهما يديه؛ ظنا منه أنهما يريدان تقبيلها، كما جرى الرسم بذلك، بيد أنهما جذباه عن سرير الخلافة وطرحاه أرضاً، وجعلا عمامته في حلقه، فنهض معز الدولة، واضطرب الناس، وارتفعت الزعقات وضربت البوقات والطبول، وقبض الديلم على كاتبه (أبي أحمد الشيرازي) ودخلوا إلى دار الحرم فقبضوا على (علم) القهرمانة وابنتها، وأفتتنت دار السلطان، وساق الديلمان المستكفي بالله ماشياً إلى دار معز الدولة حيث اعتقل فيها، ثم خُلع وسلمت عيناه، بعد أن نهبت دار الخلافة حتى لم يبق فيها شيء، وأحضر معز الدولة أبا القاسم الفضل بن المقتدر وبايعه بالخلافة ولقبه (المطيع لله) وظل المستكفي معتقلاً حتى توفي سنة (٣٣٨هـ/سنة٩٤٩م)[2].

وربما تجدر الإشارة هنا إلى أن المستكفي بالله كان ثالث خليفة عباسي خُلِعَ وسُمل، كما تنبأ بذلك القاهر بالله لما خُلع المتقي وسُمل، فإنه قال: بقينا اثنين ولابد لنا من ثالث[3].

وقد حاول بعض المؤرخين تعليل وتفسير هذا السلوك الذي انتهجه معز الدولة – أول أمراء بني بويه– مع الخليفة العباسي.

فذكر ابن الأثير[4] أن علماً القهرمانية صنعت دعوةٌ عظيمة حضرها جماعة من قواد الديلم والأتراك، فاتهمها معز الدولة أنها فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفي ويزيلوا معز الدولة، فساء ظنه لذلك. كما ذهب مسكويه إلى أنها فعلت

---

(١) ابن خلدون : جـ٤/ ص٥٢١، وقد أشار ابن خلدون إلى أن معز الدولة هو الذي كلفها بذلك.

(٢) انظر : مسكويه: تجارب الأمم جـ٧/ص٨٦ ، ٨٧ ، الهمذاني: تكملة الطبري ، ص٣٥٤-٣٥٥، ابن الأثير الكامل جـ٧/ص٢٠٧، ابن الجوزي ، المنتظم جـ١٤/ص٤٥.

(٣) أورد هذه الإشارة ابن ثغر بردي في النجوم الزاهرة ٣/ ص٣٢٦-٣٢٩، كما اوردها الذهبي في كتابه (دول الإسلام) مشيراً إلى أنه بسمل المستكفي صار ثلاثة من الخلفاء (عميان)ة ثم علق قائلاً : لا قوة إلا بالله، جـ١/ص٢٠٧.

(٤) الكامل ٢٠٦/٧-٢٠٧، وأضاف الهمذاني أن الديلم عرفوا معز الدولة أن علماء القهرمانة إنما فعلت ذلك لتأخذ البيعة عليهم للمستكفين وعرفوه أنها هي السبب في ولايته، فساء ظنه وانحدر إلى دار الخلافة (تكملة الطبري ص٣٥٤).

ذلك لينقضوا رياسة معز الدولة عليهم ويطيعوه – أي المستكفي– دونه، فساء ظنه لما رأى من جسارتها وإقدامها على قلب الدولة[١].

وأشار المسعودي إلى أن الخليفة المستكفي بالله كان على صلة وثيقة بناصر الدولة الحمداني، وكان يراسله أثناء القتال الدائر بين ناصر الدولة ومعز الدولة (أحمد بن بويه)، ويطلعه على الأسرار العسكرية للجيش البويهي[٢]، هذا فضلاً عن الرغبة الجامحة التي كانت لدى ناصر الدولة في أن يتولى زمام الأمور ببغداد، حتى بذل من أجل تحقيق هذه الرغبة أموالاً كثيرة بلغت خمسمائة ألف دينار[٣] أرسلها إلى ابن شيرزاد حينما اضطربت الأمور ببغداد وثار الجند مطالبين بأرزاقهم، وكان المستكفي بالله يطمئن إلى ناصر الدولة أكثر من أي أمير آخر[٤].

كما يبدو أن هناك سبباً لا يقل أهمية عما سبق ذكره، سبباً دينياً مذهبياً؛ وذلك لأن الخليفة المستكفي بالله كان قد قبض على الشافعي رئيس الشيعة من باب الطاق[٥] وأهانه، وكان يتولى الإفتاء في حضرة معز الدولة، وتشفع له أصفهدوست[٦]– قائد الجند في بغداد في عهد معز الدولة – فلم يقبل المستكفي شفاعته، فاحفظه ذلك، وجعله يذهب إلى معز الدولة شاكياً، فأوغر صدرهن

---

(١) تجارب الأمم ٨٦/٦، خلاصة الذهب المسبو ص ٢٥٦، دول الإسلام جـ١/ص٢٠٧، وذكر الصفدي أن الغالب على دولته امرأة يقال لها علم الشيرازية، وكانت قهرمانة داره، وهي التي سعت في خلافته عند (ثوزون) أمير الأمراء – حتى تمت ، وعوتب على إطلاق يدها وتحكمها في الدولة ، فقال: خفضوا عليكم فغنما وجدتها في الشدة ووجدتكم في الرخاء ، وهذه الدنيا التي بيدي هي التي سمعت لي فيها حتى حصلت، أفابخل عليها ببعهضا؟ (نكث الهيمان في نكث العُميان ص ١٨٢–١٨٣٩ ط. أحمد زكي بك – الخانجي سنة ١٩١١م.

(٢) مروج الذهب ٣٧١/٤.

(٣) العيني: عقد الحان – القسم الأول مخطوط جـ١٦/ورقة ٢٧، دار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ

(٤) فاضل الخالدي: الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق خلال القرن الخامس الهجري ص١٣.

(٥) باب الطاق محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي تعرف بطاق أسماء (معجم البلدان ٣٠٨٩/١، وانظر أيضاً: كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية (خارطة بغداد ملحق ص٤٠)، د. يعقوب ليستر: خطط بغداد في العهود العباسية الأولى ص١٧٦، ترجمةك د/صالح العلي. ط العراق سنة ١٩٨٤م، ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢١٦.

(٦) اصفهدوست لقب يطلق على القادة الأتراك غالباً.

واستاء لذلك، واتخذ من هذا الموقف ذريعة للتخلص من الخليفة العباسي، وفعل ما فعله مع الخليفة الذي أهان مذهبه، ومن تلك اللحظة أظهر معز الدولة في دولته التشيع والرفض[١].

وجدير بهذا التفسير أن يدفعنا إلى القول بأن من أهم العوامل التي أدت إلى سوء معاملة الأمراء البويهيين للخلفاء العباسيين: الاختلاف المذهبي، حيث كان الخليفة العباسي رمزاً دينياً للمذهب السني – الذي تدين به أغلب شعوبهم، على حين كان البوهيون شيعة زيدية – على نحو ما أسلفنا من قبل – فهم بذلك يخالفون مذهب الخلفاء، حماة المذهب السني، ومن ثم لم يعترفوا بسيادة الخليفة العباسي على العالم الإسلامي.

وقد أشار ابن الأثير[٢] إلى هذا في قوله: (فلم قُبض على المستكفي بويع المطيع لله.. أزداد أمر الخلافة إدباراً ولم يبق لهم في الأمر شيء البتة، وكانوا يراجعون، ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء، فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعها،.. ويعلل ذلك قائلاً: (وكان من أعظم الأسباب في ذلك أن الديلم يتشيعون ويغالون في التشيع، ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة، وأخذوها من مستحقيها، فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة).

وقد يفسر هذا ما فكر فيه البويهيون – في بادئ أمرهم – من محاولة نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي، ولكنهم عدلوا عن ذلك وأبقوا الخلافة عباسية لاعتبارات سياسية[٣].

وقد كان معز الدولة يفرط في التشيع حتى إنه فكر في مبايعة أبي الحسن بن محمد بن يحيى العلوي – أحد كبار العلويين– وأسر إليه بترمه في تقبيل أكمام المخانيث[٤]، يشير بذلك إلى الخليفة المطيع لله.

---

(١) الذهبي: دول الإسلام ١/ص٢٠٧، البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر ص٢٢–، د. هاشم عبد الراضي الوزارة في العصر البويهي ص١٦٧.

(٢) الكامل جـ٧م٢٠٧–٢٠٨.

(٣) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ن ص٢٤٨.

(٤) البروني: الجماهير في معرفة الجواهر ، ص٢٢، ٢٣.

بيد أن أبا جعفر الصيرمي، أحد رجال معز الدولة – ووزيره فيما بعد– محضه النصيحة، وحذره من سخط عامة الناس وغضبهم إذا ما أقدم على ذلك لأن (عامة الناس في الأقطار قد اعتادوا الدعوة العباسية، ودانوا بدولتهم وأطاعوهم كطاعة الله والرسول، ورأوهم أولى الأمر، وتزاحموا على الانقياد إلى ولاتهم، ولم يعهدوا من العلوية الناجمين غير الأسر والقتل، فاعتقدوا فيهم العصيان والكفران بالخروج على خلفاء الله وولاة الأمر)[١].

كما يبين له الصيرمي مساوئ الخلافة العلوية وميزة ان يكون الخليفة عباسياً، فقال له: (إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مسحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا) [٢]، كما أضاف الهمداني [٣] قول الصيمري لمعز الدولة: (إذ بايعته (العلوي) استنفر عليك أهل خراسان وعوام البلدان، وأطاعه الديلم ورفضوك، وقبلوا أمره فيك، وبنو العباس قوم منصورون تعتلُ دولتهم مرة، وتصحُ مراراً، وتمرضُ تارةً، وتستقل أطواراً، لأن أصلها ثابت، وبيانها راسخ.

وعلى الرغم من أن معز الدولة قد تم له ما أراد من عزل الخليفة المستكفي بالله ومبايعة الفضل بن جعفر المقتدر الذي لقب بالمطيع لله[٤]، إلا أن معز الدولة قد حرص على سلبه، أغلب السلطات واستأثر بالسلطة دونه، واستولى على

---

(١) البيروني: السابق ص٢٣.

(٢) ابن الاثير: الكامل جـ٧/ص٢٠٨، واشار إلى أن معز الدولة كان ينوي البيعة للمعز لدين الله العلوي، أو لغيره من العلويين، وما أشار إليه ابن الأثير ليس صواباً، إذ تولى المعز لدين الله الفاطمي الخلافة من سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م حتى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م، بينما فكرة تحويل الخلافة كانت – فيما يبدو– في مستهل حكم البويهيين سنة ٣٣٤هت، وهذا يرجح أن نية معز الدولة كانت تتجه نحو مبايعة أبي الحسن العلوي، الذي كان زيدياً، وهو المذهب الذي يعتنقه البويهيون، بينما كان مذهب الفاطميين هو الذهب الإسماعيلي، وبخاصة ان المقريزي لم يشير إلى ذلك في (اتعاظ الحنفا) جـ١/ص٨٠=٨٣ أحداث سنة ٣٣٤هـ، تحقيق : د/ جمال الدين الشيال طن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٦٧.

(٣) تكملة الطبري ص٣٥٤-٣٥٥.

(٤) انظر ترجمته في (فوات الوفيات) لابن شاكر الكتبي جـ٣/ص١٨١ ترجمة رقم ٣٩١، تحقيق:د. إحسان عباس ط، دار صادر بيروت.

العراق بأسره، حتى لم يبق بيد الخليفة شيء سوى ما اقتطعه له الأمير البويهي معز الدولة مما يقوم ببعض حاجاته[١]، ثم أقام لنفقته كل يوم ألفي درهم[٢]، بل لم يتورع معز الدولة أيضاً من أن تمتد يده إلى إقطاعات الخليفة ضمن ما استولى عليه من إقطاعات، حينما شغب الديلم سنة ٣٣٤هـ، سنة ٩٤٥م واضطر إلى مصادرة الناس واستخراج أموالهم ليوزعها على خاصته وقواده وجنده الأتراك، ليضمن ولاءهم ويسكن شغبهم[٣].

كذلك فإنه على الرغم من عجز الخليفة العباسي المطيع لله وضعفه أمام البويهيين، إلا أن معز الدولة سنة (٣٣٥هـ/٩٤٦م) قد استحلفه بيمين عظيمة ألا يتغيب عنه، ولا يبغيه سوءاً، ولا يمالي عليه عدواً، فلما حلف الخليفة بأغلظ الإيمان وثق به معز الدولة وأعاده إلى دار الخلافة[٤].

ولم تكن سياسة البويهيين مع الخلفاء العباسين قائمة على سلب نفوذهم السياسي فحسب، بل تجاوزوا ذلك إلى إضعاف مركزهم المالي بعد أن كان الخلفاء العباسيون – قبل العهد البويهي– يتمتعون بسلطة مالية تعطيهم حق التصرف في المال العام، وفيما يرد إلى خزائن الدولة من حكام الأطراف، كما كانت لهم ممتلكات خاصة وإقطاعات واسعة، وكانت هذه السلطة المالية تؤازر سلطانهم السياسي، وتسمح لهم بتوجيه الأحداث والتأثير فيها، (فكان التغلب البويهي مؤذناً بظهور عصر جديد له نتائج اقتصادية بعيدة الأثر في الحقل الاقتصادي انتهى على أثره ترف البلاط العباسي، ولم يترك وارد الخليفة في العصر البويهي مجالاً للبذخ ولم نعد نسمع عن ترف الخلفاء في ذلك العصر الذي امتد حتى سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م)، بل نجد التاريخ يمجد تقوى الخلفاء، كالخليفة القادر (٣٨١سنة ٩٩١م– ٤٢٢هـ/سنة ١٠٣٠م)– على نحو ما سنرى – الذي أشادت كتب التاريخ بزهده وتقواه[٥].

---

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ، ص٢٩١.

(٢) مسكوبة: تجارب الأمم ٨٧/٦.

(٣) مسكوبة السابق ٩٦/٦.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٥٤/١٤، مسكوبه : تجارب الأمم ١٠٥/٦-١٠٦.

(٥) د. محمد علي حيدر: (الأوضاع الاقتصادية في العراق والمشرق) ص٣١١، ٣١٢ – رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم – وانظر د. عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص٢٣٩.

هذا وقد بلغ الأمر أنه لم يعد للخليفة مصدر للدخل سوى راتب يومي يُجريه عليه الأمير البويهي، وكان مقدار هذا الراتب في عهد المستكفي بالله خمسة آلاف درهم لنفقاته، بل كان هذا الراتب أحياناً يتأخر على الخليفة، مما دفع البويهيين لتخصيص إقطاعات محدودة للخليفة يتولى إدارتها كاتبه[1]، كما إن هذا الراتب قد أنقص – في عهد المطيع – إلى ألفي درهم فقط.

ولم تكن هذه السياسة الرامية إلى إضعاف نفوذ الخلفاء في كل النواحي مقصورة على معز الدولة – أول الأمراء البويهيين – وحده، بل ورثها عنه أبناؤه وأحفاده من أمراء البيت البويهي.

فبعد أن آلت السلطة ببغداد إلى عز الدولة بختيار – بعد وفاة أبيه معز الدولة سنة (٣٥٦هـ/٩٦٦م)– وجدناه، كأبيه، ينتهج سياسة تنطوي على الإمعان في إضعاف الخليفة العباسي وإذلاله، حتى لم يسلم ذلك القدر الضئيل من المال – الذي سمح للخليفة به – من طمعه، فراح يطالب الخليفة المطيع لله سنة ٣٦٢هـ/سنة ٩٧٢م بمبالغ مالية، مُدعياً انه يزمع الغزو في سبيل الله والجهاد ضد الروم الذين اعتدوا على الدولة الإسلامية، والجهاد واجب الخلفاء.

ولم يملك المطيع – عندئذٍ– إلا أن يرد عليه برسالة تفضح ضعفه وعجزه، وتعكس هيمنة البويهيين على مقاليد الأمور، حيث قال – كما ذكر ابن الأثير[2]: (إن الغزاة والنفقة عليها وغيرها من مصالح المسلمين تلزمني، إذا كانت الدنيا في يدي وتُجبى إلى الأموال، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء من ذلك، وإنما يلزم من البلاد في يده وليس لي إلا الخطبة فإن شئت ان أعتزل فعلت) وأضاف مسكويه[3] على لسان المطيع قوله: (وأما الآن وليس لي إلا القوت القاصر عن كفائي، وهي {الدنيا} في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف، فما يلزمني غزو، ولا حج، ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه، وإنما لكم مني هذا الاسم الذي

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢٠٦/٧.

(٢) الكامل جـ٧/٣٣٠.

(٣) تجارب الأمم جـ٦/ص٣٠٧.

يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم، فإن أحببتم أن أعتزل؛ اعتزلتُ عن هذا المقدار أيضاً وتركتكم والأمر كله).

بيد أن عز الدولة لم يقنع بما كتبه له المطيع، فاستمر في تهديده، وراح يضيف عليه – ولم يكن المال متوفراً لدى الخليفة – مما اضطره إلى الالتزام بأربعمائة ألف درهم باع في سبيل الوفاء بها ثيابه وأثاثه ومجوهراته وأنقاض بيته، وشاع الخبر في بغداد بين النساء من العراقيين، وحجاج خراسان، وغيرهم، أن الخليفة قد صودر، ولم ينفق عز الدولة الأموال التي أخذها من الخليفة في الجهاد – كما زعم – وإنما أنفقها في مصالحه [1]، بعد أن تصدى للروم كل من هبة الله بن ناصر الدولة الحمداني، و(هزا رمد) صاحب آمد {وهو غلام أبي الهيجاء ابن حمدان}[2].

ولم تكن إساءة الأمراء البويهيين للخلافة العباسية محصورة في سلوك معز الدولة وابنه عز لدولة بختيار مع المستكفي بالله، والمطيع لله، وإنما كانت نهجاً وسلوكاً اقتدى به الأبناء من بني بويه، وورثوه كابراً عن كابر مع الوضع في الحسبان ان عقيدة التشيع التي يعتنقها أمراء بني بويه لم تنفك عنهم جيلاً بعد جيل، والتي بمقتضاها تظل نظرة هؤلاء الأمراء للخلفاء العباسيين مرتكزة على كونهم غير شرعيين، وأنهم سالبون للخلافة من مستحقيها، وهم العلويون.

ومن ثم لم يكن بقية الخلفاء العباسيين – خلال العصر البويهي – أحسن حظاً من المستكفي والمطيع، فقد كان الخليفة الطائع لله (٣٦٣هـ/٩٧٤م-٣٨١هـ/٩٩١م)- الذي ورث الخلافة عن أبيه المطيع- أسوأ حالاً منهما ؛ إذ أساء الأمير البويهي بهاء الدولة إليه إساءة بالغة، حينما قلت الأموال لديه واحتاج إلى المال بادر بمصادرة الخليفة، بإيعاز من أحد رجاله، إذا أطمعه أبو الحسن بن

---

(١) العيسي: عقد الجمان ق٢/جـ١٩/ ورقة ٢٥٤ (مخطوط) مسكوبه: تجارب الأمم جـ٦/ص٣٠٨، ابن الأثير: الكامل جـ٧/ص٣٣٠، ابن تعري بردي: النجوم الزاهرة ٤/٧٠-٧١، السيوطي: تاريخ الخلفاء ٤٠٢ والمصادرة : نظام مالي يضرب بجذوره في تاريخ الدول العباسية، وبخاصة في عهد نفوذ الأتراك.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ٧/ص٣٣٦، ابن العبريك مختصر تاريخ الدولة ص٢٩٥، آمد: لفظة رومية، وهي أعظم مدى ديار بكر – في إقليم الجزيرة والموصل – باقرب – معجم البلدان ١/٥٦

المعلم – أحد المقربين لبهاء الدولة، والغالب على أمره في أموال الخليفة الطائع، وزين له ذلك، وهونه عيه، وحسن له القبض على الخليفة.

وفي ذلك يقول أبو شجاع الروزوري[1]: (كان أبو الحسن المعلم (وبئس الفريق هو) – وهذا تعليقه – قد كثر عند بهاء الدولة مال الطائع لله، ودخائره وأطمعه فيها، وهون عليه أمراً عظيماً، وجراه على خُطبة شنعاء، فقبل منه، وقبض عليه).

وعلى إثر هذا أعمل بهاء الدولة الحيلة للقبض على الطائع، حيث كتب إليه أن يجلس له على رسم تجديد البيعة له، وفي رمضان سنة ٣٨١هـ/سنة ٩٩١م دخل بهاء الدولة دار الخلافة وقد جلس الطائع لله في صدر الرواق متقلداً سيفاً، فلما اقترب منه الأمير البويهي، قبل الأرض بين يديه وأجلس على كرسي، فتقدم أصحاب بهاء الدولة كأنهم يريدون تقبيل يد الخليفة، ثم جذبوا الطائع عن سريره، والخليفة يقول (إنا لله وإنا إليه راجعون) وهو يستغيث ولا يُلتفت إليه، وتكاثر عليه الديلم، وحملوه إلى دار بهاء الدولة، وقبضوا على كاتبه (أبو الحسن علي بن حاجب النعمان)، وأخذ ما في دار الخليفة من الذخائر، وعم الاضطراب بغداد، ونهب الناس بعضهم بعضاً، ونهبت دار الخلافة عن آخرها ثم أرغم بهاء الدولة الخليفة أن يكتب رسالة تتضمن خلع نفسه، وتسليم الأمر من بعده إلى (القادر بالله) الذي بويع بالخلافة سنة (٣٨١هـ/سنة ٩٩١م)، وحلف بهاء الدولة يميناً بالوفاء والإخلاص فقلده ما وراء بابه مما تقام فيه الدعوة[2] وأضاف الذهبي[3] أن أكثر الجند قدر أن القبض على بهاء الدولة، فوقعوا في النهب... وقبض على الرئيس

---

(١) ذيل التجارب الأمم ، ص٢٠١.

(٢) انظر هذه الوقعة في : المنتظم جـ١٤/ص٣٤٨-٣٤٩، تاريخ الإسلام للذهبي ص٥ حوادث سنة ٣٨١هـ في جزء نشر بتحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري بحوي حوادث وفيات (٣٨١-٤٠٠هـ) ط. اولى دار الكتاب العربي سنة ١٩٨٨م الكامل جـ٧/٤٤٩-٤٥٠، مرآة الجنان لليافعي جـ٢/ص ٤١٠، العبر: للذهبي الذي أضاف أن دار الخلافة تعرضت للنهب وأخذ جميع ما فيها حتى الرخاء والأبواب ن ثم أبيحت للرعاع فقلعوا الشبابيك جـ٢/ص١٥٧، النجوم الزاهرة جـ٤،ص١٦٢. أخبار الدولة للقرماني جـ٢/ص١٥٧.

(٣) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير ، الإعلام ، ص٥.

علي بن عبد العزيز بن حاجب النعمان في جماعة، وصـــودروا واحتـــيط علـــى الخزائن والخدم، ورجع بهاء الدولة إلى داره.

على أن الأمراء البويهيين لم يقنعوا بما في أيديهم من سلطة نفوذ، بل راحوا يبحثون عن تلك المظاهر التي يُتوجُ بها سلطانهم،

وكانت الألقاب وغيرها من مظاهر السيادة الدينية والسياسية من أكثر الأمور التي حرص البويهيون عليها، بل إنه يمكن القول بأن الخلفاء العباسيين أنفسهم هم الذين كانوا حريصين على استمالة الأمراء البويهيين بمنحهم الألقاب والخلـــع [١]. وقد بدا ذلك واضحاً منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها البويهيون بغداد، حيث بادر الخليفة المستكفي بالله سنة (٣٣٤هـــ/سنة ٩٤٥م) بمنح أبناء بويه الثلاثة الألقـــاب: معز الدولة، ركن الدولة، عماد الدولة.

وجدير بالذكر أن نشير إلى ما أورده الصابي[٢] من أن أحمد بن بويه اقترح على الخليفة المستكفي بالله أن يمنحه لقب (عز الدولة) بيد أن الخليفة غيـــره إلـــى معز الدولة، ولقب المطيع لله بعد ذلك أبا المنصور بختيار بـــ (عز الدولة)، وكان عضد الدولة قد اقترح عند استقرار الأمر له على تلقيبه بـــ (تاج الدولة) فلم يُجب إليه وعدل به إلى عضد الدولة ثم زيد عليـــه تـــاج الملـــة ســـنة (٣٦٧م/٩٧٧م)، وصارت الألقاب مثناة بعد ذلك.

وظل أمراء بني بويه حريصين على الحصول على الألقاب التـــي ترضـــي نفوسهم، وتبرز نفوذهم. وما كان من الخليفة العباسي – المغلوب على أمـــره– إلا أن ينصاع إلى أوامرهم، ويسعى لإرضائهم، فيقلدهم الخلع ويمنحهم مـــا يشـــاؤون من الألقاب.. التي كان من حرصهم على المبالغة فيها أن طلـــب جـــلال الدولـــة البويهي سنة (٤٢٩هـــ/ ١٠٣٧م) من الخليفة القائم بأمر الله أن يخطب له بلقـــب

---

(١) د. هاشم عبد الراضي ، الوزارة في العصر البويهي ، ص١٧١

(٢) رسوم دار الخلافة ص١٣١–١٣٢ تحقيق: ميخائيل عواد. هذا بينما علق الأمير شكيب أرسلان على مـــا وصل إليه عضد الدولة من مظاهر النفوذ والسلطان فقال عنه: (إنه أول من خوطب بلقب الملـــك فـــي الإسلام، وأول من خطب له على المنابر في بغداد بعد الخليفة: ولم يجد في زمانه من الملوك ما بلغة من علو الشأن وعز السلطان وفخامة الدولة وشدة الصولة) (رسائل الصبابي: جـــ١/ص١٦٨ حاشية ١، ط بيروت).

ملك الملوك، وامتنع الخليفة لاعتراض الإمام الماوردي قاضي القضاة ولكن جلال الدولة ألزمه بذلك بخطب له بملك الملوك.

وربما يدفعنا هذا إلى القول بأن الأمراء البويهيين لم يكتفوا بالألقاب التي بولغ فيها إلى حد الإسراف – على نحو ما أشرنا بإيجاز– وإنما تجاوزوا ذلك إلى مشاركة الخلفاء في كثير من المظاهر والرسوم السيادية، إذ أصبح لهم حق التصرف في السكة، فنقشوا أسماءهم وألقابهم مع اسم الخليفة عليها، حتى قال القلقشندي[١]: (إن أول من نقش اسمه من الملوك على الدنانير والدراهم مع الخلفاء "معز الدولة البويهي" وإخوته من الديلم، القائمون على الخلفاء العباسيين ببغداد)

ويذكر د. الدوري[٢] إن إشراف البويهيين على السكة أدى إلى أنهم نقشوا عليها أحياناً ألقاباً لم يمنحها الخليفة لهم، ويذكر مثالاً على ذلك أنه وجد لقب شاهنشاه بجنب اسم عضد الدولة على قطعة نقود ضربت بتاريخ سنة ٣٧٠هـ/سنة ٩٨٠م، مع أن هذا اللقب لم يمنح قبل جلال الدولة.

كما كان أمراء بني بويه حريصين على التمتع ببعض امتيازات الخلفاء، كإشارة قرع الطبول على أبوابهم أسوة بالخلفاء، وإن لم يكن معز الدولة قد تمكن من ذلك، إلا أنه في عهد عضد الدولة أجاز الخليفة الطائع لله للأمير البويهي أن تدق الطبول أمام داره ثلاثة مرات في وقت الصبح والمغرب والعشاء[٣]، ثم أصبحت عادة دق الطبول حقاً من حقوق كل من تولى زمام الحكم من أمراء بني بويه. وقد بلغ هذا الأمر ذروته حينما أمر سلطان الدولة سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م بضرب الطبول أمام داره خمس مرات في أوقات الصلاة دون إذن من الخليفة[٤]، وتبعه في ذلك جلال الدولة حينما أرغم الخليفة على أن يوافقه على قرع الطبول أمام داره خمس مرات سنة ٤١٨هـ/ سنة ١٠٢٧م[٥].

---

(١) صبح الأعشى ٤٤٣/٣.

(٢) دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ٢٥٣.

(٣) مسكوبة: تجرب الأمم جـ٦، ص٣٩٦، وعلق صاحب تاريخ الإسلام : وما ذاك إلا لضعف أمر الخلافة ، الصبابي: رسوم دار الخلافة ن ص١٣٦-١٣٧م.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ج١٨٣/١٥ ، ابن الأثير: الكامل جـ٨/ص١٦٢، تاريخ أبي الفدا جـ٢/ص١٥٠.

(٥) تاريخ ابن خلدون جـ٤، ص٥٧٠، ابن الأثير: الكامل ١٦٢/٨ ، د. حسن الباشا: دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص٩٦ـ ص٩٧ ـ ط. دار النهضة العربية سنة ١٩٧٥م.

وبالجملة فإن المتتبع لنفوذ الخلفاء العباسيين، يلاحظ أنهم كانوا – خلال العصر البويهي– رموزاً لا مهابة لها ولا إجلال، كما كانوا حريصين – منذ البداية– على أن يخصوا بني بويه بكثير من شعائر التكريم التي أخذت صوراً مختلفة – على نحو ما أشرنا لبعضها – وصاروا رموزاً للمنصب الديني مع حرمانهم من التوقير والإجلال. وقد تمسك الخليفة بهذا النفوذ الديني، واعتبره سلاحاً قوياً يقاوم به استئثار البويهيين بالسلطة[١]. وفي ذلك يقول البيروني [٢]: (إن الدولة والملك قد انتقل من آل العباس إلى آل بويه، والذي بقى في أيدي خلفاء الدولة العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي لا ملك دينيوي).

على أن هذا الرمز الديني هو الذي جعل البويهيين – رغم تشيعهم – يظهرون للخلفاء جزءاً من الاحترام، لا يعدو أن يكون مقصوراً على الحفلات الدينية والسياسية، هذا بالإضافة إلى احتفاظ الخفاء بحقهم في تولية العهد لأبنائهم[٣]. وتفويض الأمراء لحكم البلاد، هذا التفويض كانت له أهمية بالغة في نظر المسلمين لوقوفهم على مدى شرعية هذا الأمير أو ذاك، من خلال ما يمنحه له الخليفة من صلاحيات، حتى وإن كانت إمارة استبداد، ليس للخليفة إلا أن يقر الأمير عليها.

هذا ولم يكن الخليفة يحظى بهذا القدر الضئيل من الاحترام من قبل الأمراء البويهيين لرضا هؤلاء الأمراء عنهم، أو إقناعهم بشرعيتهم – وهذا أمر سبق أن أشرت إليه – وإنما كان يقصد من هذا الاحترام كسب تأييد عامة المسلمين الذين يدينون بالولاء للخليفة العباسي السني الذي كان رمزاً للسلطة الروحية.

هذا وتشير بعض المصادر إلى أن النفوذ الديني الذي كان يتمتع به الخليفة كان له أثره في المجتمع – آنذاك – إذ عن طريق هذا النفوذ الديني استطاع الخليفة القادر بالله (٣٨١هـ/٩٩١م-٤٢٢هـ/١٠٣٠م) أن يسترد بعض النفوذ

---

(١) د. هاشم عبد الراضي: الوزارة في العصر البويهي ص١٧٤.

(٢) الآثار الباقية ص١٣٢ ط. دار صادر – بيروت (نسخة مصورة عن ط. ليبزج سنة ١٩٢٣م٨.

(٣) وترد كتب التاريخ أن أحد أمراء بني بويه وهو (عضد الدولة) صاهر الخليفة العباسي طمعاً في أن تنجب زوجته (زوجته الخليفة) غلاماً يصبح ولياً للعهد ، فيكون هذا مدعاة لنقل الخلافة ذاتها إليهم ، فضلاً عن محاولات نقل الخلافة التي أشرنا إلى احداها.

الفعلي للخلافة، وهو ما أشار إليه ابن الطقطقي[1] عند حديثه عن القادر، حيث قال: (وفي أيامه رجع وقار الدولة العباسية، ونما رونقها وأخذت أمورها في القوة).

بيد أن الأمر لم يكن بالصورة التي وصفها (صاحب الفخري) من هيبة الخلافة وقوتها، إذ حاول بعض الأمراء البويهيين الاعتداء على حق الخليفة في تعيين القضاة وأمراء الحج والمظالم، فقلّد الأمير بهاء الدولة النقيب (أبا أحمد الموسوي)- والد الشريف الرضي- نقابة العلويين بالعراق سنة (٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م)، وكذلك القضاء والحج والمظالم، وكتب بهدوه بذلك من شيراز، ولقبه بالطاهر الأوحد ذي المناقب[2]. ولكن الخليفة القادر أنكر على بهاء الدولة تدخله في سلطته الدينية – وهي جل ما تبقى له على نحو ما أشرنا سلفاً – ولم يأذن في قضاء القضاة، فتوقف حاله، ولم يأذن له بتقيد إمارة الحج ونقابة الطالبين وديوان المظالم، على الرغم من أن هذه الأمور أيضاً من اختصاصات الخليفة[3].

وقد أورد ابن الجوزي أن جلال الدولة البويهي في سنة (٤٣٤هـ/١٠٤٢م)- عندما افتتحت الجوالي[4] – أنفذ من منع أصحاب الخليفة عنها، وأخذ ما استخرجوه منها (مال الجزية) وأقام فيها من يتولى جبايتها له فشق ذلك على الخليفة الذي عزم على مفارقة بغداد، وأرسل القضاة والفقهاء والشهود بذلك، الذين كان منهم أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي فأنكر ذلك على بهاء الدولة.

---

(١) الفخري ص ٣٩١، ويكن إرجاع هذه الصحوة إلى شخصية (الخليفة) والذي كان يتمتع بالسيادة والتدين والصفات الدينية التي من شأنها أن تجذب غليه جماهير الشعب ، فضلاً عن التفكك والتشرزم، لذى أضعف البوهيين فآلت دولتهم إلى الانهيار. وهي صحوة لم تبلغ من القوة ما يسمح للخليفة من ممارسة صلاحياته كخليفة بأمر وينهي كالخلفاء العظام الأقوياء.

(٢) ابن الجوزيك المنتظم ٤٣/١٥، ابن الأثير الكامل ٣٠/٨، البداية والنهاية ١١/ ص٣٣٣.

(٣) د. بدر عبد الرحمن محمد : الحياة السياسة ومظاهر الحاضرة في العراق والمشرق من أوائل القرن ٤هـ حتى ظهور السلاجقة ص٥١، ط. اولى مكتبة الأنجلو سنة ١٩٨٩م.

(٤) المنتظم : ٢٨٥/١٥، الجوالي بالضم لم يذكر باقوت سوى أنها موضع {معجم البلدان ١٧٥/٢} وانظر: البداية والنهاية ٥٠/١٢.

وربما كانت ضعف سلطة الخلفاء العباسين، واعتناق الأمراء البويهيين للمذهب الشيعي (الزيدي) سبباً في تشجيع الفاطميين على إرسال دعاتهم إلى بلاد الخلافة العباسية لنشر الدعوة لهم، كما حفزهم إلى العمل على تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة الإسلام منها [١]، حيث ورد أن الأمير البويهي عضد الدولة (٣٦٧هـ/ ٧٧م)- (٣٧٢هـ/سنة ٩٨٢م) تبادل الرسائل الودية مع الخليفة الفاطمي العزيز بالله، وقد كشف الأمير البويهي في إحدى هذه الرسائل عن إخلاصه وولائه للعزيز بالله، كما اعترف له بإمامته وانتسابه إلى آل البيت[٢].

وقد يكون في هذا إشارة إلى تأثر بعض أمراء بني بويه بالدعوة الفاطمية، وعدم اكتراثهم بإرضاء الخليفة العباسي من الناحية المذهبية، والاصطدام بمشاعر أهل السنة؛ مما كان له أثر في النواحي السياسية، على نحو ما سنبين في علاقة البويهيين بالفاطميين، وحركة أبي الحارث البساسيري[٣].

على أنه لا يفوتنا أن نشير إلى أن أمراء بني بويه حرصوا – أحياناً – على التظاهر باحترام الخلفاء العباسيين، والإبقاء لهم على بعض النفوذ الديني، والمبالغة في إظهار أبهة الخلافة في المناسبات؛ وذلك لتهدئة الرأي العام وإرضاء الجماهير.

وثمة قصة أوردها مسكويه[٤]، أشبه بالمسرحية السياسية التي تقوم على السخرية[٥]، الأمر الذي دفع. الدوري إلى أن يعلق عليها قائلاً: (فما أغربها مهزأة سياسية) [٦].

---

(١) د. محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص٧٦ ط. دار الفكر العربي سنة ١٩٥٧م

(٢) ابن تغزي بردي: النجوم الزاهرة ج٤/ص١٢٨، ١٢٩.

(٣) د. حسن علي حسن : حركة البساسيري بالعراق ، بحث منشور بندوة التاريخ الإسلام بدار العلوم جـ٥، ص٣-٨١، سنة ١٩٨٥م

(٤) تجارب الأمم جـ٦/ص٤١٦-٤١٨ (حاشية) نقلاً عن تاريخ الإسلام للذهبي – أحداث سنة ٣٦٩هـ.

(٥) د. هاشم عبد الراضي ، الوزارة في العصر البويهي ص١٧٦.

(٦) دراسات في العصور العباسية المتاخرة ، ص٢٦٠.

تلك هي أهم الملامح السياسية لأمراء بني بويه الشيعة مع خلفاء بني العباس السنيين، وما انطوت عليه هذه السياسة من امتهان وسخرية لهم، ومحاولة إظهار بعض مظاهر الاحترام الصوري أحياناً.

موقف العباسيين من الفرس والموالي:

وقف الخلفاء منهم موقف الرقباء، حتى إذا ما لمسوا من أحدهم نزوعاً إلى الخروج على الدولة أو الكيد للخلافة العربية أعملوا فيه سيوفهم ونكلوا بأهله وشيعته، كما حدث لأبي مسلم الخراساني والبرامكة[١] وغيرهم، فاستقام الأمر للخلافة العباسية في المائة الأولى من هذا العصر وهي الفترة التي قوي فيها نفوذ الخلفاء وحرصهم وسطوتهم. [٢]والعباسيون أول من اتخذ الوزراء من الفرس، وقد جعلوا في أيديهم مقاليد أمور الدولة، وعولوا عليهم في أكثر الأحوال وجعلوا الوزارة وزارتين.

وزارة تفويض تخول صاحبها سلطات تدبير الأمور برأيه ووزارة تنفيذ ينفذ صاحبها ما يراه الخليفة، ويكون واسطة بينه وبين الشعب يمضي فيه أمر الخليفة من تقليد الولاة وتجهيز الجيوش إلى غير ذلك.

وهكذا حاكى العباسيون القياصرة والأكاسرة في تنظيم دولتهم ومالوا إلى الترف والرخاء واعتمدوا على من يقوم مقامهم في إدارة الأعمال[٣] فحالة الدولة العباسية في العصر الأول الذي يبدأ من سنة (١٣٢هـ إلى ٢٣٢هـ) قد امتازت بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدولة وبنفوذ الفرس فيه ولكنهم، أي الفرس لم يقووا أن يتغلبوا في القرن الأول على سلطان الخلفاء لقوة شخصيتهم وفتوة دولتهم، والتاريخ لا يزال يحدثنا عما كان من فتك المنصور[٤] بأبي مسلم، وفتك

---

(١) أسرة فارسية مشهورة لعبت دور أساسياً في شئون الدولة العباسية زمن الخلفاء الأربعة الأول، أسسها خالد بن برمك، عظم شأن هذه الأسرة أيام الرشيد وكثرت الوشاية بهم فنكبهم الرشيد وصادر أموالهم ومنع الشعراء من رثائهم .

(٢) تاريخ الأدب العربي، الدكتور محمد سرحان ، ٩

(٣) الموجز: ٤/٣

(٤) ابوجعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس ، كان عالماً محباً للعلماء، تولى الخلافة سنة ١٣٦هـ وبني مدينة بغداد وجعلها عاصمة ملكة ، اتصف بالحزم والشجاعة وتوفي سنة ١٥٨هـ بعد خلافه دامت ٢٢ عاماً.

الرشيد [١] بالبرامكة احتفاظاً للخلافة بالنفوذ. لذا عرف هذا القرن الأول بعصر سيادة الدولة واكتمال السلطان، غير أنه حدث في أخره حيث آلت الخلافة إلى المعتصم[٢] أخي المأمون[٣] أن عمد بحكم فتوته وقوة بدنه وانسياقه لإشباع هذا النهم الجسمي بأعمال الرياضة والفروسية إلى عدد من الأتراك الخدم جعلهم في هذا النوع من اللهو مخالطيه ومعاونيه، وانساق في سبيل الاستكثار منهم حتى بلغوا كما قال المؤرخون سبعين ألفاً وصار لهم في بغداد شغب واعتداء جر لهولها بالشكوى منهم والاشمئزاز[٤] وكانوا مجلبة الكوارث والمحن للدولة، **وقد اتجه المعتصم إلى الأتراك لسببين:**

الأول: أنه بدأ يشعر بضعف ثقته بالفرس الذين ظلوا عماد الدولة نحو قرن من الزمان، وذلك أنه رأى الجند الفرس يميلون إلى العباس بن المأمون لما مات أبوه، أما إقصاؤه للعرب فهو أمر تقليدي جرى عليه أسلافه.

الثاني: أن أم المعتصم كانت تركية من السعد وإلى ذلك يعزى ما كان يتصف به المعتصم من الشجاعة والاعتداد بقوة الجسم وتلك من أخص صفات الأتراك.

استكثر المعتصم من المماليك الأتراك للسببين السابقين، وكان يستقدمهم من بخارى وسمرقند وغيرها[٥]

---

(١) هارون الرشيد ابن محمد (المهدي) ابن المنصور العباسي خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي، ازدهرت الدولة في عهده، وكان عالماً فصحياً له شعر ، حازماً كريماً متواضعاً محباً للعلماء والأدباء قيل لم يجتمع على باب خليفة ما اجتمع على بابه من الشعراء والعلماء والكتاب والندماء، توفي سنة ١٩٣هـ بعد خلافه دامت ٢٣ عاماً

(٢) بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور (المعتصم بالله) من أعاظم خلفاء بني العباس اشتهر بفتح عمورية، استكثر من الجنود الاتراك وكان له سبعون الف مملوك منهم، وحين ضاقت بغداد بهم بني لهم مدينة سامراء وتوفي بها سنة ٢٢٧هـ بعد خلافه دامت أكثر من ٨ سنوات.

(٣) عبدالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي سابع خلفاء بني العباس كان عالماً محدثاً محباً للأدب، قرب العلماء والشعراء ونشطت حركة الزندقة في عهده مجده المنصور، توفي سنة ٢١٨هـ.

(٤) تاريخ الأدب العربي ، السباعي بيومي، ٤/٣

(٥)ابن قتيبة ٥٠-٥١

أما العصر الثاني الذي يبدأ عام ٢٣٢هـ حتى سنة ٣٣٤هـ فقد اتسم بضعف الخلفاء وضياع هيبة الخليفة وفساد شئون الدولة وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذي بلغ حداً كبيراً في هذا العصر، فلقد انتقلت فيه سياسة الدولة من الفرس إلى أيدي الأتراك الذين أخذوا ينكلون بالفرس والعرب جميعاً وسعوا في قتلهم.

ولما مات الواثق[١] سنة (٢٣٢هـ)سعى الأتراك في ترشيح جعفر المتوكل[٢] ابن المعتصم للخلافة لأن أمه "شجاع" خوارزمية تركية فتم لهم ما أرادوا.

واستبدوا في عهده بأموال الدولة وشئون الخلافة، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثرهم فارسيون وزاد في رعاية الأتراك وتقديمه لهم، فزاد طمعهم في الدولة وأصبحوا مصدر قلق واضطراب فهم يكرهون الفرس والعرب وهم كثيرو الدسائس والمؤامرات كثيرو الطمع في الأموال والعبث بالأمن[٣].

ولم يقف الأتراك من الدولة في الاستبداد بأموالها عند حد فتناول طغيانهم أكثر ما تناول أشخاص الخلفاء، وأول ما حدث من فظائعهم حدث للمتوكل على الله فإنهم جردوه من كل سلطة وكان قد فقد النصير من الفرس لاشتداده في محاربة التشيع وإذ حاول الإبقاء على شيء من هيبة الخلافة تآمروا مع ابنه المنتصر[٤] على قتله فقتلوه، فكان هذا فتحاً لطريق جديد في التخلص من الخلفاء وتوالت بعد هذا الحدث أحداث في التعذيب والتقتيل، والمعذبون المقتلون بمعزل عن المعين والنصير حتى فقدت بغداد مكانتها وانصرف الناس عنها بعد انصرافهم إليها.

---

(١) الواثق بالله ابو جعفر هارون بن المعتصم بالله بن هارون الرشيد العباسي، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٢٢٧هـ امتحن الناس في خلق القرآن، كان كريماً عارفاً بالآداب والأنساب عالماً بالموسيقى ، مات في سامراء سنة ٢٣٢هـ

(٢) المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله (اخو الواثق) خليفة عباسي بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الواثق، كان محباً للعمران من آثاره المتوكلية ببغداد اغتاله الأتراك بالاغراء من ابنه المنتصر وكان ذلك سنة ٢٤٧هـ

(٣) الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ٩

(٤) المنتصر بالله محمد بن جعفر (المتوكل) بن المعتصم ، بويع له بالخلافة بعد مقتل أبيه سنة ٢٤٧هـ وهو أول من عدا على أبيه من بني العباس ولم تطل مدته بالخلافة أكثر من سته أشهر وأيام توفي مسموماً بسامراء سنة ٢٤٨هـ.

وكان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين وكانت هذه الحادثة صرع الخلافة ومصرع الأتراك.

وفي ذلك يقول البحتري:[١]

أكان ولي العهد أضمر غدره *** قمن عجب أن ولي العهد غادره

فلا ملك الباقي تراث الذي مضى *** ولا حملت ذاك الدعاء منابره[٢]

ويقول المهلبي: [٣]

لا حزن إلا أراه دون ما أجد *** وهل لمن فقدت عيناي مفتقد

ومنها:

فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم *** حمتكم السادة المذكورة والحسد[٤]

ويقول على بن الجهم:[٥]

عبيد أمير المؤمنين قتلنه *** وأعظم آفات الملوك عبيدها

بني هاشم صبرا لكل مصيبة *** سبيلي على موجة الزمان جديدها[٦]

وإذا كان الشعب يكره الأتراك من بدء اصطناع المعتصم لهم فإن هذه المأساة المؤلمة كانت سبباً في زيادة كراهية الرأي العام ونقمته عليهم[٧].

---

(١) ابو عبادة البحتري الوليد بن عبيد بن يحي الطائي شاعر كبير من شعراء العصر العباسي وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشهر شعراء عصرهم: المتنبي وأبوتمام والبحتري، قيل لأبي العلاء المعري: أي الثلاثة اشعر؟ فقال: المتنبي وأبوتمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري، اتصل بخلفاء بني العباس يمتاز شعره بالسهولة والرقة يقال بشعره سلاسل الذهب ، له ديوان شعر وله ديوان الحماسة ، وكثرت الكتب التي الفت فيه، توفي بمنبج سنة٢٨٤هـ

(٢)ديوان البحتري ٢١٦/١

(٣) المهلبي، يزيد بن محمد بن المهلب بن المغيرة من بني المهلب بن أبي صفره، شاعر محسن راجز اتصل بالمتوكل ونادمه ومدحه ورثاه بهذه القصيدة التي تعد من عيون الشعر، توفي ببغداد سنة ٢٥٩هـ

(٤) يتيمه الدهر ١٥٦/٢

(٥) علي بن الجهم بن بدر من لؤي بن غالب شاعر رقيق الشعر اديب من أهل بغداد من معاصري أبي تمام، خص المتوكل العباسي بشعره ثم غضب عليه فنفاه إلى خراسان مات سنة ٢٤٩هـ

(٦) علي بن الجهم/ الباشا ١٣٧

(٧) الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ص ٩

وجعل خوف الخلفاء من أولياء العهود وخوف أولياء العهود من الخلفاء أن يستكثر كل فريق من أولئكم الخدم ليكونوا عليه حراساً وله جواسيس حتى عجت بغداد بجيوشهم وصار من استعان بهم العونة في أيديهم.

يؤيد هذا ما روي عنهم من أنه لما تولى المعتز[١] أحضروا المنجمين وقالوا لهم انظروا كم يبقى الخليفة في الخلافة؟ وكم يعيش؟ وكان في المجلس أحد الظرفاء فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته. قالوا: فكم تقول؟ فقال: ما أراد الأتراك.. فلم يبق في المجلس إلا من ضحك[٢]

وكان المعتز يكره الأتراك ويريد أن يثأر منهم لأبيه المتوكل وفي مصرعه

يقول البحتري من قصيدة يمدح فيها المعتز بالله:

أَضحى بُغاءُ وَأَقرَبوهُ وَحزبُهُ وَكَأَنَّهُم حُلُمٌ مِنَ الأَحلامِ

طاحوا فَما بَكَتِ العُيونُ عَلَيهِمِ بِدُموعِها وَمَضَوا بِغَيرِ سَلامِ [٣]

وبعد قليل سار الأتراك إلى المعتز فوبخوه وطالبوه بالأموال ثم عذبوه وضربوه بالدبابيس برجله إلى باب الحجرة وأقاموه في الشمس حافياً، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده.المهتدي بن الواثق[٤] الذي لم يعجبهم زهده وورعه وحبه للعدالة فخلعوه عام ٢٥٦هـ ومات بعد خلعه بأيام[٥]

وامتد بهم الزمن على هذا السوء قرن ضعف للدولة وفتور أعقب قرنها السالف قرن الفتوة والسلطان، ومازالت الحال على هذا النسق من البوار حتى

---

(١) المعتز بن محمد بن جعفر (المتوكل على الله) بن المعتصم خليفة عباسي ولد بسامراء سجنه المستعين بالله إلى أن أخرجه الأتراك بعد ثورتهم على المستعين بالله وبايعوا له سنة ٢٥١هـ خلع نفسه بعد أن عذبه الأتراك فمات شاباً وذلك بسر من رأي سنة ٢٥٥هـ

(٢) تاريخ الأدب العربي ، السباعي بيومي، ٥/٣

(٣) ديوان البحتري ٢٣٦/٢

(٤) المهتدي العباسي محمد بن هارون (الواثق) بن المعتصم بن هارون الرشيد من خلفاء الدولة العباسية، بويع له بالخلافة بعد خلع المعتز، وكان حميد السيرة شجاعاً يسير على نهج الخلفاء الراشدين، ولكن ذلك لم يعجب الأتراك فخلعوه ومات سنة ٢٥٦هـ

(٥) الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ص١٠

طمعت إحدى الدويلات الناشئة من هذا الضعف بالأقاليم وهي دولة البويه[١] في تخليص بغداد منهم فخلصتها أيام المستكفي بالله[٢] سنة ٣٣٤هـ بدأ عصر عباسي ثالث هو عصر الأوطان السياسية أو الدويلات.

بدأ بدخول البويهيين حيث سيطروا على الحكم بدل الأتراك وهم فرس وبذلك عاد الفرس إلى السيادة وأقاموا ببغداد يتصرفون باسم الخليفة، ولكنهم لم يكونوا كأسلافهم يرعون للخلفاء حرمتهم ويحفظون لهم جلالهم وهيبتهم بل حذوا حذو الترك في النكيل بهم والاستهانة بأقدارهم، وقد اشتد في هذه الفترة نفوذ الإمارات الإسلامية المستقلة المتباينة **ومن أهمها:**

١. الدولة السامانية بفارس وما وراء النهر(٣١٦-٣٨٩هـ).
٢. الدولة الزيارية بجرجان (٣١٦-٣٣٤هـ).
٣. الدولة الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧-٣٩٤هـ).
٤. الدولة البويهية بفارس ثم العراق (٣٢٠-٤٤٧هـ).
٥. الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣-٣٥٨هـ) [٣]

ثم تمخض التاريخ عن دولة عظيمة هي الدولة السلجوفية التي أنشاها رجلها الأول سلجوق بن بكباك بالتركستان سنة ٤٢٩هـ، ولما شاهد ضعف آل بويه في بغداد طمح في اكتساح المملكة الإسلامية وتقرب إلى المسلمين قبل هذا الاكتساح بأن أسلم هو وأسرته ورجاله تقدم إلى الغرب زاحفاً حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧هـ فكان هذا إيذان العصر العباسي الأخير "الرابع"[٤] ثم أن البلاد في عهد العباسيين لم تخل من حروب وفتن ففي الداخل قد نهضوا إلى قمع ثورات الراوندية[٥]

---

(١) دولة آل بويه دولة إسلامية تنسب إلى أبي شجاع بن بويه من الديلم، استولى احد ابنائه على بغداد ولقبه الخليفة بمعز الدولة، وصار الخلفاء من بعده يلقبون كل سلطان من بني بويه بأمير الأمراء، ولم يكن للخليفة ابان حكمهم كلمة نافذة.

(٢) المستكفي بالله عبدالله بن علي المكتفي بن المعتضد من خلفاء الدولة العباسية بالعراق ، كان ضعيفاً دخل آل بويه بغداد أيامه، سجنوه وسلموه عيونه أن مات سنة ٣٣٨هـ وذلك بعد خلعه سنة ٣٣٤هـ.

(٣) الحياة الأدبية في العصر العباسي ١٤

(٤)تاريخ الأدب العربي، السباعي بيومي، ٣/٧

(٥) الروندية مذهب اتباع ابن الروندي كان معتزلياً ثم أصبح من الروافض وله كتاب في فضيحة المعتزلة وآخر في الطعن على نبي المسلمين.

مؤلهي أبي مسلم الخراساني، والزنادقة في العراق وفارس، والعلويين مع ابن طباطبا[١] والخرمية مع بابك[٢] وغيرهم كثير من الذين قاموا في وجه الأمن والسلام.

وفي الخارج قد أكثر الخلفاء من الصوائف والشواتي وهي الحملات والغزوات في الصيف والشتاء، وقد اشتهر في ذلك أبو جعفر والمهدي والمعتصم فحاولوا غزو الممالك المجاورة ولاسيما بلاد الروم[٣] تلك خلاصة الحالة السياسية في البلاد العربية لذلك العهد فقد قامت الدولة العباسية في أول عهدها على القوة واستعانت بالفرس خاصة والشعوبية عامة وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشميين، فشالت كفة العرب والعروبة ورجحت كفة الأعاجم واقتصر شأن العرب على أن يكونوا عنصراً من عناصر الكثرة التي احتوتها الإمبراطورية، وتغلغل الفرس في صلب الدولة.

ولما نقلت العاصمة إلى بغداد تحول وجه الدولة عن البحر المتوسط وتوجه شطر فارس، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق وجعلوا قصور الخلفاء في بغداد أشبه بقصور الأكاسرة في المدائن، كما أدخلوا طرائق الفرس في تنسيق الدواوين وأساليب الحرب ونظم الحكم فتحولت الأنظار عن العرب وعاداتهم وتقاليدهم وانفتحت على الجديد والاستفادة منه[٤].

---

(١) ابن طباطبا، محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثني بن علي ابن أبي طالب أمير علوي تأثر من أئمة الزيدية، بايعه أهل الكوفة للثورة على المأمون، ولكنه لم يلبث أن مرض فمات ودفن بالكوفة سنة ١٩٩هـ

(٢) الخرمية: مذهب اتباع بابك الخرمي، وخرمة مدينة في ادزبيجان ظهر بابك سنة ٢٠١هـ وملك الجبل عشرين عاماً في خلافة المعتصم إلى أن قبض عليه سنة ٢٢٣هـ وكان يدعو فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي:

رمي الله منك بابكا وجيوشه * بقاصمة الاصلاب في كل مشهد
باسمح من صوب الغمام مساحة * وأشجع من صرف الزمان وانجد
فتى يوم "بذ" الخرمية لم * يكن بهيابه نكس ولا بمعرد

(٣)الموجز، ص ٥/٣

(٤) الموجز في الأدب العربي وتاريخه ٦/٣

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

تعددت عناصر الدولة العباسية في امتداد أطرافها من المغرب إلى مصر والشام وجزيرة العرب والعراق وفارس وما وراء النهر، واشتد الخلاف في ميزات تلك العناصر وعاداتها ومناهج تفكيرها، كما اشتد التمازج فيما بينها فلم تعد البيئة الاجتماعية عربية تنزع نزعة العروبة الخاصة بل قويت فيها الشعوبية وحركة التحرر من الأخلاق العربية، فجر التمازج انحطاطاً في الأخلاق.

يقول الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي ذاكراً اختلاف العناصر في هذا العصر وما تتميز به. كانت الدولة الإسلامية في ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها:

١. الأتراك وكان لهم النفوذ السياسي في الدولة وقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعاً وتولوا شتى المناصب الرفيعة في الحكومة، وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة، وكان فيهم عبث بالأخلاق، وشراهة في جمع الأموال وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة، فكثرت الجواري الأتراك في قصور الخلفاء والأثرياء حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات.

وطابع الترك حب الجندية والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة والبعد عن الفلسفة والجدل في الدين وحب المال وجمعه من أية سبيل مع عدم الرغبة في الإصلاح.

٢. العنصر الفارسي: كانوا عماد النظام السياسي والإداري للدولة ولكن الترك أقصوهم عن منزلتهم في العصر العباسي الأول فأخذوا يدسون الدسائس ويدبرون المؤامرات ويرمون إلى الاستقلال ببلادهم عن الخلافة وكانت الدولة تتأثر بهم في حياتهم العقلية الخصبة وتقاليدهم العامة وكانوا دعاة الترف والمجون والحضارة، وطابعهم حب السيادة والبذخ والقدرة على تنظيم إدارة الدولة وتشجيع العلوم والظهور بمظهر التشيع.

٣. العنصر العربي: أقصى عن النفوذ في الدولة والخلافة وكان للمعتصم في ذلك أثر معروف وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون في الشام والجزيرة، حيث كان

لهم هناك دويلات كثيرة وطابع العربي الزهو والاعتزاز بالنفس والفضائل والميل إلى الأدب والرغبة السيادة.

٤. وهنالك عنصران آخران كان لهما أثرهما في الحياة الاجتماعية في هـذا العصر وهما الزنج والروم.

٥. أما الروم فقد كثر أسراهم في بيوت الخلفاء والأغنياء حتى كـان بعـض الخلفاء من أمهات روميات، وكانت الجواري الروميات والغلمان الـروم يمـلآن القصور وتعشقهم الشعراء منهم ابن الرومي وأما الزنج أو السود فكانوا يجلبـون من سواحل أفريقيا الشرقية وكانوا يعملون في الزراعة والصـناعة وفـي بيـوت الطبقات المتوسطة، وليس أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التي هددوا بهـا الدولة (٢٥٥-٢٧٠هـ)[١] واختلاف هذه العناصر وتمازجهم كان له الأثر الكبيـر على الحياة في هذا العصر، ففي العصر الأموي بقي الجنس العربـي متحصـناً، فكان زواج العربي من غير العربية نادراً، وزواج العربية من غير العربي منكراً، فلما جاء العصر العباسي رافعاً شأن الموالي اقبل الناس على زواج الأعجميـات مسرعين لما لهن من فرط جمال ووافي عقل، ولما بدا من نسلهن من نجابة وذكاء وتسابقوا في هذا المضمار وقدوتهم فيه الخلفاء وأبناء الخلفاء.

وإذ وقف حد الدين للزوجات عند أربع انطلقوا في التسري غيـر المحـدود حتى ضاقت القصور بالقيان والإماء. وما من شك في أن هذا ينتج مـن التـأثير الجسمي وبالتالي العقلي في النشء الناشئ من الأعجميات الشيء الكثير.

فأما من الناحية الجسمية فلما هو مقرر ثابت من أن التزوج مـن البعيـدات نسباً مؤد إلى فراهة الأجسام وقوة البني، فما بالنا بالبعيدات جنساً.

وأما من الناحية العقلية فلأن الأمم التي غلبتها العرب على سـلطانها كانـت ذات حضارة تبدو في شتى الألوان وتختص كل واحدة بلـون يكـون فيهـا دون غيرها أكثر زهواً وأشد لمعاناً.

---

(١) الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ص ١٦

وهذه الميزات جميعاً كان الهجناء فيها ولها أقوى وأقبل من الصرحاء بعامل الإرث المؤرث والعرق الدساس[١] ومن الآثار الناتجة عن تمازج هذه العناصر في العصر العباسي هذا العداء بين العرب والموالي وما يدعي بالشعوبية.

ففي العصر الأموي كانت العرب تحتقر المولدين الذين ذكرت خصائصهم آنفاً وقد سموا ابن العربي من الأمة "الهجين" وكان خلفاء بني أمية لا يستخلفون أبناء الإماء. وكان يقابل هذه العصبية عصبية أخرى من الموالي وخاصة الفرس فقد تملكهم العجب كيف غلبهم العرب؟ وعبر بعضهم عن هذا المعنى بأن حكم العرب لهم ضرب من سخرية القدر، وكانوا يفخرون على العرب بمجدهم القديم وعزهم التالد وأنهم أهل الحضارة العظيمة.

ولما سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية ونال الفرس بعض أمنياتهم كاملة أن تقوم دولة فارسية بملوكهم وعمالهم، ولكن ما نالوه ليس قليل الخطر، فالخلفاء العباسيون مقتنعون أن دولتهم قامت على أكتاف الفرس، فأبو جعفر المنصور يقول: يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا وأوصى ابنه قبل وفاته فقال: أوصيك بأهل خراسان خيراً فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك ومن لا يتخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم وتتجاوز عن سيئتهم وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم في أهله وولده.

استتبع هذا غلبة الفرس ونفوذهم حتى عد المؤرخون من أهم خصائص هذا العصر قوة النفوذ الفارسي وضعف النفوذ العربي[٢] ومن جراء نفوذ الفرس وتمكنهم من مناصب الدولة نرى بعضاً منهم يظهر العصبية الفارسية مفتخراً على العرب، هذا بشار بن برد[٣] زعيم الحركة العدائية للعرب- يفتخر مرة **بخراسان ويقول:** [٤]

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، السباعي بيومي ، ١٨/٣

(٢) ضحى الإسلام ، ٣٤/١

(٣) ابو معاذ بشار بن برد، أشهر المولدين على الإطلاق كان ضريرا نشأ في البصرة وقدم بغداد، ادرك الدولتين الأموية والعباسية، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة سنة ١٦٧هـ

(٤) ضحي الإسلام، ٣٨/١

وهجاني معشر كله

حمق دام لهم ذاك الحمـــــــق

ليس من جرم ولكن غاظهم

شرفي العارض قد سد الأفـــــق

من خراسان وبيتي في الذري

ولدي المسعاة فرعي قد ســمــق[١]

ويفخر مرة بالعجم فيقول: [٢]

ونبئت قوما بهم جنة

يقولون من ذا وكنت العــلم

ألا أيها السائلي جاهداَ

ليعرفني أنا أنف الكـــــــرم

نتمت في الكرم بني عامر

فروعي وأصلي فريس العجم

وقال له عربي: ما للموالي وللشعر لا فقال يهجو العرب:[٣]

أحين نسيت بعد العرى خزا

ونادمت الكرم على العقار

تماخر يا ابن راعيه وراع

بني الأحرار حسبك من خســـــار

تريغ بخطبه دسر الموالي

وينسيك المكارم صيد فـــــــــار[٤]

وكنت إذا ظمئت إلى قراح

---

(١) سمق: علا وطال

(٢) ضحى الإسلام ، ٣٨/١

(٣) ديوان بشار: ٢٣٠/٣

(٤) تريغ: بمعنى تريد

شركت الكلب في ولغ الإطـــــار[١]

وتغدو للقنافذ تدريها

ولم تعقل بدراج الديـــــــــــار[٢]

وتتشع الشمال للابسيها

وترعى الضأن بالبلد القفـــــــــار

ولم يستسلم العرب لقوة الموالي ونفوذهم بل قاوموا وكـــان بـــين الجـــانبين صراع عنيف حيناً وهادئ حيناً واتخذ هذا الصراع أشكالاً مختلفة فمـــثلاً يعتمـــد الصراع على الدس عند الخليفة فيكيد العرب للموالي ويكيد الموالي للعـــرب مـــن أجل هذا تتكيل الخلفاء بالوزراء من حين إلى حين [٣] وكثير ممن تولى المناصـــب الكبيرة من الفرس كان ينكل بمن استطاع من العرب، وشكل آخـــر مـــن أشـــكال الصراع وهو الصراع الأدبي من ذلك الفخر بالنسب عن طريق الأدب كما مر آنفاً في شعر بشار.

كانت نتيجة هذا الصراع هزيمة العرب وغلبة الموالي، ولكن يجب أن نقـــر أن هزيمتهم التامة كانت من الناحية السياسية والإدارية،فأما دينياً ولغوياً فقد انتصر العرب، فلم تستطع المجوسية أن تساير الإسلام ولم تستطيع لغات الموالي أن تضع من شأن لغة العرب بل خدمتها وعملت على تقويتها مـــن نـــواح مختلفـــة وظـــل الموالي الذين يخدمون أغراضهم السياسية وينجحون فيها يخدمون في الوقت نفسه الدين واللغة، يضعون قواعدها ويضبطون شواردها [٤] وفي هذا العصر تنوعـــت الحياة بين ترف ونعيم وبين بؤس وشقاء وهكذا إن الترف والنعيم حظ عدد قليـــل هم الخاصة من الناس وبعض رجال التجارة والصناعة، حين كان الفقر والبـــؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس.

---

(١) القراح: الماء الحلو

(٢) تدريها: بمعنى تختلها لتصديها

(٣) ضحي الإسلام: ٤٤/١

(٤) ضحي الإسلام : ٤٨/١

وكان من مظاهر الترف في هذا العصر كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور فكثر نسل الجواري واختلطت الدماء وأشاع هؤلاء الجواري فن الغناء كما نشرن اللهو والمجون بين شتى الطبقات[1] وكانت خزائن الدولة هي المعين الغدق الذي هيأ لكل هذا الترف، فقد كانت تحمل إليه حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض حتى قالوا إن المنصور خلف حين توفى أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم، وأن دخل بيت المال سنوياً لعهد الرشيد كان نحو سبعين مليوناً من الدنانير، وكانت هذه الأنهار الدافقة من الأموال تصب في حجور الخلفاء ومن يحف بهم من بيتهم ومن الوزراء والقواد والولاة والعلماء والشعراء والمغنين.

وطبيعي أن تدفع هذه الأموال إلى النعيم فحسب بل أيضاً إلى الترف في الحياة وكان أسبابها المادية من دور مزخرفة وفرش وثيرة وثياب أنيقة معطرة ومطاعم ومشارب من كل لون.وبالغ النساء حرائر وجواري في زينتهن وأناقتهن فكن يرفلن في الثياب الحريرية ويختلن في الحلي والجواهر متخذات منها تيجاناً وأقراطاً وخلاخيل وعقوداً وقلائد.

ولا ريب في أن هذا كله كان على حساب العامة المحرومة التي كانت تحيا حياة بؤس تقوم على شظف العيش لينعم الخلفاء والوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة وإماء البيت العباسي الذين بلغوا هم وأبناؤهم نحو ثلاثين ألفا لعهد المأمون وطبيعي أن يعم البؤس والشقاء من جانب بينما يعم النعيم والترف من جانب آخر بل لقد كان للشقاء والبؤس أكثر الجوانب في الحياة العباسية، فالجمهور يعيش في الضنك والضيق لا الرقيق منه فحسب الذي كان يعمل في القصور والضياع، بل أيضاً جمهور الناس من الأحرار، وكأنما الناس جميعاً أرقاء في هذا النظام الذي كفلت فيه أسباب النعيم ووسائل الترفيه لأقلية محدودة استأثرت لنفسها بطيبات الأرض والرزق وزينة الحياة[2]

---

(١) الحياة الأدبية في العصر العباسي، ١٨

(٢) العصر العباسي الأول ، ص ٥١

هذا أبو العتاهية[١] يصور الفقر والبؤس وما حل ببغداد من غلاء الأسعار يصور ذلك تصويراً رائعاً فيقول: [٢]

من مبلغ عني الإمام نصاحا متوالية
إني أرى الأسعار أسعار الرعية غالية
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشية[٣]
وأرى غموم الدهر رائحة تمر وغادية
من للبطون الجائعات وللجسوم العارية
يا ابن الخلائف لا فقدت ولا عدمت العافية
ألقيت أخبار إليك عن الرعية شافية

وشاع اللهو في البلاد ومال الناس إلى الغناء والرقص والتفنن في الملبس كما مالوا إلى لعب الشطرنج وسباق الخيل والصيد أحب ضروب اللهو عند الخلفاء والأمراء ولذا أولع الناس بتدريب البزة وكلاب الصيد وما إلى ذلك.

وكان من الترف والفراغ أن شاع التسري وتعاطي الناس المسكرات سرا وعلناً، وعاقر الخمر حتى بعض الخلفاء وكانت تعقد لمعاقر الخمر والغناء حلقات أنس مجالس الشراب.

وتوافر الطلب على العلماء والشعراء والمغنين وأرباب الموسيقى فاتخذهم الأمراء والأعيان ندماء لهم. وانتشرت في بغداد تجارة الرقيق وكان في بغداد شارع يسمى شارع دار الرقيق وكان الإماء ولاسيما الجواري أنواعاً مختلفة فهنالك السود من السودان وجنوبي الجزيرة العربية وشمال أفريقيا، وهنالك البيض من أتراك وصقالبة وغيرهم.

أما اقتصادياً فكانت الدولة تنفق في غير مواربه وعلى غير هدى فقد انفق المعتصم على بناء سامراء أموالا طائلة وكذلك فعل المتوكل في بناء الجعفري

---

(١) إسماعيل بن القاسم الشهير بابي العتاهية، شاعر مكثر سريع الخاطر ويعتبر من مقدمي المولدين من بشار، كان يجيد القول في الزهد والمدح وجمعت زهدياته فيمجلد كبير ، توفي ببغداد سنة ٢١١هـ

(٢)ابو العتاهية أخباره وأشعاره، ص ٤٣٩هـ

(٣)النزر: الشيء القليل

وسواه من المباني التي أنفق عليها نحو خمسة ملايين من الـدنانير وقـد كثـرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة حتى ترك المنصور أربعـة عشر مليوناً من الدنانير وترك الرشيد واحد وعشرين مليوناً وقد ترك المعتضد[١] في خزانة الدولة أموالاً طائلة فوق ما ترك من ثروة خاصة.

وقد انتشر لقطاع الأرض مكافأة هبة للمقربين لدى الخلفاء والوزراء وكانت الرشوة بين طبقات الموظفين حتى الوزراء الذين كانوا يسوغونها أمام ضـمائرهم وأمام الخلفاء[٢]

ولضيق أبواب الرزق على كثير من الناس وقصور وسائل الكسب عـن أن تفي لهم بمطالب الحياة اتخذ بعضهم تكفف الناس حرفة وقعدوا للسؤال كل معقـد، فلا غرابة إذن أن يكثر أهل الكدية من الطبقة الدنيا، بل لا غرابة إذا وجد بعـض الناس في التكدية أهنا سبيل عليهم فيها أخلاف الرزق ويأمنون معها بواثق الغدر. وهذا ما تراه ونرى معه كيف كانت وسائل الكسب على أيام الحريري[٣] من قوله في المقامة الساسانية.

سمعت المعايش إمارة وتجارة وزراعة وصناعة فمارست هذه الأربع لأنظر أيها أوفق وأنفع، فما أحمدت منها معيشة ولا استرغدت عيشة ولم أر ما هو بـارد المغنم لذيذ المطعم وافي المكسب صافي المشرب إلا الحرفة التي وضع ساسـان أساها ونوع أجناسها وأضرم في الخافقين نارها وأوضح لبنـي غبـراء منارهـا، فشهدت وقائعها معلماً، واخترت سيماها لي ميسما، إذ كانت المتجر الذي لا يبـور والمنهاج الذي لا يغور والمصباح الذي يعشو إليه الجمهور وسيصبح بـه العمـى

---

(١) ابو العباس المتعضد بالله احمد بن طلحة بن جعفر المتوكل على الله خليفة عباسي كان شجاعاً ذا عـزم مهيباً وهو أحد رجال بني العباس الخمسة، أقام العدل وبذل المال وأصلح الحال... كان عارفاً بـالأدب موصوفاً بالحلم إلا في مواضع الشدة، مات ببغداد سنة ٢٨٩هـ

(٢) الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ص ١٩

(٣) القاسم علي بن محمد بن عثمان أبو محمد الحريري البصـري الأديـب الكبيـر ، صـاحب المقامـات الحريرية، كان غزير العلم شاعراً حسن الشعر توفي بالبصرة سنة ٥١٦هـ.

والعور وكأن أهلها أعز قبيل وأسعد جيل لا يرهقهم مس حيف ولا يقلقهم سل سيف[١].

ولتنوع الحياة إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو كانت البلاد معرضاً للنحل ومجالاً لدعاية الجماعات السرية وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة.

وقامت إلى جانب الترف والفساد وحركة استياء تنعي على العهد فسقه وتشدد النكير على المفسدين، وارتفعت أصوات الذين خانهم الحظ فلم يمدهم بالمال كما أمد غيرهم، بل قامت حركة زهد تحتقر القانيات في سبيل الباقيات، وتستنكف فنون الظلم والبغي والفجور[٢] وهذه حركة زاهدة لحمتها التقوى وسدادها الورع والتدين، وكان يحمل لواءها أعلام كرام عرفوا بالصلاح وحب الحق والتمسك بأهداب الدين وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل[٣] واسحق بن راهوية[٤] وابن قتيبة[٥] وامثالهم، ولكنها كانت نزعة ضعيفة لم تقو على صد تيار النزعة الأولى كأن أشبه شيء بالسيل الجارف يكتسح كل ما أمامه[٦] وقامت في هذا العصر فرق التشيع برجالاته، والاعتزال بطوائفه والسنة باختلاف أقوالها، والفلسفة بمذاهبها،والعلوم الحديثة بأنواعها وطوائف الأديان بمبادئهم وآرائهم، وقامت

---

(١) الحياة الأدبية في العصر العباسي ، (المقامة الساسنية) ص ٢٠

(٢) الموجز ٨/٣

(٣) الإمام احمد بن حنبل ابو عبدالله الشيباني الوائلي امام المذهب الحنبلي واحد الأئمة الأربعة، أصله من مرو، نشأ منكباً على طلب العلم وسافر في سبيله اسفارا كثيرة في ايامه دعا المامون الى القول بخلق القرآن وسجنه المعتصم لانه لم يؤمن بهذه البدعة ، توفي سنة ٢٤١هـ

(٤) اسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلي، عالم خراسان في عصره، طاف البلاد لجمع الحديث واخذ عنه الإمام ابن حنبل والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي، وقيل في سبب تلقيبه ابن راهوية ا ناباه ولد في طريق مكة فقال اهل مرو: راهويه أي ولد في الطريق، كان صادقاً زاهداً ورعاً ثقة توفي في نيسابور سنة ٢٣٨هـ

(٥) عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري من ائمة الادب،ولد ببغداد وسكن الكوفة وتولى قضاء دينور مدة فنسب اليها، له تصنيف كثيرة منه ادب الكاتب والمعارف وكتاب المعاني وكتاب الشعر والشعراء وغيرها، توفي ببغداد سنة ٢٧٦هـ

(٦) ابن قتيبة عبدالحميد الجندي ص ٧٨

جماعات تكافح الشك في الدين والمجون في المجتمع، وتدعو إلى الحياة الإسلامية بأخلاقها ومبادئها وسلوكها، ومنهم الحنابلة[١] الذين كانوا يقومون بثورات كثيرة في بغداد لمحاربة المجون والإلحاد[٢].

وتلك صورة مصغرة للبيئة الاجتماعية في العهد العباسي، تعدد في العنصر جر انحطاطاً في الأخلاق واقتصاديات واسعة أدت إلى الترف في المعيشة ولهو زاده الثرى والرقيق في الفسق وزاد الحياة الفتية سعة وانطلاقاً.

كما بعث النفوس العالية إلى الاستياء والثورة على الفساد الشائع، وإلى الزهد في الفانيات وفرق دينية ومذاهب متباينة أشهرها المعتزلة[٣].

---

(١) الحنابلة من هم على مذهب احمد بن حنبل (تقدمت ترجمة في هامش، ص ٣٣)

(٢) الحياة الادبية في العصر العباسي، ١٨

(٣) المعتزلة فرقة كلامية ظهرت في اواخر القرن الهجري الاول وبلغت شاوما في العصر العباسي الاول، سميت بذلك لاعتزال امامها واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري لخلاف جرى بينهما في مرتكل الكبيرة...الخ

الفصل الثالث

الحياة العقلية

الحياة الأدبية والثقافية:

في هذا المعترك من السياسة والاجتماع نهضت حركة ثقافية كبرى أقامت البلاد واقعدتها، وقد بدأت تلك الحركة في العهد الأموي ثم أخذت في التطور حتى بلغت أوجها في العهد العباسي.

وكانت عواملها متعددة وعناصرها متشبعة ومظاهرها كثيرة.

أما عواملها فشعب احتك بشعوب قديمة الحضارة في قابلية شديدة النهم إلى المعرفة وعناصر متعددة استعربت وحملت إلى العرب ثقافاتها ومدارس كبرى في جند يسابور والرها ونصيبين وحران كانت منابر إشعاع وعلوم، وولاة حكماء تنافسوا في تعزيز العلم والأدب وتكريم العلماء والأدباء، وحركة نقل وترجمة كانت قناة جعلت علماء الهند واليونان وفارس ينطقون باللغة العربية وينشرون في كتبهم وأبحاثهم فيما بين الخاصة والعامة.

وأما عناصر تلك الحركة الثقافية فالفلسفة القديمة اليونانية والحكمة الهندية والصينية والآداب الهندية والفارسية وزبدة علوم الاشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين وغيرهم من الشعوب القديمة.

في البلاد العربية كلها تيار عاصف من أدب وفلسفة وطب وفلك وهندسة وما إلى ذلك مما أدى العقول هزه عنيفة ورفع راية المعرفة في أجواء واسعة من الانطلاق والإقدام[1].

كان النفوذ في هذا العصر للفرس، وانتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيرا على أيدي الوزراء وكتابهم الفارسيين، ونقل المثقفون من الفرس الذين أجادوا العربية، والعرب الذين أتقنوا الفارسية إلى العربية تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة وإنتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادرا عن عقليتين وثقافتين وكان رجال العلم في هذا العصر أكثرهم فارسيون.

---

(١) الموجز في الأدب العربي وتاريخه ١٠/٣

ودخلت الثقافة اليونانية في هذا العصر على الفكر الإسلامي بامتزاج الجنسين في الحياة الاجتماعية وتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية.

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الإسلامي مباشرة وبوساطة الفرس أيضاً.

أما الأتراك فلم يكن لهم مدينة وليس لهم ثقافة وبعد أن تعلموا العربية لم ينبغ منهم في الأدب والشعر والعلم إلا القليل كأحمد بن طولون[١] والفتح بن خاقان[٢].

وكان للإسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة في الدين واللغة والأدب والشعر[٣]

واستطاع الإسلام بتعاليمه السمحة، أن يحدث امتزاجاً قوياً بين هذه العناصر المختلفة التي كانت تتألف منها الدولة العربية وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة، إنما بامتلاك القلوب، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التي انبسط عليها سلطانه تسلم وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب الأخوة الكريمة.

وقد أسرع من أسلموا من الشعوب المفتوحة جميعاً إلى تعلم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العربية تسود في كل أنحاء العالم الإسلامي لا بين المسلمين وحدهم بل أيضاً بين غيرهم ممن بقي على دينه القديم[٤].

فلا عجب إذن أن نلمس الفرق بين الحياة العقلية الأموية وبين الحياة العقلية العباسية فمن أهم مظاهر الفرق بين هاتين الحياتين أن الجيل الجديد ظهر في الميل الشديد إلى الحياة العلمية فكثر فيه العلم واختلفت أنواعه.

---

(١) أبو العباس احمد بن طولون تركي الأصل أمير الديار المصرية والشامية والثغور كان شجاعاً جواداً حسن السيرة يباشر الأمور بنفسه موصوفاً بالشدة على خصومه بني الجامع المنسوب اليه في القاهرة، توفي سنة ٢٧٠هـ

(٢) الفتح بنخافان بن احمد بن غرطوج، أديب شاعر فصيح اتخذه المتوكل اخا له واستوزره وجعل له امارة الشام، اجتمعت له خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن له تصنيف منها، اختلاف الملوك، والصيد والجوارح،قتل سنة ٢٤٧هـ

(٣) الآداب العربية ، ص ٤٥/٤٦

(٤) العصر العباسي الأول ، ص ٩٠

فمنه ما استحدث بعد أن لم يكن ومنه ما كان موروثاً ولكنه نمى وارتقى ومنه ما نقل عن الأمم الأجنبية نقلاً ثم أخذ الناس يدرسونه ويمحصونه حتى أساغوه أولاً ثم طبعوه بطابعهم الخاص ثانياً.

وكان في الجيل الأموي علم ولكنه كان عربياً إسلامياً خالصاً، حظه من البداوة عظيم، أما الآن فقد أصبح هذا العلم كثيراً مختلف الأنواع معقد الأصول متشعب الفروع وبعد في هذا الجيل عهد الأدب بالبداوة العربية فقل حظه من السهولة واليسر وكثر حظه من التكلف الفني وأصبح نتيجة الصناعة والتجمل بعد أن كان نتيجة الطبع والسجية الحرة المطلقة ونشأت في الأدب فنون لم تكن معروفة أو لم تكن معروفة إلا قليلاً وتطورت الفنون الأخرى تطوراً يلائم هذه البيئة الجديدة وهذا العقل الجديد[1] نقول إذا تجمعت هذه الثقافات في العراق في العصر العباسي وأحدثت أثرها في العقول والأفكار، وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج هذه الثقافات وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب، فقدموا معاني للشعراء والأدباء لم يكونوا يعرفونها. ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقةً من المفكرين والعلماء والأدباء والشعراء شغلاً كبيرا وأقبلوا عليها إقبالاً شديداً، كما أقبل عليها الناشئون يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ليكونوا ثقافاتهم تكويناً سليماً، وليعدوا أنفسهم للمناصب العالية والدرجات الرفيعة.

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية والمعارف العامة التي تثقفت بها عقول المستعربين، تدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص حتى إذا نضجت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة في البلاد العربية أخذ المسلمون يؤلفون فيها ويكتبون في موضوعاتها ويستقلون ببحوثها فبعد أن كانوا مترجمين أصبحوا باحثين ومؤلفين، وظهرت ثمار هذه النهضة في العواصم الكبرى في العالم الإسلامي كخراسان والري وخوزستان واذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ومنبت أهل الفضل ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ومن مختلف اللغات[2].

---

(١) المجمل ، ص ٧٨

(٢) الآداب العربية ، ص ٤٦

وكان من أهم الأسباب التي دفعت إلى ازدهار الحركة العلمية في هذا العصر استخدام الورق في الكتابة وتصنيف الكتب، استخداماً عاماً منذ عصر الرشيد، حيث كان عاملاً مهما في ازدهار الحركة العلمية حينئذ فقد كانوا يكتبون قبل عصره غالباً في الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردي، وكانوا يكتبون في ورق الكاغد المستورد من الصين وكان مرتفع الثمن جداً فنقلوا صناعته إلى بغداد في عصر الرشيد إذ أنشأ وزيره الفضل بن يحي البرمكي[١]مصنعاً للورق فرخص ثمنه وانتشرت الكتابة فيه لخفته وسرعان ما كثرت الكتب والمصنفات كما كثر الوراقون الذين يعيشون من نسخها وأنشأ كثيرون منهم دكاكين للتجارة فيها واختلف إليها الشباب والعلماء لا لشراء الكتب والمؤلفات فحسب بل ليقرؤا فيها وينهلوا من مصنفاتها، وكانوا يكترونها لذلك ويبيتون فيها يقرؤون على المصابيح ويقيدون أو ينسخون ما يشاؤون من الأفكار والصحف والرسائل، عمل ذلك على نهضة الحركة العلمية نهضة واسعة، إذ أصبحت الكتب والمصنفات تحت أعين الطلاب والشباب وبأيديهم يتزودون منها كما يريدون[٢].

فقد كان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدل والمناظرة، وكان مثقفاً ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية واللغوية وبالفلسفة وعلوم الأوائل، فمضى يحول مجالسه في دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة، وقد كفلت الحرية العقلية في هذا المجلس أو هذا المجمع إلى أبعد غاية ممكنة، بحيث كان كل رأي يعرض للمناقشة العقلية الخالصة حتى آراء الزنادقة[٣] وليس من شك في أن ذلك كان ثمرة ازدهار الحركة العلمية في العصر، فقد تغلغلت المعرفة والثقافة في جميع الأوساط حتى في اوساط العامة، وأصبحت غذاء لجميع العقول والقلوب، وبرزت صفوة من العلماء والأدباء كان جمهورها من أبناء هؤلاء

---

(١) الفضل بن يحي خالد البرمكي وزير الرشيد العباسي وأخوة في الرضاع ، استوزره الرشيد مدة قصيرة ثم ولاه خراسان ولما فتك الرشيد بالبرامكة كان الفضل من ضمنهم فادوعه سجن الرقة حتى توفي سنة ١٩هـ .

(٢) العصر العباسي الثاني ، ص ١٢٣

(٣) العصر العباسي الأول ، ص ١٠٤ بتصرف

العامة، قادت الحركتين العلمية والأدبية قيادة خصبة باهرة، إذ استطاعت أن تسيغ كل ما نقل إلى العربية من ثقافات متباينة وأن تضيف إليها من عقولها وقلوبها ما دعم حضارتنا العربية دعماً بما أحدثوا من علوم وما كتبوا من آثار عقلية رائعة وآيات شعرية خالدة[١]

الحياة الأدبية:

كان العهد العباسي أزهى عصور الحضارة العربية، وأنك حين تستعرض العهد الأموي تلمس في أواخره مقدمات فعلية لتلك الحضارة إذا جرى احتكاك العقل العربي بمدنيات البلاد التي امتدت إليها سلطانه، وإذ بدأت حركات الترجمة تحمل إلى العرب تراث الأمم والشعوب، وبدأ العربي يتطلع إلى العلوم تطلع المشوق إلى المعرفة الطمآن إلى اكتناه حقائقها.

ولا عجب أن تزدهر الحضارة في العهد العباسي إذ لقيت من جهة قلوباً متعطشة إلى الرقي، ومن جهة أخرى اندفاقاً ثقافياً جارفاً تحمله إلى مختلف أنحاء البلاد أقنية سخية من مدارس كبرى تنتصب في الإسكندرية وجند يسابور وحران ونصيبين والرها وغيرها منارات إشعاع تنقل مع رسلها مدنيات الشرق القديم والفكر اليوناني الذي أثقلته حقائق المعرفة والحياة.

يضاف إلى ما سبق تمازج عنصري كان منه جيل جديد ذو أخلاق وعادات جديدة وكان منه تلقيح للعقول والأقلام والأذواق ثم ثروات طائلة تجلت في القصور والملابس والأثاث، كما تجلت في حياة اللهو والبذخ وغذتها التجارة الواسعة والصناعة الزاهرة والزراعة الغنية.. وفوق ذلك تشجيع بذله الخلفاء والأمراء والولاة لرجال الفكر والعلم والفن في غير حساب ولا اقتصاد.

ولما امتدت حركة النقل والترجمة على أوسع نطاق وتولى أمرها جماعة من العلماء أغدق عليهم الأمراء أموالاً طائلة.

وهذه الحضارة في موكب الحياة الجديدة والأنظمة والأخلاق الحديثة تركت أثراً عميقاً[٢] في الحياة الأدبية في العصر العباسي.

نشأ الأدب العباسي في تلك البيئة الجديدة وإذا أمامه الأجواء شديدة الاتساع تعصف فيها رياح مختلفة المصادر، وإذا أمامه عقليات مختلفة وشعوب متباينة، وإذا حواليه تيارات فكرية متناحرة أو متزاحمة، وإذا الشعوب تتنفس بملء رئتيها

---

(١) العصر العباسي الأول، ص ١٠٨ .

(٢) الجديد في الأدب العربي، ١٣١/٥ بتصرف

وتصارع التراث العربي، وإذا الفلسفة والعلوم ناشرة لواءها الخفاق، والحرية تماشي الجدل وتعتمد العقل في التفكير والتفسير والتأويل وإذا الزخرفة في القصور والحياة تملأ الدنيا أصباغاً وألواناً وتملأ الكلام مداورات ومغاليات وإذا هنالك جبهتان شديدتا العنف جبهة الجديد وجبهة القديم.

وكان الشعر قد سلك في أيام بني العباس طريقاً تخالف كل المخالفة طريقة أيام بني أمية، فنشأت معان جديدة، وذهب الشعراء مذاهب مختلفة ضروب من التصرف في فنون القول والاختيار بين ألوان الكلام[1] ولكن مع ذلك ظل العباسيون ينظمون في الموضوعات القديمة من المديح وغير المديح كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون وبذلك أبقوا للشعر العربي على شخصيته الموروثة، وقد مضوا يدعمونها دعماً بما يلائم بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة وأذواقهم المتحضرة المرهفة، فإذاً هي تتجدد من جميع أطرافها تجدد لا يقوم على التفاضل بين صورة هذه الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة بل يقوم على التواصل الوثيق.

ولذا رأينا موضوعات الشعر القديمة تتجدد تجددا واسعاً في معانيها فقد أخذت تعرض بصورة أدق وأعمق وأخذت تدخل إليها إضافات كثيرة، ولم يقف الشاعر العباسي عند ذلك فقد أخذ ينمي بعض جوانب هذا الشعر حتى خرج منه فروع جديدة كثيرة[2] وبذلك جال الشعراء في العصر العباسي في شتى الأغراض القديمة والحديثة وأن من يطالع كتاب الأغاني ووسائل الموسوعات الأدبية والتاريخية تعتريه الدهشة لما يجد من امتزاج الشعر بجميع مظاهر الحياة العباسية، فالشاعر بلبل القصور ونديم الملوك والشاعر رسام الحياة بما فيها من مآس جسام، وهو لسان التصوف وأنه ينتظم انتظاماً ويغمرها بكل ما فيها والناس إليه أذان تصغى وأيد تنبسط وتجود.

وقد اهتم الخلفاء والأمراء بالشعر والشعراء فتناشدوا مأثور الكلام وعقدوا المجالس للمباريات وفرضوا الأرباب الشعر الأعطية في بيت المال، ووهبوا أحياناً على كل بيت ألف دينار وأن منهم من تعاطي القريض أو أنشده.

---

(١) حديث الأربعاء، ٢/٢٠

(٢) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف ، ص ١٨١

وهكذا ففي المئة الأولى من عمر الدولة العباسية أكب أولو الأمر على الشعراء يعظمون شأنهم ويطربون لأقوالهم ويغدقون عليهم الأموال ويخلعون عليهم الخلع ويقطعونهم الضياع ويهبونهم الجواري، حتى ساموا الملوك في المنزلة وساووهم في نعيم العيش[١].

ومن أسباب هذه العناية الفائقة أن الخلفاء والأمراء في عصر نفوذ الدولة العباسية عرباً جرى في عروقهم دم العروبة وتأصلت ملكتها وسحرتهم بلاغتها، ورأوا في الشعر مجدهم التليد وفخرهم القديم، فحرصوا على روايته وإحيائه واهتزت أريحيتهم لسماعه وإنشاده، وخلب افئدتهم القول الرائع والبيان الفائق، واجتلبت عطاياهم المدح الجيد والثناء البليغ ولهذا قربوا الشعراء والأدباء وفرضوا لهم في بيت المال، وأغدقوا عليهم العطايا والصلات وأغرقوهم بالمنح والهبات حتى تجاوزت آمالهم التكسب بالشعر للعيش والكفاف إلى الثراء الواسع والغنى السابغ واختزان المال والأخذ بأكبر نصيب من الرفاهية والبذخ والنعيم، حتى رأيناهم يقتنون الثروات الواسعة ويساومون الملوك في المنزلة ويساوون ذوي اليسار في نعيم العيش وترف الحياة وامتلاك القصور والضياع[٢] روى المؤرخون أن المهدي[٣] رسم لمروان بن أبي حفصة[٤] مائة ألف درهم علي مدحه، أما ابنه الهادي[٥] أنشده مدحا فيه فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم.

---

(١) الجديد في الأدب العربي، ١٣٧/٥

(٢) الآداب العربية في العصر العباسي الأول ، ص ٨٤ .

(٣) المهدي محمد بن عبدالله (المنصور) بن محمد بن علي العباسي من خلفاء الدولة العباسية بالعراق، تولى بعد وفاة أبيه، ومكث في الخلافة عشر سنين كان محمود السيرة محبباً إلى الرعية حسن الخلق والخلق ، وكان يجلس للمظالم من آثارها جامع الرصافة توفى سنة ١٦٩هـ.

(٤) مروان بن سليمان بن يحي بن أبي حفصة، شاعر عالي الطبقة كان جده مولي لمروان بن الحكم ، مدح المهدي والرشيد ومعن بن زائدة فجمع الثروات الواسعة قيل كان يخيلاً مع يساره، توفي ببغداد سنة ١٨٢هـ .

(٥) الهادي موسى بن محمد (المهدي) بن أبي جعفر المنصور من خلفاء الدولة العباسية ببغداد ، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه ، أراد خلع الرشيد من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر فلم تر أمه ذلك فزجرها فأمرت جواريها أن يتلقنه فنحقنه سنة ١٧٠هـ بعد خلافة دامت سنة وثلاثة أشهر.

أما الرشيد فكان بحرا فياضاً ما يني ينهل على العلماء والأدباء وكان يجـزل العطاء للشعراء والمغنين، ويكفي أن نعرف أنه وصل سلماً الخاسر وحده لمدائحه فيه بعشرين ألف دينار.

وقيل لم يجتمع على باب أحد من الشعراء ما اجتمع على باب الرشيد.

وهكذا تفيض كتب الأدب بما لا نكاد نصدقه اليـوم عـن ثـراء الشـعراء بأصحابها بل كان لهم به بصر وخبرة ومشاركة ومعرفة وحذق وإلمام.

فهذا المنصور يفجعه الدهر في ابنه جعفر فتستبد اللوعة بقلبه ويسـد عليـه منافذ السلوى فلا يجد سبيلا للعزاء إلا قصيدة أبي ذؤيب الهذلي[١] في رثاء أبنائـه فيطلب إلى الربيع[٢] من ينشده من أهل بيته:

أمن المنون وريبها تتوجع

والدهر ليس بمعتب من يجزع؟[٣]

فلا يجد الربيع من يحفظها فتكون مصيبة في أهل بيته أشد من لوعتـه فـي ابنه ثم يبعث إلى القواد والولاة حتى يصادف الربيع شيخاً مؤدباً فيذهب بـه إلـى المنصور فينشده المطلع مائة مرة، حتى إذا بلغ قولي أبي ذؤيب:

(والدهر لا يبقى على حدثانه)

عرف موطن الإبداع فاستعاده مائة مرة وهو يقول:

(سلا أبو ذؤيب عند هذا القول) [٤]

ولم تكن السياسة وحدها هي الباعث على الإحتفال بالشعر بـل التلـذذ بـه والتأدب بآدابه وتعرف أخبار الماضيين فيه، ولهذا كانوا يدنون مجالس الشـعراء ويأنسون بهم في خلواتهم ويقترحون عليهم نظمه فيما يجول بخواطرهم ويسـألون

---

(١) سلم بن عمروا بن حماد شاعر خليع ماجن من أهل البصرة من الموالي ، له مدائح في المهدي والرشيد، قيل سمي الخاسر لأنه باع مصحفاً واشترى بثمنه طنبوراً توفي سنة ١٨٦هـ

(٢) خويلد بن خالد بن محرث من بني هذيل من مخضرمي الجاهلية والإسلام وقد على النبي صلي الله عليه وسلم ليلة وفاته وشهد دفنه ، شاعر فحل من أشهر شعره عينة رثي بها خمسة أبناء له ماتوا فـي عـام واحد من أثر الطاعون مات بافريقية عام ٢٧هـ

(٣) الربيع بن يونس بن محمد بن أبي وفره من موالي بني العباس اتخذه المنصور حاجباً ثم استوزره كـان حازماً مهيباً توفي سنة ١٦٩هـ

(٤) الآداب العربية في العصر العباسي الأول ، ص ٨٥

العلماء به عما ستغلق من المعاني ويستقدمون الرواة للسؤال عن بيت مفرد ليصلوه بقصيدة أو ينسبوه إلى قائله.

سال الرشيد أهل مجلسه مرة عن الصدر لقول الشاعر:

(ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه)

فلم يعرفه أحد، وكان الأصمعي[١] مريضاُ فأرسل إليه إسحاق الموصلي[٢] وبعث معه ألف دينار، فأرسل إليه أن هذا عجز بيت لأبي النشناش وصدره:

وسائله أين الرحيل وسائل

من قصيدته:

إذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح

سواما ولم تعطف عليه أقاربه[٣]

واستمر الخلفاء على إمداد الأدباء والشعراء بجزيل عطاياهم وقد نافسهم الوزراء في هذا البذل الواسع، وللبرامكة فيه ما ليس لأحد، فقد كانت بأيديهم خزائن الدولة لعهد الرشيد، فملأؤوا منها أيدي العلماء والأدباء والشعراء بالأموال بل بالثروات الضخمة على نحو ما يحكى من أنهم أعطوا إبراهيم الموصلي[٤] يوماً ستمائة ألف درهم وضيعة بمائة وستين ألفا. وكان ينافسهم في هذا البذل الفضل بن الربيع[٥] وكبار الولاة والقواد وغيرهم.

---

(١) عبدالملك بن قريب بن علي بن اصمع الباهلي راويه العرب أكثر من التواف بالبوادي بتقتبس علومها ويتلقى اخبارها سماه الرشيد سيطان العرب، له تصانيف كثيرة توفى بالبصرة سنة ٢١٦هـ

(٢) إسحاق ابن إبراهيم بن ميمون التميمي الموصلي من أشهر ندماء الخلفاء كان عالماً الموسيقي والغناء راوياً للشعر شاراً نادم الرشيد والمأمون والوائق له تصانيف عدة، وهو ابن إبراهيم الموصلي الفارسي الأصل الموسيقار المشهور توفي ببغداد سنة ٢٣٥هـ

(٣)الآداب العربية ، ص ٨٨

(٤) إبراهيم بن مان الموصلي التميمي بالولاء كان أبوه من كبار الفرس انتقل إلى الكوفة فولد له ابراهيم ولما مات كفل بنو تيميم ابنه وربوه فنسب إليهم كان أبو اسحاق النديم أوحد زمانه في الغناء واختراع الالحان وكان شاعراً من ندماء الخلفاء نسب إلى الموصل لأنه تعلم الضرب على العود فيها، مات ببغداد سنة ١٨٨هـ .

(٥) الفضل بن الربيع بن يونس كان ابوه وزيراً للمنصور ولما نكب الرشيد البرامكة استوزر الفضل، قال ابو نواس :

ان درها لم يرع عهدا ليحي غير راع ذمام آل الربيع

واستمر في وزارته في عهد الأمين ، توفي بطرس سنة ٣٠٨هـ

نقول: لقد ساق بني العباس الأدب والأدباء والشعراء قدماً بوفير عطاياهم وجزيل جوائزهم، وجعل لهم المهدي والرشيد والمأمون أياما لملاقاتهم واستماع ما تنتجه قرائحهم ترفيها للغة وإعلاء لشأن الأدب، وبالغوا في إكرام الشعراء إلى حد أوجب الشك في صحة الأخبار المروية عنهم في ذلك، فبعد أن كانت جوائز الصدر الأول حقائب الحنطة والزبيب والتمر والأدواد وبعض التخوت من الثياب صارت بدل الدنانير وعشرات الألوف من الدراهم عدى الجواري المولدة والعبية الفارهة والخيول المطهمة بل الضياع العامرة ذات الغلات الوافرة.

ولقد ارتقى كثير من الشعراء بشعرهم إلى مرتبة الوزارة وولاية النواحي كمسلم بن الوليد[١] وأبي تمام[٢] ومحمد بن عبدالملك الزيات[٣] وحتى طمع بعضهم أن ينال به الملك كالمتنبي[٤] وابن عمار الأندلسي[٥] وغيره[٦]

وازدادت عطايا الخلفاء للشعراء حتى قيل: ما أعطي خليفة شاعراً ما أعطي المتوكل دخل عليه علي بن الجهم وبيديه درتان يقلبهما فأنشده قصيدة فرمى إليه بدرة فقبلها، فقال تستنقص بها وهي والله خير من مائة الف درهم؟ قال: لا ولكني أفكر في أبيات أخذ بها الأخرى، فقال: قل: فقال:

بسر من رأى إمام عدل *** تغرف من بحره البحار

---

(١) مسلم بن الوليد الأنصاري بالولاء، شاعر غزل أكثر من البديع فتبعه الشعراء فيه لقبه الرشيد بصريع الغواني لقوله :

وما العيش إلا أن تروح مع الصبي ــ مات بجرجان سنة ٢٠٨هـ

(٢) ابو تمام حبيب بن اوس الطائي ، شاهر عباسي كبير جزل الشعر ، كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من اراجيز العرب، له تصنيف منها ديوان الحماسة توفي بالموصل سنة ٢٣٢هـ

(٣) الوزير الشاعر الكاتب السياسي الجبار محمد بن عبدالملك الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكل، نكبه المتوكل لحقد قديم وعذبه حتى مات سنة ٢٣٣هـ

(٤) ابوالطيب المتنبي أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي الكندي الشاعر والحكيم تعده علماء الأدب اشعر الإسلاميين لأمثاله السائرة وحكمة البالغة ومعانيه المبتكرة ، تنبأ في بادية السماوة فتتبعه كثيرون ، مدح سيف الدولة وكافور الاشخيدي وعاد فجهاه ومدح ابن العميد وعضد الدولة بن بويه، الفت فيه كتب كثيرة ، قتل سنة ٣٤هـ

(٥) الشاعر البليغ ذو الوزارتين ابوبكر محمد بن عمار المهري الاندلسي وزير المعتمد ابن عباد صاحب اشبلية من ملوك الطوائف ، خرج عليه ولكن المعتمد قتله سنة ٤٧٧هـ

(٦) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ، ص ٢٥٤ .

المـــــــلك فيه وفي بنيه *** ما اختلف الليل والنهار
يرجى ويخشى لكل خطب *** كـــأنه جنـــة ونـــــار
يداه في الجـــــود ضرتان *** عليه كلتاهما تـــــغار
لم تـــأت منه اليمين شيئاَ *** إلا أتت مثله اليســـــار

فرمى إليه بالدرة الأخرى. (١)

وكان هذا دليلاً على مكانة الشعراء وعظم جاههم.

هذا في عصر فتوة الدولة العباسية أما بعد المئة الأولى فقد بخـــل الخلفـــاء واتباعهم على الشعراء بعض البخل، وانقبضت أكفهم بعـــض الانقبـــاض فتململـــ الشعراء شاكين عاتبين وهددوا معرضين وتجمعت أقوالهم في قول ابن الرومي:(٢)

إن كنت من جها حقي غير معتذر
وكنت من رد مدحي غير متئب(٣)
فأعطني ثمن الطرس الذي كتبت
فيه القصيدة أو كفـــــــــارة الكذب(٤)

وفي عهد الامارات عاد الأمراء إلى التنافس في تكـــريم الشـــعراء فـــارتفع صوت الشعر في كل صقع وكل منتدى وتداخل الشعراء زهو كثير(٥)ففي الدولـــة الحمدانية وعند سيف الدولة(٦) في الشام التف إليه جمهرة من الشعراء والأدبـــاء من الشام ومختلف الأقطار من لم ير مثله في باب خليفة بل إن شاعر سيف الدولة

---

(١) الآداب العربية ، ص ٩٣
(٢) الجديد في الأدب العربي ، ١٣٨/٥
(٣) متئب: المراد المستحي
(٤)الطرس: الصحيفة
(٥) الجديد في الأدب العربي، ١٣٨/٥
(٦) الدولة الحمداينة التي أسسها في الموصل (شمال العراق) ناصر الدولة ابو محمد الحسن بن حمدان ســـنة ٣١٧هـــ وفي سنة ٣٢٣هـــ سار اخوه ابوالحسن علب بن حمدان على الشام وانتزع مدينة حلب من أيدي الاخشيديين وأقام فيها دولة من أزهى الدويلات في تاريخ العرب الأدبي، والحربي أما على بن حمـــدان المعروف بلقب (سيف الدولة) فقد دافع عن الخلافة الإسلامية وقاتل الروم وهـــزمهم فـــي كثيـــر مـــن المعارك، كما انشأ في حلب بلاطا جمع من الأدباء نعد من هؤلاء المتنبـــي وأب فـــراس وابـــا الفـــرج الأصبهاني والصنوبري والثعالبي وغيرهم، وقد كان سيف الدولة نفسه أديباً شاعراً محباً للعلـــم والأدب توفي في حلب سنة ٣٦هـــ .

لم يبال بخليفة بغداد ووزيره المهلبي[1] هذا في زمن ضعف الخلافة، أما في زمن الفتوة فقد كانت دور الخلافة أي معرض للأدباء والعلماء والشعراء والكتاب يهاجرون إليها من مصر والشام اللتين لم تكونا في شباب الدولة العباسية إلا إذا هاجر إلى بغداد كما حصل للبحتري وأبي تمام، أما الأديب والشاعر والعالم الذين لا يقوون على الهجرة والأسفار فيظل ذكرهم حاملاً.

ولهذا لم تكن الفسطاط والإسكندرية ودمشق بيئة صالحة في ذلك الوقت لإقامة الشعراء ولكن لما ضعفت بغداد قاسمتها مصر والشام العناية بالأدب والشعر والفنون فعاش فيهما شعراؤهما ولم يرحلا إلى غيرهما إلا قليلاً[2]

ولما كنا بصدد الحديث عن شاعر من شعراء الشام فإنه يحسن بنا أن نلم إلمامه ولو موجزة عن حالة الشعر في الشام.

الشعر في الشام في العصر العباسي الثاني:

كما سبق أن قلت كانت بغداد كعبة الأدباء والشعراء والعلماء يفدون إليها من شتى البلاد الإسلامية، وهي مجال بروز هذه الفئات من الناس، فالشاعر لا يطير صيته إلا إذا كان في بغداد ولا يتألق نجمه إلا إذا وفد عليها.

واستمرت على هذه الحال إلى ان بدأ الضعف يدب فيها وذلك زمن الإمارات العربية فأخذت الشام بنصيبها الوافر من الأدب والأدباء.

كانت الدولة الحمدانية تسيطر في حلب والموصل وديار بكر وكانت دولة عربية أبيه تفهم الشعر وتتذوقه وقد استطاع سيف الدولة أن يوطد أركان ملكه في المدة القصيرة التي قضاها وهي ثلاث وعشرون سنة بسط سلطانه خلالها على الشام وهزم الروم في وقائع كثيرة.

ولكن هذه الجهود أرهقت ميزانية الدولة فدب فيها شيء من الضعف في آخر عهده حتى أن خلفاءه لم يستطيعوا الصمود أمام هجمات الروم في الشمال والفاطميين في الجنوب.

---

(١) الوزير المهلبي الحسن بن محمد بن عبدالله بن هارون ولد المهلب بن أبي صفره استوزره معز الدولة بن بويه في خلافة المطيع العباسي فقر به المطيع وخلع عليه لقب الوزارة فاجتمعت له وزارة الخليفة والسلطان فلقب بذي الوزارتين وكان عالماً حازماً له شعر رقيق، توفي سنة ٣٢هـ .

(٢) أدب العرب ، ص ٢٧٩ ،

وعلى الرغم من هذه المشاكل لم يغفل سيف الدولة وهو العربي، عن العناية بالأدب والأدباء والسهر على حياء العلوم والآداب فضم بلاطة أعظم الشعراء وأكبر الأدباء كأبي الفرج الأصفهاني[١] صاحب كتاب الأغاني الذي أهدي نسخة منه إلى سيف الدولة فأعطاه الف دينار معتذراً عن قلة الصلة التي لا تجزي الهدية.

ولم يبخل سيف الدولة على العلماء والأدباء والشعراء بالعطايا والهبات لأنه، كما قلنا عربي تهتز اريحيته للأدب والشعر ككل عربي أصيل.

ولهذا كله أثر كبير في نهضة الشعر في عهده، ثم أن الشعر ظل قوياً ناهضاً حتى بعد زوال الدولة الحمدانية[٢]

ولذا رأينا الشعر الشامي يمتاز بقوة الأسلوب وبلاغته وكثرة المعاني ودقتها واتساع مدى الخيال وذلك لقرب الشام من بلاد العرب مهد العربية، ومن العراق منشأ الحضارة الإسلامية.

ولقد كثر في الشام الشعراء الوصافون الذين لا يشق لهم غبار وهم معظم من اتصل بسيف الدولة كالسري الرفاء[٣]و كشاجم[٤] والصوبري وغيرهم[٥]

ولقد توسعوا في وصف الطبيعة ولذلك سببان:

---

(١) ابو الفرج الاصبهاني علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم القرشي من ائمة لأدب الاعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسير والاثار واللغة ولد في اصبهان ، كان أموي شيعي له كتب كثيرة اشهرها كتاب الأغاني الذي قيل فيه لم يعمل في بابه مثله، توفي ببغداد سنة ٣٦هـ

(٢) تاريخ الأدب والنصوص الأدبية، ص ٢٣١

(٣) السري بن أحمد بن السري الكندي أبوالحسن، شاعر موصلي لقب بالرفاء لأنه في صباه كان يرفو ويطرز الثياب في دكان بالموصل، ولما برز في الشعر قصد سيف الدولة بحلب فمدحه واقام عنده ثم انتقل إلى بغداد ، كان عذب الالفاظ، مات ببغداد سنة ٣٦٦هـ

(٤) محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك ابوالفتح كشاجم قيل لقب بذلك لفنون كان يتقنها فنحت منها هذا الاسم، الكاف للكتابة والشين للشعر والجيم للجدل والميم للمنطق، وقيل لأنه كان كاتبا شاعراً جميلا مغنياً فارسي الاصل استقر بحلب فكان من شعراء سيف الدولة، وكان صديقاً حميماً للصنوبري له مؤلفات وديوان شعر توفي سنة ٣٦٠هـ

(٥) المفصل في تاريخ الأدب العربي، ١٠/٢

١. اتساع مجال الخيال عندهم ووفرته لديهم بجمال ببيئتهم وكثرة مناظرهم الرائعة،والجبال الشاهقة المكللة بالغيوم والثلوج والمروج والجداول والحدائق إلى صحة الهواء واعتدال الفصول وتميز بعضها عن بعض.

٢. قرب الشام من العراق منشأ الحضارة الإسلامية ومنبت علماء اللغة والشريعة والحكمة وقربها من الجزيرة مهد الفصاحة الأولى.

واتصالهم بالشام من العراق أبقى فيهم ملكة التكامل بالمعرفة والعلم والتزود من العلوم الإسلامية والفلسفة المنقولة عن الأوائل التي رسخت في أذهان نشئ هذا الزمان بالعراق والجزيرة وشمالي الشام.

كل هذا من الأسباب التي تمني مادة الخيال وتجمل صورة وتشكلها[١] وهذا ما جعل أشهر الوصافين العرب من الشاميين مثل كشاجم والصنوبري والواواء[٢]... فكشاجم من الرملة فلسطيني والصنوبري حلبي من شعراء سيف الدولة والواواء دمشقي وهو القائل:

فأمطرت لؤلوا من نرجس فسقت

ورداً وعضت على العناب بالبرد

فكثر وصف الرياض بما فيها من ماء وأشجار وأزهار وثمار وبما يتقلب فيها من الرياح والأمطار والبرد والثلج، كما كثر وصف الحيوان من الأطيار والوحوش، ولذا رأينا غرضا في وصف الطبيعة يصبح في هذا العصر فناً قائماً بذاته هو فن الزهريات.

وأشهر ما يشار إليه هنا روضيات الصنوبري[٣] وقصيدة الحلي والأقلام والجيوش والسفن والدواب وأثاث البيوت وأدوات الصناع[٤]

---

(١) أدب العرب ، ص ٢٨١

(٢) محمد بن أحمد الغساني الدمشقي أبو الفرج المعروف بالواواء، شاعر مطبوع حلو الالفاظ في معانيه رقة له ديوان شعر توفي في نحو سنة ٣٨٥هـ.

(٣) مجموعة شعرية جمع فيها الشيخ راغب الطباخ ما تيسر له من شعر الصنوبري في كتاب سماه "الروضيات"

(٤) تاريخ الأدب العربي في الاعصر العباسية عمر فروخ، ص ٤١٠

تلك نظرة وجيزة في الحالة الأدبية في العصر العباسي وأننا إذا تصفحناها في صبر ودقة لمسنا أثر الحضارة الجديدة في مقوماتها فالصياغة الشعرية أصبحت وليدة الغناء والزخرفة ونعيم الحياة تقتبس في مجالس الأنس سهولتها ولينها ومن التأنق في الاثاث والملبس والمأكل أناقتها ومن التطرف الاجتماعي تعقيد أساليبها البيانية والبديعية.

إنها ليست مبتكرة بكل مافي الكلمة من معنى فهي قائمة على عناصر قديمة ولكنها ازدادت تأنقاً وازدادت ثروة بيانية وبديعية ومال التشبيه عن نزعته الواقعية التي تسعى في أن يكون المشبه به ممثلاً لحققه المشبه تميلاً حسياً، إلى النزعة الايهامية التي تجعل من المشبه به موطن رونق لا وسيلة تعريف وتدقيق وموطن غموض وتعقيد لا وسيلة إيضاح وسهولة.

وحفل الشعر بالبديع الذي استحدث علمه في ذلك العهد وراح الشعراء يتعمدونه تعمدا ويطرزون به الكلام تطريزا تمشياً مع تيار الحياة المصطنعة ويجعلونه من مجالات المقدرة والتظرف ويركبونه تركيباً بحيث تتجلى الصورة من خلال صور وبحيث تبدو المعاني من وراء الظلال.

وهكذا تطورت الزخرفة من دفق طبيعي إلى تركيب صناعي اضف إلى ذلك أن الشاعر أصبح يلائم بين الموضوعات والأوزان والقوافي ويؤثر الوزن الخفيف واللفظ السهل الحافل بالعذوبة استجابة لداعي الحياة الاجتماعية.

وهكذا سار الشعر العباسي على مادة القديم في روح الجديد، وكان تطوره شكلياً أكثر مما كان جوهرياً، وصناعياً أكثر مما كان فنياً[1].

(١) الموجز في الأدب العربي، ١٤٤/٥

الباب الثاني
حياة المتنبي

الفصل الأول : نسبه ونشأته

الفصل الثاني: ارتباطه بالخلفاء والأمراء

الفصل الثالث : شعر المتنبي بين أنصاره وخصومه

الفصل الأول
نسبه ونشأته

١/ نشأته وحياته:

هو أبو الطيب المتنبي الشاعر الحكيم صاحب الأمثال السائرة والحكم البالغة ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ بحارة (بني كندة)، ونشأ بها وقد اختلف الرواة في نسبه، فيقولون أحياناً إنه: أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد[١]، وعلى رواية بن خلكان[٢]: (هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار،...الخ)، ولكنهم يتفقون على أنه عربي ينتهي نسبه من جهة أبيه إلى قبيلة (جُعفي) اليمنية ومن جهة أمه إلى قبيلة (همدان) اليمنية أيضاً.

(ويذكر الرواة أن أباه الحسين الجُعفي كان فقيراً يسقي الماء بالكوفة،.، ولما شب المتنبي وكثر حساده راح هؤلاء يعيرونه بأبيه نافثين سمومهم بلسان أحد متشاعريهم حيث قال:) [٣]

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المحيا

ويذهب بعض الباحثين إلى أن هذا الادعاء كذب لفقه له خصومه كيداً وحسداً. [٤].

قضى المتنبي فترة طفولته في الكوفة، وتعلم القراءة والكتابة في إحدى مدارس العلويين، فدرس شيئاً من علوم اللغة والأدب هذا إلى جانب ما كان يتعلمه فيها من أصول الدين الإسلامي على مذهب الشيعة العلويين[٥].

---

(١)يوسف خليف ، في الشعر نحو منهج جديد، دار غريب، القاهرة، بلا طبعة، بلا تاريخ، صفحة ١١٩.

(٢) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الجزء الأول، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م، ص١٢١.

(٣) خليل شرف ، المتنبي أمة في رجل، دار ومكتب الهلال ، بيروت ، بلا طبعة، ١٩٨٧م، صفحة ١٤.

(٤)يوسف خليف ، في الشعر العباسي نحو منهج جديد، صفحة ١١٩.

(٥) المرجع السابق ، صفحة ١٢٠.

ولم يكد المتنبي يشب على الطور حتى صحبه أبوه في رحلة إلى بادية السماوة القريبة من الكوفة حيث ظل بها عامين أتاحاً له أن ينهل من ينابيع اللغة الأصلية. [١]

وفي ذلك يقول صاحب الصبح المنبي على حد العبارة التي يرويها عن بعض معاصريه: (صحب الأعراب في البادية، وجاءنا بعد سنين بدوياً قحاً) [٢].

عاد المتنبي إلى الكوفة وقد تفتحت ملكته الشعرية، لكنه لم يطل فيها المقام، فارتحل إلى بغداد ثم الشام، ويؤكد ذلك قول ابن خلكان[٣]: (وهو من أهل الكوفة، وقدم الشام في صباه) وفي الشام رأى أن يتجه إلى المديح فمدح بعض الشيوخ والأشراف، فعظم شأنه بينهم واتصل ببعض القبائل الثائرة وعلى رأسها (بني كلب) التي كانت تحمي الحركة القرمطية، والمرجح أن المتنبي لم يكن قرمطياً إنما أراد استغلال الظرف لعله يصل إلى الولاية والمجد والسلطان.

وسرعان ما انقلب يدعو إلى نفسه بالخلافة غير أن ثورته لم تنجح فقد قضى عليها (لؤلؤ) والي حمص من قبل الإخشيديين وقبض على المتنبي وأمر بحبسه ومن المؤسف أن بعض النقاد اتهموه بأنه ادعى النبوة وهو اتهام باطل لا يقوم عليه دليل[٤].

يقول شوقي ضيف[٥]: (وإلى هذه الثورة يرجع لقبه المتنبي الذي اشتهر به ولكن هل تنبأ حقيقة؟ أكبر الظن أن هذه القصة وما اتصل بها من نثر يقال أنه حاكى به القرآن وانتحل عليه وكأن من انتحلوها أرادوا أن يفسروا بها لقبه،..)

خرج المتنبي من السجن بعد مجيء ابن كيغلغ والياً خلفاً للؤلؤ وقد مكث في السجن سنتين، يقول خليل شرف الدين[٦]: (بعد خروجه من السجن وقد مكث فيه

---

(١) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعرف، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٠م، صفحة ٣٠٣.

(٢) البديعي ، الشيخ يوسف ، الصبح المنبئ عن حيثية المتنبي، تحقيق مصطفى السقا، وآخرين، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، بلا تاريخ، صفحة

(٣) انظر: الدين، المتنبي أمه في رجل ، صفحة ٢٠.

(٤) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، صحة ٣٠٤.

(٥) المرجع السابق ، صفحة ٣٠.

(٦) خليل شرف الدين، المتنبي ، أمة في رجل ، صفحة ٢٤.

سنتين أقلع المتنبي إلى اللجوء إلى الثورة المسلحة ولجأ إلى السلاح الأقوى... الشعر مكتفياً به وسيلة أنجح للوصول فراح يضرب في الآفاق العربية، وخاصة الشامية مادحاً أمراءها..، ثم قصد طرابلس فبعلبك فإنطاكية فكان عليها أبو العشائر الحمداني نسيب سيف الدولة، فقد أبو العشائر المتنبي إلى سيف الدولة أثناء زيارته له، فأعجب الأمير الحمداني بالشاعر واصطحبه معه إلى حلب).

وقد مدح المتنبي سيف الدولة بقصائد كثيرة هي من أجمل قصائده، يقول شوقي ضيف[١]: (ومدائحه لسيف الدولة تعد في الذروة لا من شعره وحده، بل من الشعر العربي عامة،...).

وأحس المتنبي بأن عهداً جديداً قد بدأ في حياته، ومهما يكن من أمر فقد قال المتنبي في سيف الدولة أجمل شعره، يقول خليل شرف الدين[٢]: (وهكذا لزم المتنبي سيف الدولة تسع سنين كانت حافلة بالأحداث من جهة سيف الدولة والأدبية من جهة المتنبي، والمؤامرات من جهة الحساد).

انتهى الأمر بمفارقته بلاط سيف الدولة سنة ٣٤٦هـ، يقول أحمد حسن الزيات[٣]: (ولم يزل معه في حال حسن حتى حدثت بينهما جفوة ففارقة إلى مصر في سنة ٣٤٦هـ).

أقام المتنبي بمصر يمدح كافور من أجل الولاية والسلطان، وبعد طول انتظار ضاقت نفسه بكافور الذي راح يماطله، يقول أحمد الهاشمي[٤]:..(..، فعاتبه أبو الطيب واستأذن في الخروج من مصر فأبى فتغفله ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠). ثم أطلق في كافور أقذع أهاجيه.

عاد المتنبي إلى الكوفة وشهد فيها الكثير من الأحداث، منها إغارة القرامطة سنة ٣٥٣هـ. وذهب بعد ذلك إلى فارس وصحب وزيرها ابن العميد ومدحه ببعض القصائد ثم سار إلى شيراز قاصداً عضد الدولة ونظم فيه عدداً من

---

(١) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، صفحة ، ٣٠٦.

(٢) خليل شرف الدين ، المتنبي أمة في رجل ، صفحة ٢٦.

(٣) أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، دار النهضة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، صفحة ٢٩٩.

(٤) أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، بلا طبعة، بلا تاريخ، الجزء الثاني، صفحة ١٧٧.

القصائد، وفي طريق عودته إلى الكوفة برز له فاتك الأسدي في قوم من بني ضبة.. بالصافية من سواد بغداد واقتتلا فلما رأى الدائرة هم بالفرار فقال له غلامه: (لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقاتل حتى قتل هو وولده وغلامه في أواخر رمضان من سنة ٣٥٤ هـ.

يقول ابن خلكان[١]: (ولما قتل المتنبي رثاه أبو القاسم المظفر بن علي الطبسي بقوله:

لا رعى الله سرب هذا الزمان إذ دهانا في مثل ذاك اللسان

ما رأى الناس ثاني المتنبي أي ثان يرى لبكر الزمان

٢/ ثقافته:ـ

كانت الحركة العلمية في العصر العباسي الثاني عظيمة الشأن إذ كثرت العلوم ونشطت الحياة العربية والأدبية نشاطاً كبيراً، وكان لتعدد الدويلات أثراً كبيراً في هذا النشاط، حيث تنافس أمراءها في جذب ذوي العقول والمواهب كما يقول حسين عطوان[٢]: (وحسبك مجلس سيف الدولة الحمداني مثلاً على ذلك،...).

وكان أبو الطيب المتنبي من هؤلاء الموهوبين المبدعين الذين نالوا حظاً كبيراً من الثقافة في ذلك الزمان، يقول خليل شرف الدين[٣]: (علمنا كيف التهم المتنبي الفتى دفاتر الوراقين، وأوراق العلماء التهاماً غريباً، وأتى على ما فيها من لغة وأدب وفقه وعلم وفلسفة وتصوف.. ثم تمثلها جميعا فظهرت آثارها في شمولية ثقافته وتعددها واتساع أغراض شعره وعمق معانيه، فكان طبيعيا أن يصبح الكتاب أنيسه وجليسه وفريقه، إلى جانب حصانه وسيفه).

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، الجزء الأول ، صفحة ١٢٤.

(٢) حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني، دار الجيل، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م ، صفحة ٢٠.

(٣) خليل شرف الدين ، المتنبي أمة في رجل ، صفحة ٦٢.

ومن هنا كان أبو الطيب المتنبي رائد الاتجاه الجديد في الشعر، ونعني بذلك الاتجاه الذي يتمثل في الشعراء جميع الثقافات في عصرهم، فهو في رأي أحمد حسن الزيات[١]: (إمام الطريقة الابتداعية في الشعر العربي).

ويؤكد هذا القول ما ذهب إليه بن خلكان من شدة تمرس المتنبي باللغة والشعر والأدب، فيقول[٢]: (...، وكان من المكثرين في نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحواشيها، ولا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النثر والنظم، حتى قيل أن الشيخ أبو علي الفارسي صاحب الإيضاح والتكملة قال له يوماً: كما لنا من الجموع على وزن على؟ فقال المتنبي على الفور حجلي وظربى. قال الشيخ أبوعلي: فطالعت كتب اللغة ثلاث ليالي على أن أجد للجمعين ثالثاً فلم أجد).

وفي ذلك يقول شوقي ضيف[٣]: (كان المتنبي مثقفاً ثقافة واسعة بكل ما عرف بعصره من معارف وآراء، وقد اتجه بشعره إلى أن يستوعب أساليب هذه المعارف والآراء، وان يمثل عناصره المتنوعة حتى ينال إعجاب العلماء والمثقفين في عصره،..، فإن القصيدة لم تعد تعبر فقط عن خواطر وجدانية بل أصبحت تعبر أيضاً عن ثقافة).

وقد أورد شوقي ضيف في كتابه (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) نماذج كثيرة من أشعار المتنبي التي تدل على تمثله بجميع الثقافات في شعره.

كانت ثقافة المتنبي العقلية واسعة الشيء الذي مكنه من أن يستوعب جميع الثقافات، يقول شوقي ضيف[٤]:(...، فالعربية لم تعرف شاعراً تمثل في شعره كل ثقافات عصره كما تمثلها المتنبي، وهو تمثل ليس له سباقة في الشعر القديم.)

وفي بلاط سيف الدولة أضاف ثقافته الفلسفة اليونانية ولعل أول ما يدل على ذلك حكمة الكثيرة التي شاعت في شعره وقد أوردها العكبري في (التبيان في

---

(١) أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، صفحة ٣٠١.

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الجزء الأول ، صفحة ١٢١.

(٣) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، صفحة ٣١١.

(٤) شوقي ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة ، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م، صفحة ١٤٠.

شرح الديوان) فقد أورد الكثير من المقابلات بين حكم المتنبي وأقوال الحكيم، يقول يسري محمد سلامة[١]: (وربما ما كان إيراد بعض المواضع التي نص فيها أبو البقاء العكبري على تأثر المتنبي بحكم اليونان عامة، وبأرسطو (المعلم الأول) والحكيم خاصة، معيناً لنا على تبين أوجه الصلة بين المتنبي والثقافة اليونانية على وجه العموم، وأرسطو أو المعلم الأول على وجه الخصوص).

وقد أشار شوقي ضيف إلى ذلك فقال[٢]: (وكان المتنبي يعتني في شعره بأقيسة المنطق، وأكثر من هذه الأقيسة في الديوان كثرة مفرطة، وهي تعطي شعره ضرباً من الحدة للتعبير والإحكام في التفكير.).

ويؤكد ذلك ما ذهب إليه يوسف خليف في قوله[٣]: (ومع استقرار حياة المتنبي في ظلال سيف الدولة، ومع اتصاله بالنشاط العقلي الخصب الذي كان يموج به قصره، خفت قليلاً هذا الصوت الانفعالي، وعلا قليلاً صوت العقل واخذ العنصر العقلي يفرض نفسه، وظهرت الأفكار الفسلفية وظهرت الأقيسة المنطقية، وظهرت القدرة على التعليل العقلي الدقيق، وظهرت الحكم الناضجة التي استمدها المتنبي من ثقافته الفسلفية، وأيضاً من تجربته في الحياة وظهرت أيضاً صورة من التعقيد المعنوي واللفظي، وجنوح إلى اللغات الشاذة التي كان المتنبي يؤكد بداوته بها، ويثبت علمه الواسع في لهجة القبائل العربية).

وقد مكنته هذه الثقافة العالية أن يتفوق على من سبقه من الشعراء، يقول شوقي ضيف [٤]: (وبذلك أصبح شعره في جميع الأفواه، يتداوله جميع العرب في أوطانهم المختلفة من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر).

---

(١) يسري محمد سلامة، الحكمة في شعر المتنبي ، دار المعارف ، بلا طبعة، ١٩٨١م ، صفحة ٤٩.

(٢) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، صفحة ٣٤٦.

(٣) يوسف خليف، في الشعر العباسي نحو منهج جديد، صفحة ١٥٣.

(٤) شوقي ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، صفحة ٦.

تعقد الحياة العباسية وأثرها في شعره:

(أخذت صورة الحياة العربية تتغير تغيراً واسعاً منذ منتصف القرن السادس الهجري وأصاب التغيير جميع جوانبها سواء في الحضارة أو في الثقافة، فقد استقر العرب، وتأنقوا في مساكنهم وملابسهم، وتنعموا في مآكلهم ومشاربهم، وارتقوا في متعهم وملاهيهم)[١].

ويؤكد ذلك شوقي ضيف فيقول[٢]: (لعل مجتمعاً عربياً لم يعرف اللهو والمجون كما عرفها المجتمع العباسي في القرنين الثاني والثالث، فقد غرق الناس في الكوفة والبصرة وبغداد على آذانهم في الحضارة الفارسية المادية وما يطوى فيها من غناء وخمر).

وفي ذلك يقول حسين عطوان[٣]: (فقد سيطر الجنود الأتراك على الخلفاء واستهانوا بهم، وتحكموا في الوزارة والوزارة...، مما أدى إلى انهيار الخلافة وانحلال الوزارة واختلال الإدارة، وشقاء أبناء الشعب شقاء زاد من شدته كثرة الفتن والثورات، وما رافقها من السلب والنهب والقتل والتنكيل.).

في ظل هذه الظروف السيئة ولد المتنبي واستشعر في أعماقه ما صارت إليه شئون الخلافة من الضعف والهوان.

(فانعكس ذلك في شعره فراح يصور جوانب الحياة المختلفة ويشكو الدهر، حتى أصبح شعره صورة صادقة لحياته وترجمان لأحوال عصره وقد كان المتنبي يطمع إلى الولاية ويطمح إلى إعادة المجد العربي المسلوب على يد الأعاجم الأتراك وبوهيين وغيرهم) [٤].

وكان المتنبي في أول حياته ثائراً حزيناً فانعكس ذلك الأثر في شعره، وجاءت أشعاره في مجملها تعبر عن أفكاره عن المجتمع وأخلاق الناس، مضيفاً

---

(١) حسن عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني، صفحة ١٣.

(٢) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص١٠٠.

(٣) حسن عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني، ص٢٦٩.

(٤) شوقي ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، ص١٣٦.

إليه شكواه الخاصة من الزمن في تشاؤم واسع، فمعظم أشعاره في تلك الفترة تصور يأسه وحقده على الناس ولعل أكثر ما يوضح ذلك قوله[١]:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم

فهو يريد أن يلطخ رمحه بدماء الناس بغير رحمة ولا شفقة يقول شوقي ضيف[٢]: (وشعره في هذه الفترة الأولى من حياته يزخر بالفخر والاعتداد بالنفس اعتداداً مفرطاً، فهو يرفع نفسه على الناس من حوله ويزدريهم ويحقد عليهم حقداً شديداً، بل إنه ليحقد على الزمن).

أما الفترة التي قضاها مع سيف الدولة فقد كانت أجمل فترة قضاها في حياته، فقد أحس أنه أمام قائد عربي عاش حياته نضالاً ضد الأعاجم والروم، ولذلك جاء شعره مختلفاً عن سائر شعره في غير هذه المرحلة، وقد عبر شوقي ضيف عن ذلك بقوله[٣]: (وفرق بعيد بين هذه القصائد وقصائده السالفة، بل قصيدته الأولى التي أعدها للقاء سيف الدولة.)

فجاءت أشعاره في سيف الدولة في مجملها هادئة مستمدة من واقع معاركه مع الروم. فقد سيطر عليه الحزن وعادت إليه الآلام والمعاناة بعد فراقه لسيف الدولة، وإن كان هناك اختلاف بين شكواه من الدهر – قبل وبعد سيف الدولة– ففي شكواه قبل سيف الدولة يظهر عليه التجلد والصبر والتحدي، أما شكواه بعد مغادرته لسيف الدولة فهي شكوى إنسان مستسلم عاجز، وأبرز ما يوضح ذلك قوله[٤]:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئاً تتيمه عين ولا جيد

وهكذا فقد أودع المتنبي في أشعاره كل ما يطوي في نفسه من أفكار عن حياة مجتمعه طول حياته، تاركاً من أجلها متعته ولذاته الخاصة.

---

(١) المتنبي ، ديوانه ، الجزء الرابع ، صفحة ١١٢

(٢) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، صفحة ٣٠٥.

(٣) المرجع السابق ، صفحة ٣٠٦.

(٤) المتنبي ديوانه ، الجزء الثاني، صفحة ، ٣٩.

الفصل الثاني

ارتباطه بالخلفاء والأمراء

وفادته على الأمراء:

لم يرِث المتنبي من أبيه مالاً يسد به خلته، ويغنيه عن التكسب بشعره. وكثيراً ما كان يشكو الفقر وشظف العيش، وقلة الأعوان. وابتدأ يمدح الناس وهو في الكتاب، وكان من جوائزه في صباه هدية فيها سمك ولوز في بركة من العسل، وعضت به الحاجة بعد موت أبيه فراح يتردد في حواضر الشام، يمدح الأمراء والسادات؛ فعرفته دمشق، وبعلبك، وحمص، وطرابلس، ومنبج، وانطاكية، واللاذقية، وطرطوس، وصور، وطبرية، والرملة. وله مدائحه قالها في أثناء دعوته يوم كان يتوغل في البادية، ويستنصر الأعراب، كمدحته في الحسين بن اسحق التنوخي، أنشده إياها في اللاذقية وهو ابن عشرين لقوله فيها:

وما أربتْ على العشرين سني فكيف مللتُ من طولِ البقاء !

ومرت به أوقات أول أمره، كان يُجاز فيها بدينار واحد، ويلبس خشن القطن ولا يملك ناقة يستعين بها على أسفاره فيكب نعليه ويضرب بهما في الحواضر والبوادي، فاشتهر بجلده على المشي المتواصل، وفي ذلك يقول:

لا ناقتي تقبلُ الرديفَ، ولا بالسوطِ يومَ الرَّهبانِ أجْهِدُها[١]
شِراكها كُورُها، ومِشْفَرُها زمامُها، والشُّسُوعُ مِقوَدُها [٢]

ويقول في كلمة أخرى:

أبداً أَقطعُ البِلادَ ونجمي في نحُوُسٍ، وهِمتي في سُعودِ

ويقول أيضاً:

لِسري لِباسُهُ خَشِنُ القُطنِ ومَرْويٌّ مَرْوَ لِبسُ القُرودِ[٣]

---

(١) الرديف: الراكب خلف الراكب. الرهان: السباق.

(٢) الشراك: سير النعل ، الكور : رحل الناقة . المشفر : من الناقة بمنزلة الشفة من الإنسان ، زمان النمل: ما تشد إليه السيور التي تكون بين الأصابع ، الشموع: السيور مفردها شمع. مقودها : حبلها الذي تقاد به. جعل نعله ناقته بجامع ركوبه اياها. وجعل سيرها الذي تشد به بمنزلة الرحل. وجعل زمامها بمنزلة مشفر الناقة. وجعل سيورها بمنزلة المقود. وكان حقه أن يقول: وزمامها مشفرها لمناسبة ما قبله وما بعده ألا أنه خالفها لضرورة الوزن.

(٣) السري: الشريف. يعني به نفسه . مروى: ثياب رقاق تنسج بمرور وهي بلد بخراسان. تقول في النسبة إليها ثوب مروي، ورجل مروزي على غير قياس.

ثم حظي عند بعض الأمراء أمثال آل تنوخ في اللاذقية، وبدر بن عمار في طبرية، والحسن بن طُغج في الرملة. وأتيح له شيء من الشهرة حتى أصبح ذوو الوجاهة يتعرضون له ليمدحهم كما فعل ابن كيغلغ وكان يومئذ على طرابلس، بعد ما كان في حمص فمرَ به أبو الطيب ووجهته أنطاكية، فسأله أن يمدحه، فماطله أبو الطيب وكان يرجو الاتصال بسيف الدولة، فكيف يمدح عاملاً لعدوه الإخشيد، وهو إلى ذلك لم ينس ان الرجل لم يطلقه من السجن إلا بعدما أدنفه المرض. وما زال يماطله حتى تسنى له الهرب بعد أربعين يوماً، فهجاه بقصيدته الشهيرة التي أولها: (لهوى النفوس سريرةٌ لا تُعلم.) ومثله طاهر بن الحسين العلوي في الرملة، فإنه كان يشتهي أن يُمدح بشعر أبي الطيب، وشاعرنا يأبى أن يمدحه حتى ألح عليه الأمير أبو محمد الحسن بن طغج، وضمن له عند العلوي مئات من الدنانير، ففعل أبو الطيب، ولما دخل على طاهر لينشده شعره فيه نزل طاهر عن سريره، والتقاه مسلماً عليه، ثم أخذه بيده، فأجلسه في المرتبة التي كان فيها، وجلس هو بين يديه.

على أن حظوته عند هؤلاء الأمراء لم تغنه من فقر، ولم تحل دون تذمره على الدهر، وشكواه الشعر. وقد أورثته مع ضآلته أعداء وحساداً فكانوا يكايدونه شأن ابن كرؤس الأعور نديم بدر بن عمار، وكان هو يهجوهم ويذود عن نفسه. وما زال كذلك دأبه بين خمول وشهرة، وهبوط وارتفاع، وفقر وغنى، حتى ورد أنطاكية وعليها أبو العشائر الحمداني من قبل نسيبه سيف الدولة، فاتصل به ومدحه بعدة قصائد، فأكرمه أبو العشائر، وأحسن مثواه.

اتصاله بسيف الدولة:

وكان سبب اتصاله بسيف الدولة أن ملك حلب قدم أنطاكية سنة ٣٣٧هـ (٩٤٨م) فاستقبله أبو العشائر، وقدم إليه المتنبي وعرفه منزلته في الشعر والأدب وأثنى عليه. فحمله معه إلى حلب، واشترط عليه أبو الطيب ألا ينشده واقفاً وألا يكلّف تقبيل الأرض بين يديه، فدخل سيف الدولة تحت شرطة، ومالت نفسه إليه وأحبه، فسلمه إلى الرواض، فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة، فكان يصحبه في غزواته، ويشهد معه المعارك، ويصفها بشعره.

وأفاض عليه سيف الدولة وافر النعم، فكان يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ما عدا غيرها من نوافل الأعطيات والخيل والجواري والضيع، حتى بلغ في مدة أربع سنوات خمسة وثلاثين ألف دينار. وهي ثروة لا تقل عما كان يربحه فحول الشعراء في العصور المتقدمة، لأن الذهب في عصر المتنبي كان غالياً لتوزعه في الممالك المستقلة بعد ما كان محصوراً في مملكة واحدة، ثم لتتابع الحروب والثورات والفتن، فلا غرو أن يشعر أبو الطيب بلذة الغنى، وينزع عن شكوى الفقر، والتطواف للتكسب، ويخاطب سيف الدولة بقوله:

تركتُ السُّرى خَلفي لمن قلَّ ماله وأنعَلتُ أفراسي بنُعماكَ عَسجدا[1]

ولكن نفسه الجبارة ظلت تطمع في شيء أعظم، فكان يشير إليه ولا يصرح به:

أهمُّ بشيءٍ واللّيالي كأنَها تُطاردُني عن كونِه، وأطارد[2]

وكان به غلظة واستكبار، فرفع رأسه تغطرساً، وصعر خده للناس، فمقته الشعراء والأدباء لكبريائه، وحدوده على نعمته ورقة حواشي عيشه. فراحوا يكيدونه ويرمونه بكل نقيصة، ويعيرونه أصله، ويعيبون شعره، ويغلظون قلب الأمير عليه. ولم تخفَ على المتنبي قوة خصومه، فلم يَخِف منهم بل قاومهم بعنف واحتقار. وإذا رأى من سيف الدولة ميلا إليهم عاتبه واستنجده عليهم.

أزلْ حسدَ الحُسادِ عني بكبتهم فأنتم الذي صيرتهُم لي حُسدا[3]

وكان أشدَّ خصومه لددا أبو فراس الحمداني، وابن خالويه مؤدب سيف الدولة. فإن أبا فراس، وهو شاعر وأمير، كان يتأذى من شهرة أبي الطيب المتنبي، وتقديم سيف الدولة له، ويغيظه أن يُعرض أبو الطيب عنه فما يخصه بمديح. ولا يُعتد بقول الثعالبي أنه لم يمدحه تهيباً له وإجلالاً، لا إغفالاً وإخلالاً ؛ فإن شاعر سيف الدول لو شاء لاستطاع أن يمدح أبا فراس وهو دون الملك مقاماً، وهيبة وجلالاً، لكنه ترفع عنه كما ترفع عن غيره، واكتفى بسيف الدولة لا يمدح

---

(١) عسجداً: ذهبا.

(٢) واطارد: أي وأطارد الليالي عن الحؤول بيني وبين هذا الشيء.

(٣) بكتبهم: بإذلالهم.

سواه. فكرهه أبو فراس وتمنى إسقاطه، وخضد كبريائه، فطفق يضافر الشعراء على ثعلبه، ويلوم ابن عمه على تقديمه فيقول: (إن هذا المتشدق كثير الإدلال عليك، وأن تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد، ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره.) وما زال به يعضده سائر خصوم المتنبي من شعراء وعلماء حتى تغير قلب الأمير عليه، فجعل يجفوه مرة، ويرضى عنه أخرى، وربما دخل عليه فتنكر له، ورد السلام مختصراً. وجفاه مرة، فعاتبه الشاعر، فلم ينظر إليه سيف الدولة كعادته، فخرج متغيراً وانقطع عن نظم الشعر. وكان سيف الدولة إذا تأخر عنه مدحه شق عليه وأكثر أذاه، وأحضر من لا خير فيه، وتقدم إليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب، فلا يجيب أبو الطيب. فزاد ذلك في غيظ سيف الدولة ويتمادى أبو الطيب في ترك قول الشعر، ويلح سيف الدولة فيما كان يفعله، إلى أن كبر الأمر على الشاعر فنظم ميميته الخالدة التي أولها:

واحرّ قلباه ممنْ قلبُه شبمُ ومن بجسمي وحالي عنده سقمُ! (١)

وكان أبو فراس حاضراً ساعة إنشادها، فانبرى ينتقدها، ويبين سرقات أبي الطيب فيها، وأبو الطيب يتابع القول ولا يردُّ عليه ويبالغ في الكبر والصلف حتى إنه لم يبال أن يتناوله بشعره، ويعرض به، وأن يفتخر على جميع من حضر مجلس الأمير. فضجر سيف الدولة منه، واستاء من دعاوية وعجرفته، فضربه بدواة بين يديه، فلم يهلع الشاعر بل ظل رابط الجأش، حاضر الذهن، فارتجل هذا البيت الشرود:

إن كان سرّكم ما قال حاسدُنا فما لجُرحٍ، إذا أرضاكم، ألم(٢)

وتابع أبو فراس نقده، فلم يتلفت سيف الدولة إلى قوله، وأعجبه بيت المتنبي، ورضي عنه، وأدناه إليه، وقبله، وأجازه بألف دينار، ثم أردفها بألف أخرى.

---

(١) قوله: قلباه ، ألحق هاء السكت في الوصل ضرورة ، والمختار حذفها ، الياء من قلبي على لغة من يسكنها دفعاً لالتقاء الساكنين شبم: بارد.ديوان أبوالطيب المتنبي وضعه عبدالرحمن البرقوقي ج٢ص٢٨٨

(٢)المصدر نفسه ج٢ ص٢٩٢

على أن هذه القصيدة وإن تكن أرضت سيف الدولة مع ما فيها من غطرسة وغلظة في العتاب، لقد احنقت أنسابه وحاشيته ورجال مجلسه. وكان أبو العشائر حاضراً فساءه أن يعرض الشاعر ببعض بني عمه، فلما خرج المتنبي ألحق به بعض غلمانه ليوقعوا به، فوقفوا له في الطريق، فرماه أحدهم بسهم وقال: (خذه، وأنا غلام أبي العشائر!) فوقع السهم في نحر فرسه، فانتزعه ورمى به؛ ثم كر عليهم بالسيف فجرح أحدهم، فتركوه واشتغلوا بالمضروب. واستخفى أبو الطيب عند صديق له، وسيف الدولة يسأل عنه، وينكر أن يكون قد أمر بقتله، أو علم بما دُبر لاغتياله، ثم عاد إليه الشاعر بمدحه، ولكن اجتماع الحساد عليه كان ينغص عيشه، فسئم الإقامة بينهم وآلمه أن يعيرهم الأمير سمعه، فأزمع الرحيل، وحذر سيف الدولة بقوله:

إذا الجودِ أعط الناس ما أنت مالكُ، ولا تُعْطين الناس ما أنا قائل[1]

لم يحفل سيف الدولة بتحذيره، ولا منع الخصوم عن الوقيعة، به حتى كانت حادثة ابن خالويه، فجاءت ثالثة الاثافي.

وابن خالويه له دالة على الأمير لأنه مؤدبه، وهو يكره المتنبي لشاعريته وحظوته، ويكرهه لأن أبا الطيب كان يحتقره ويزدري آراءه في النحو، ولطالما حاول النحوي مناظرته، فخذله الشاعر، وجهله وسفه آراءه، فاتفق أن اجتمعا مرة في مجلس سيف الدولة بعد أن عاثت مكايد الحساد في صدر الأمير فأفسدت في ما بينه وبين شاعره من مودة. وكان أبو الطيب اللغوي حاضراً، فجرت بينه وبين ابن خالويه مناظرة في اللغة، والمتنبي ساكت، فقال له سيف الدولة: (ألا تتكلم يا أبا الطيب) فتكلم بما نوى حجة أبي الطيب اللغوي وضعف قول ابن خالويه. فأخرج هذا من كم مفتاحاً ليلكم به المتنبي، فقال له المتنبي: (اسكت ويحك! فإنك أعجمي، وأصلك خوزي فما لك والعربية!) فضرب وجهه بذلك المفتاح، فسال دمه، فغضب المتنبي من ذلك، وزاده غيظاً أن سيف الدولة لم ينتصر له لا قولاً ولا فعلاً. فاعتصم بالصمت عالماً أن التعرض لابن خالويه وخيم المغبة ما دام الأمير راضياً عن عمله، وخرج من الحضرة، وقد عوّل على الرحيل.

---

(١) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٣٠.

اتصاله بكافور:

ترك المتنبي حلب سنة ٣٤٦هـ (٩٥٧م) وأم دمشق، وهي يومئذٍ من أعمال الإخشيد وعليها وآل يهودي من قبل كافور[١] يُعرف بابن مالك، فالتمس من المتنبي ان يمدحه، فأبي، فغضب ابن مالك وحمل كافوراً على أن يطلب أبا الطيب إلى مصر. ثم كتب إليه أن الشاعر قال: (لا أقصد العبد، وإن دخلت مصر فما قصدي إلا ابن سيده.) ونبت دمشق بالمتنبي فسار إلى الرملة بفلسطين، وافداً على أميرها الحسن بن طغج، وكان أبو الطيب يمدحه قبل اتصاله بسيف الدولة، فحمل إليه الحسن هدايا نفيسة، وخلع عليه، وحمله على فرس وقلده سيفاً محلى. وعرف كافور بمقدمه فكان يقول: (أتراه يبلغ الرملة ولا يأتينا؟) وكانت الرملة من أعمال الأخشيد فكتب إلى أميرها يطلبه، فسار إليه أبو الطيب، فأمر له بمنزل، ووكل به جماعة من الغلمان يخدمونه، وخلع عليه.

وكان المتنبي لا ينفك يحلم بالملك منذ حداثته، فلما صار إلى كافور بعد خيبته عند سيف الدولة، ولقى من الأسود حفاوة وإكراماً، طمع فيه وشاقه أن يُقطع ولاية في مملكته يدبر أمورها، ويعتاض بها من خيبته، ويكبت بها حساده، فوعده كافور. فشرع المتنبي يمدحه في كل سانحة، ويعرض لذكر الولاية، وكافور يماطله.

---

(١) كان كافور مولى لمحمد بن طغج اشتراه ثمانية عشر ديناراً، وكان عبداً أسود، خصياً مثقوب الشفة السفلى، عظيم البطن، مشقق القدمين، ثقيل البدن، لا فرق بينه وبين الأمة. وكان إلى ذلك ذكياً فطناً، حسن السياسة، فرقاه سيده، وجله في خدمة ولديه ثم قاد له الجيوش في حربه مع سيف الدولة ، ولما مات محمد سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥م) انتقل الملك إلى ولده أنوجور، وكان صغيراً، فناب عنه كافور وقام بتدبير دولته احسن قيام. وتوفى أنوجور سنة ٣٤٩هـ (٩٦٠م) قيل ان كافوراً سقاه سماً ليتخلص منه، فتلوى بعده أخوه علي، واستمر كافور على على نيابته مستبداً بالسلطة حتى مات على سنة ٣٥٥هـ، (٩٦٥م) فاستولى كافور بعده على الملك واتخذ لقب الأخشيد كسادته أبناء طفنج، واتسعت مملكته فكان يدعي له على المنابر بمة والحجاز، والديار المصرية ن وبلاد الشام من دمشق وحلب وانطاكية وطرسوس والمصيصة وغير ذلك ، حتى توفى سنة ٣٥٧هـ (٩٦٧م) وعاد الملك بعده إلى آل طفج، فملك أبو الفوارس أحمد بن علي إلى سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢م) وتم للفاطميين الاستيلاء على مصر فانقرضت بهم دولة الأخشيد.

ولم يسلم في مصر من اعداء يكيدونه، فإن ابن خنزابة وزير كافور كان يبغضه لأنه أبى أن يمدحه، فأخذ يشنع عليه، ويشير على كافور بان لا يجيب طلبه، وإذا سمع مدحه في سيده قال: (هذا هزءُ بكافور).

فلما طال الأمر بأبي الطيب، وبان له أن وعود كافور عرقوبية، تولاه اليأس، وملْ الإقامة في مصر، ثم أصابته الحمى، فساءت صحته، فعزم على الرحيل.

وكان كافور يعلم أن أبا الطيب واجد عليه لتخيبه رجاءه، فخشي أن يهجوه إذا خرج من مصر وابتعد عن حكمه فمنعه من الرحيل، وألزمه أن يبقى في باطنته. فعلم أبو الطيب أنه سجين لا يستطيع البراح إلا خفية، فأعد كل ما يحتاج إليه، وأعانه بعض أصحابه، فدفن الرماح في الرمال، وحمل الماء على الإبل لعشر ليل، وتزود لعشرين. وكان يفعل ذلك سراً وهو يظهر الرغبة في المقام، ويركب في خدمة العبد خوفاً منه. فلما كانت ليلة الأضحى في أواخر سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م) خرج من مصر مستخفياً، ونظم في هجو كافور داليته الشهيرة: (عيدٌ بأية حالٍ عُدتَ يا عيدُ!) فأرسل كافور بعض رجاله بطلبه فلم يدركوه.

في العراقَ وفارس:

برح المتنبي مصر ساخطاً على كافور يهجوه ويوجع عرضه، فقدم الكوفة سنة ٣٥١هـ (٩٦٢م) وأقام بها. وبلغ سيف الدولة قدومه، فأنفذ إليه ابنه من حلب سنة ٣٥٢هـ (٩٦٣م) ومعه هدية سنية، فمدحه أبو الطيب بقصيدة، وأرسلها إليه. ثم ماتت أخت سيف الدولة، فعمل المتنبي قصيدة يعزيه فيها، وبعث بها إلى حلب. ثم أنفذ إليه سيف الدولة كتاباً بخط يده يسأله المسير إليه، فأجابه أبو الطيب بقصيدة أولها:

فَهِمتُ الكتابَ أبرّ الكُتُبْ فسَمعاً لأمرِ أميرِ العَرَبْ[1]

ولكنه لم يسر إليه، بل لبث بالكوفة نحو ثلاث سنوات، قصد في خلالها إلى بغداد والخليفة فيها المطيع لله، والسلطان بيد معز الدولة بن بويه، ووزيره المهلي، فرغب المهلي إلى أبي الطيب في أن يمدحه، فالتحف برداء الكبر، على لغة

(١) ديوان المتنبي ، ج١ ، ص ١٤٤ .

الحاتمي، وأعرض عن مدحه. فحنق الوزير وأغرى به الشعراء فانبروا يشتمونه وينتقصون قدره. وكان أشدهم تطاولاً عليه ابن سُكرة وابن حجاج. وكان المعز قد ساءه ان يصدر شاعر عن حضرة عدوه سيف الدولة ويرد حضرته في دار الخلافة، فلا يلقى أحداً يساويه في صناعته. فما كان من الحاتمي إلا أن تعرض لمناظرة أبي الطيب فجاءه في داره، فازدراه المتنبي ولم يوقره، فخنق واندفع ينتقده ويظهر عيوبه، ويحدثنا الخاتمي في رسالته الموضحة أن أبا الطيب اعتذر له مستخزياً، وعجز عن مناظرته. ولكن لا نستطيع ان نثبت حقيقة هذه المناظرة لأن القصة يرويها أحد الخصمين. ومن الصعب أن يقنعنا الحاتمي بأن المتنبي لانت قناته في مناظرته له، وقد عُرف باستبحاره في اللغة، واعتداده بنفسه، وصلابته في الدفاع عن شعره.

ولم تطل الإقامة للمتنبي في دار السلام، فلم يُطل بها مكوثه بل رجع إلى الكوفة وأقام بها زمناً ثم رحل إلى أرجان وفيها ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه صاحب أصفهان. وكان قد راسل المتنبي إلى العراق فصار إليه في شهر صفر سنة ٣٥٤هـ (شباط ٩٦٥م) ومدحه وأقام عنده برهة، ثم جاءه كتاب من عضد الدولة بن بويه صاحب فارس يستزيره، فودع ابن العميد، وشخص إلى شيراز، فاحتفى به عضد الدولة، وأحسن وفادته، وأجزل له العطاء حتى بلغ ما وصل إليه من أكثر من مائتي ألف درهم ما عدا الخِلع والهدايا والتحف.

وعرضت لأبي الطيب حاجة في الكوفة، ويظن أنه كان يريد الرجوع إلى حلب، فأستأذن عضد الدولة بالسفر على أن يعود إليه، فأذن له وخلع عليه الخاصة، ووصله بالمال الكثير، فودعه بقصيدة كافية أنشده إياها في أول شعبان سنة ٣٥٤هـ(٢آب ٩٦٥م) وكانت آخر شعر قاله، وقد أودعها من التشاؤم على نفسه، بما لم يقع له في غيرها مع كثرة أسفاره. وكثيراً ما تنتاب الهواجس قلب المرء، قبل نكبة مقدوره له، ولا يعلم لها سبباً:

وأيا شِئتِ يا طُرقي فكوني أذاةً، أو نَجاةً او هلاكا ! [1]

---

(١) ديوان المتنبي ، ج٢ ، ص ٦٥ .

مقتله:

اختلف الرواة في مقتل المتنبي، فمن قائل إن قاتله فاتك بن جهل الأسدي، ومن زاعم أن عضد الدولة لما وفد عليه أبو الطيب، وصله بثلاثة آلاف دينار، وثلاثة أفراس مُسرجة محلاة، وثياب مفتخرة، ثم دس عليه من سأله: (أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟) فقال: (هذا أجزل إلا أن عطاءه متكلف، وسيف الدولة كان يعطي طبعاً.) فغضب عضد الدولة، فلما انصرف أبو الطيب من شيراز، جهز عليه قوماً من بني ضبة فقتلوه. وقيل إن الخفراء جاؤوه، وطلبوا منه خمسين درهماً ليسيروا معه، فمنعه الشح والكبر، فوقع له في الطريق ما وقع. على أن الرواية الأولى أشهر، وتحرير الخبر أن رجلاً يقال له ضبة بن يزيد العُتبي كان قد خرج في الكوفة مع خوارج الأعراب من كلاب، فقُتل والده في تلك الفتنة، قتله قوم من الكوفة، وسبيت أمه.

وكان ضبة غداراً بكل من نزل به، فاجتاز به أبو الطيب في جماعة من أشراف الكوفة، فامتنع منهم وأقبل يجاهر بشتمهم فأرادوا أن يجيبوه بمثل ألفاظه القبيحة، وسألوا ذلك أبا الطيب، فتكلفه لهم على كراهة وقال يهجو ضبة وهو على ظهر جواده: (ما أنصف القوم ضبة.) وهي قصيدة فاحشة الألفاظ، كثيرة الغثاء حتى أن أبا الطيب كان يكره سماعها إذا رويت له. وقد سببت قتله مع ما بها من سخف وسفسفه، ذلك انه كان لضبة خال يقال له فاتك بن جهل الأسدي، فداخلته الحمية لما سمع ذكر أخته بالقبيح، فاضمر الشر لأبي الطيب، ولبث يتربص به في جماعة من قومه، قيل أنهم عشرون، وجعلهم عبد الله الكاتب النصيبي في قصيدة رثى بها المتنبي سبعين رجلاً، وجعل رفاق أبا الطيب ستة.

وعاد المتنبي من شيراز ومعه بغال موقرة بالذهب والطيب، والكتب الثمينة، والخلع النفيسة. فلما بلغ النعانية في جبال الصافية، من الجانب الغربي من سواد بغداد، على مقربة من دير العاقول، خرج عليه فاتك في أصحابه، فقاتل المتنبي حتى قُتل هو وابنه محمد، وغلامه مُفلح. وروى صاحب العمدة أن أبا الطيب فرّ لما رأى الغلبة، فقال له غلامه: (لا يتحدث عنك الناس بالفرار أبداً وأنت القائل:)

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفُني والسيفُ والرمحُ والقِرطاسُ والقلمُ[١]

فكرّ راجعاً فقُتل، وكان ذلك في ٢٨ رمضان سنة ٣٥٤هـ (٢٧ أيلول ٩٦٥م).

ورثى أبا الطيب عدة شعراء منهم صديقه أبو الفتح عثمان بن جني النحوي ومظفر بن علي الطبسي، وعبد الله الكاتب النصيبي، وثابت بن هارون الرقي النصراني. وهذان استجاشا عضد الدولة على بني أسد لأنهم قتلوا ضيفه، وحوا عطاءه، ولكن عضد الدولة لم يصنع شيئاً، وذهب دم الشاعر وأصحابه هدراً.

أخلاقه وصفاته:

يصور لنا شعر المتنبي أخص ما يمتاز به صاحبه من الصفات، ففيه الكبرياء والأنفة، والشجاعة، والطموح، وحب المغامرات. وفيه التعفف والترصن، ومجانبة اللهو والهزل حتى أن شاعرنا كان يكره الخمر لأنها تضيع العقل:

وأنفسُ ما للفتى لُبه وذو اللّب يكره إنفاقهُ [٢]

ولا يكرهها لأن الكتاب حرمها، فتحريم الكتاب عنده دون تحريم ممدوحه إذا أراده على شربها:

وإذا طلبتُ رضى الأمير بشربها واخذتُها، فلقد تركتُ الأحرما[٣]

ومن يعلو بنفسه إلى منازل الأنبياء والرسل لا يرجى منه تحرج في الدين. فقد روى أن أبا الطيب لم يكن يصوم، ولا يصلي، ولا يقرأ القرآن. ولكنه كان وفياً لأصحابه، فقد ترك حلب غاضباً مقهوراً، وقلبه لم يزل يحن إلى سيف الدولة، وبعث أبو العشائر غلمانه ليغتالوه، فلم يقل فيه كلمة سوء، وإنما قال أبياتاً تُشعر بحبه الأكيد له:

ومنتسبٍ عندي إلى من أحبُّه وللنيل حَولي مِن يديه حفيفُ [٤]

وكان يكره التمويه والخداع، فقد شاب وهو غلام يختضب لأن الاختضاب تمويه:

---

(١) ديوان المتنبي ، ج٢ ، ص ٢٩١ .

(٢) المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٣٧.

(٣) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٩١ .

(٤) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤٩٤.

ومن هوى كل من ليست مموهة تركتُ لونَ مشيبي غير مخضوبِ[1]

وكره كافوراً لأنه خدعه وأخلفه الوعد،ولكن عصره كان عصر رياء ومخادعة فاضطره أحياناً إلى محاربة الناس بسلاحهم:

ولما صار ود الناسِ خباً جزيتُ على ابتسام بابتسام [2][3]

إلا أنه كان يتألم من ذلك:

ومن نكدِ الدُنيا على الحُر ان يرى عدواً له ما من صداقته بُد[4]

وساء ظنه بعصره فتشاؤم به، واحتقر أهله، وزاده تشاؤماً مغامراته الكثيرة، وإخفاقه المتتابع.

وعيب أبو الطيب بالبخل، فرووا عنه قصصاً غريبة لا نطمئن إلى صحتها لأنها تنافي كبره وإباءه، ولأن الشاعر كان كثير الحساد فوضعوا عليه هذه النوادر لينتقصوه ويسقطوه. ونحن لا نزعم ان أبا الطيب سخي متلاف، فذلك ليس من طباعه، ولكننا لا نراه لحزاً شحيحاً، فقد طالما ذم الحرص وافتخر بكرمه. ولو كان ممن يحرصون على جمع المال لما استنكف أن يمدح كل أمير يسأله مديحاً. وأغلب ظننا أن المتنبي كان مقتصداً لأنه ذاق طعم الفقر في صباه، ورأيى فيه ضيماً، ونفسه تأبي الضيم، فكره التبذير خوفاً من ذل إنفاقه، وهو يطلب المجد، وعنده أن المجد لا يُدرك بغير المال: (لا مجد في الدنيا لمن قل ماله.) فحرص أبي الطيب على طلب المجد جعله يؤثر الاقتصاد، ولا يسرف في الانفاق.

---

(١) ديوان المتنبي ، ج١ ، ص ١٨٤.

(٢) خباً: خداعاً.

(٥) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤١٠ .

(٥) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٠٦.

الفصل الثالث

شعر المتنبي بين أنصاره وخصومه

الانحراف الأسلوبي في شعر المتنبي:

نتناول في هذه المبحث الانحراف الأسلوبي (Stylistic deviation) بصفته ظاهرة تعتمد على الخروج على النمط المثالي للأداء، وتتبع مظاهره في شعر أبي الطيب المتنبي (٣٠٣- ٣٥٤هـ) الذي ينحرف في أساليبه عن النمط المعهود بحثاً عن تركيب غير عادي يوائم به بين نفسه المحتدمة وأداته الفنية ولو أدى ذلك إلى الإخلال ببنية الكلمة أو نظام الجملة.

إن المتنبي ينحرف في اختيار الألفاظ و توزيعها و ترتيب أجزاء الجملة لغايات فنية وجمالية انحرافاً يسبب للمتلقي هزة غير متوقعة، فهو يواجه الحياة من خلال اللغة بنفس كبيرة، و يميل للأساليب والألفاظ الغريبة حتى أصبح ذلك بمثابة البصمة الأسلوبية التي تساعد في كشف شخصية المتنبي المختفية خلف قناع اللغة.

إن استغلاله لأغلب مظاهر الانحراف الأسلوبي هو نواة أدبية الخطاب في شعره، كما أن الانحراف في الأسلوب هو السبب الأول الذي جعل النقاد يعنون بشعر المتنبي في مختلف العصور لأن ما يهم الناقد في النص الشعري لا يتوقف على ما يقوله النص، وإنما الطريقة التي يقال بها النص، إن الناقد يبحث عن الشكل وأنماط الصيغ.

أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي (٣٠٣ ــ ٣٥٤هـ) عاش حياة مضطربة انعكست على شعره، تنقل بين الكوفة ودمشق حيث مدح بدر بن عمار ثم انتقل إلى حلب حيث صار من شعراء سيف الدولة الحمداني، ومع مرور الزمن تغير عليه سيف الدولة، فتوجه نحو كافور الإخشيدي في مصر ولم يجد عنده ما يأمله، فخرج عائداً إلى العراق ثم فارس حيث مدح عضد الدولة، وفي أثناء عودته خرج عليه قطاع الطرق فقتلوه.

والمتنبي في مدائحه وأشعاره التي سطرها في هؤلاء الملوك والأمراء وغيرهم لا يكتفي بما يرضي الممدوح بل إن صورة من في المجلس من اللغويين

والنحاة والشعراء تتراءى أمامه، ولذلك فإن المتلقي يجد المتنبي عند استعماله الفني للغة يميل ميلاً شديداً نحو كسر رتابة النظام اللغوي المعتاد على عدة مستويات، سواء على المستوى اللغوي أو على مستوى اختيار الألفاظ التي تناسب معجمه الشعري أو على مستوى توزيع أجزاء الجملة، كما يجده ينحرف أحياناً من أجل غايات صوتية وإيقاعية.

وسوف تتناول هذه الدراسة العناصر التالية:

١- الانحراف الأسلوبي: مفهومه و قيمته الفنية.

٢- الانحراف بكسر رتابة النظام اللغوي المألوف.

٣- الانحراف بخرق النظام المثالي في الاختيار والتوزيع.

٤- الانحراف باستغلال الطاقة التعبيرية للالتفاف.

٥- أثر الانحراف في الإيقاع الموسيقي.

١ـ الانحراف الأسلوبي: مفهومه وقيمته الفنية:

تبدو ظاهرة الانحراف الأسلوبي حينما يتعامل الأديب مع لغة النص الأدبي بطريقة تغاير النمط المثالي المألوف المتواضع عليه، سواء كانت هذه المغايرة على مستوى تركيب الجملة أو على مستوى اختيار الألفاظ وهو بذلك يكون قد انحرف في لغته عن لغة الكتابة غير الفنية التي تعتمد على المستوى العادي للغة الذي يستخدم اللغة المعيارية (Standard Language)، بخلاف المستوى الفني الذي يستخدم اللغة الأدبية" literary Language ومن خلال هذا المستوى يمكن الانحراف الأديب من استعمال أنماط غير دارجة مما يكسب أسلوبه أبعاداً دلالية وإيحائية.

وقد اختلف النقاد في اختيار مصطلح لهذه الظاهرة الأسلوبية التي يكسر فيها الأديب رتابة النظام اللغوي فقد أطلق عليه اللغويون العرب القدامى وبخاصة البلاغيون مصطلح العدول، أما في العصر الحديث فلم يتفقوا على مصطلح واحد بل تعددت المصطلحات تعدداً ملفتاً للنظر إذ أطلق عليه بعضهم مصطلح الانحراف وهو أكثر شيوعاً كما أطلق عليه بعضهم مصطلح الانزياح و الخروج و الخرق و التجاوز و الانتهاك و غير ذلك.

إن عدم استقرار المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث له أثر كبير في عدم استقرار المفاهيم النقدية، ولا شك في أن استقرار المصطلح في أي حضارة له دلالة كبيرة على النضج والوعي، ويبدو أن سبب عدم استقرار المصطلح عائد إلى أن المصادر النقدية الغربية التي تم النقل عنها في الغالب كانت مختلفة فيما بينها فقد استعمل " سبيتزر spitzer " مصطلح الانحراف و "بول فاليري valery" تجاوز وانزياح "وجان كوهين cohen" انتهاك واستعمل "والاك wellek" وكذلك "وارين warren" مصطلح الاختلال[١] وغير ذلك كثير.

إن ظاهرة الانحراف الأسلوبي تدل على أن هناك أصلاً تم الانحراف عنه، فما المقياس الذي على ضوئه يعد الأسلوب منحرفاً وتعرف درجة انحرافه؟ إن المستوى العادي للغة الذي تستعمل فيه اللغة وفق النمط المثالي المألوف المتواضع عليه و تستعمل فيه الكلمات في معناها الأصلي هو الأساس الذي يقاس عليه الانحراف الأسلوبي وتعرف درجة انحرافه، والقاعدة التي يقاس عليها الانحراف يطلق عليها "درجة الصفر" degre zero ولعل أوضح تحديد لها ما ذهب إليه أنصار جماعة "م" البلاغية، الذين يرون أن درجة الصفر تتمثل في الخطاب المحايد، حيث تسمى الأشياء بشكل مباشر فيقال عن القط إنه قط، ويسميها رولان بارت "Roland barthes" الدرجة الصفر للكتابة[٢] وهي صفة تطلق على الخطاب الذي تدل فيه كل كلمة على ما وضعت له في أصل اللغة، ولا يحتاج السامع في فهمها إلى تأويل، و يظهر ذلك جلياً في مستويات اللغة العادية.

وبهذا تكون الدرجة الصفر إشارة إلى المرحلة التي كان عليها الكلام قبل دخوله في صياغة فنية تنحرف به عن أصله.

---

(١) انظر ، د/ عبد السلام المسدي ؛ الأسلوبية و الأسلوب،ط٣، الدار العربية للكتاب ، (د . ت) ص١٠٠

(٢) انظر : بارت ، رولان ؛ الدرجة الصفر للكتابة :

Roland Barthes , Ledegre Zero de Lecritur – 1953.Paris,le Seuil .

ترجمة محمد برادة ، بيروت منشورات دار الطليعة للطباعة و النشر ، (د . ت) ص ٨٦ ، وانظر : الأزهر الزناد : دروس في البلاغة العربية نحو رؤية جديدة ، الدار البيضاء – بيروت ط١ ، ١٩٩٢ المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ط ١ ، ١٩٩٢م ، ص٢١

على أن الاستناد إلى مستويات اللغة العادية في قياس الانحراف ليس على إطلاقه بل ينبغي الاستناد إلى مستويات اللغة العادية المعاصرة للآثار الأدبية المدروسة، وليس إلى مستويات من عصور بعيدة [١] "بمعنى أن يقاس انحراف النص الأدبي إلى ما يعاصره من مستوى الكلام العادي".

وللانحراف الأسلوبي أثر كبير في الدراسات النقدية إذ أن رصد ظواهر الانحراف الأسلوبي يساعد الناقد على قراءة النص قراءة استنباطية تعتمد على العلاقات بين بنى النص داخل العمل الأدبي وما لذلك من أبعاد دلالية و إيحائية بعيداً عن الانطباعية والتفسيرات الشخصية، مما يساعد على الخروج بالدراسة النقدية عن المباشرة والتقريرية.

إن الانحراف الأسلوبي ينمي مهارات الأديب على إبداع أساليب جديدة، تستعمل فيها اللغة استعمالات غير مألوفة، إن نجاح الأديب في توليد أساليب جديدة يساعده على تشكيل لغته تشكيلاً يمكنّه من التعبير عن إحساسه ورؤاه، بأساليب ذات أبعاد دلالية وإيحائية، خالية من الوضوح والابتذال، لقد أصبح الانحراف أداة ناجحة من أدوات التعبير الفني.

وكما كان لظاهرة الانحراف الأسلوبي أثر على الدراسات النقدية وعلى الأديب، فإن لها أثراً على المتلقي لأن كسر رتابة النظام اللغوي يشحن المتلقي بطاقة انفعالية حين يصطدم فجأة بما لا يتوقع وما لم يتربى عليه ذوقه.

ولذلك نظر اللغويون إلى لغة الشعر نظرة خاصة فأجازوا فيها ما لا يجوز لغوياً ونحوياً، وذلك تحت مسمى " الضرورة " يقول الخليل بن أحمد[٢]: "الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا، وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم". ويرى بعض النحاة أن الضرورة تعني الرخص التي يتمتع بها الشاعر سواء كان مضطراً أو

---

(١) د / عبد الحكيم راضي : نظرية اللغة في النقد العربي ، القاهرة منشورات مكتبة الخانجي (د . ت) ص٥٢٠ .

(٢) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة تونس دار الكتب الشرقية ١٩٦٦ ص ١٤٣ .

غير مضطر، يقول ابن عصفور عن الشعر[١]: "أجازت العرب فيه ما لا يجوز في الكلام اضطروا إلى ذلك أو لم يضطروا...".

وليس لكل انحراف أسلوبي أثر جمالي وقيمة فنية، لأن بعض الانحرافات تعدّ من المستوى العادي اللغة وهي الانحرافات المطردة التي تحكمها قاعدة نحوية أو تصريفية، كالانحراف عن أصل الكلمة في الإعلال والإبدال، أو الانحراف عن أصل وضع الجملة، وما دامت القاعدة تحكم هذه الانحرافات فهي انحرافات مطردة، وكذلك بعض المجازات إذا كثر استعمالها فقدت قيمتها الأسلوبية، يقول يحيى العلوي [٢]: "إن المجاز إذا كثر استعماله صار حقيقة عرفية، ومثاله قولنا الغائط، فإنه يكون مجازاً في قضاء الحاجة، وحقيقته المكان المطمئن من الأرض، ثم تعورف هذا المجاز وكثر حتى صار حقيقة سابقة إلى الفهم".

٢ـ الانحراف بكسر رتابة النظام اللغوي المألوف:

يعمد أبو الطيب المتنبي في استعماله الفني للغة إلى مخالفة الاستعمال العادي بالخروج على قواعد الاستخدام اللغوي المعتاد، ويميل ميلاً شديداً إلى كسر رتابة النظام اللغوي على مستوييه النحوي والصرفي وهو بحسه الشعري ينزع إلى تشكيل اللغة حسبما تقتضيه حاجته لتقديم رؤاه وأحاسيسه بالطريقة التي يراها أكثر تأثيراً من غيرها، ولو أدى ذلك إلى الإخلال ببنية الكلمة أو نظام الجملة، مما يولد لدى المتلقي إحساساً بالدهشة و المفاجأة و يشحنه بطاقة انفعالية قوية، ولذلك عنى النقاد بشعره لأن ما يهم الناقد في النص الشعري لا يتوقف على ما يقوله النص وإنما يتجاوز ذلك إلى الطريقة التي يقال بها هذا النص فالناقد يبحث عن الشكل وأنماط الصيغ.

---

(١) ابن عصفور أبو الحسن على بن مؤمن : المغرب ، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري ، وعبد الله الجبوري ، بغداد مطبعة العاني
بغداد ، ص١ ، ط١ ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢ م ، ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) يحيي بن حمزة العلوي الطراز ، صححه سيد بن علي المرصفي ، مصر، مطبعة المقطم ، ج١ ،١٩٤١ ، ص ص ٩٩ – ١٠٠ .

أ ـ مظاهر الانحراف في المستوى النحوي:

لقد تمكنت من أبي الطيب المتنبي روح المغامرة و الرغبة في التحدي فخرج على خصائص الأسلوب المتعارف عليه و تصرف في لغته الشعرية تصرفاً يصدم المألوف النحوي، وذلك بعد أن وجد منفذاً صغيراً في النظام اللغوي يتمثل في الخلاف بين النحاة فنفذ منها مستغلاً خلافات النحاة وما شذ من الأساليب النحوية، وإذا كان المذهب البصري قد ساد بين الناس في عصره و هجروا المذهب الكوفي فإن المتنبي قد أتخذ النحو الكوفي مذهباً له واتكأ عليه في صياغة شعره مخالفاً بذلك جلّ المعاصرين له من الشعراء والكتاب يقول د. شوقي ضيف[١] وكان ذلك يعد غريباً على الناس في عصره، إذ كانوا قد هجروا النحو الكوفي إلى النحو البصري... يفاجئ المتنبي قارئ شعره بخروجه على المستوى العادي للغة حين يجزم الفعل المضارع ويعمد إلى حذف الجازم في مطلع قصيدته التي بعث بها إلى يوسف بن عبد العزيز الخزاعي[٢]:

جَزَى عَرَبا أَمْسَتْ بِبُلْبَيْس رَبُّها بِمَسْعَاتِهَاَ تَقْرَرْ بَذاكَ عُيُونْهُا

فجزم تقرر مع حذف الجازم وهو اللام، وكذلك نجده ينحرف عن قواعد الأداء المعروفة حين ينصب الفعل المضارع بأن المحذوفة في قصيدته التي مدح بها محمد بن زريق الطرسوسي[٣]:

بَيْضَاءُ يَمْنَعُهَا تَكَلُّمَ دَلَهًّا تِيْهَا وَيَمْنَعُهَا الْحَيَاءُ تَمِيْسَا

نصب "تميس" بأن المخففة المحذوفة وذلك ضعيف عند النجاة، بل إن البصريين[٤] يمنعون ذلك، ويرون أنها لا تنصب الفعل المضارع مع الحذف من غير بدل، وأجاز ذلك الكوفيون، ومن الأساليب التي خرج من خلالها على

---

(١) د . شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط١١ دار المعارف (د . ت) ، ص ص ٣٣٦-٣٣٧

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي ، ج٢، ص ٤٧٨.

(٣) المصدر السابق ،ج ١ ، ص ٤٣٤.

(٤) انظر الأنباري ، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد :الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مصر المكتبة التجارية الكبرى ، ج٢ ، ط ٤ ، ١٣٨٠هـ ١٩٦١م ،ص ص٥٥٩-٥٧٠ .

خصائص النحو المتعارف عليها ما جاء في لاميته التي مدح بها القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكي[١]:

يا افْخَرْ فإنَّ النَّاسَ فِيْكَ ثَلاَثَةٌ مُسْتَعْظِمٌ أَوْ حَاسِدٌ أوْ جَاهِلُ

يريد: يا هذا افخر، فحذف المنادى وهو اسم الإشارة.

ويتنوع انحرافه عن الاستعمال المطرد فنجده يصل الضمير بأداة الاستثناء الذي حقه أن ينفصل عنها في قصيدة مدح فيها سيف الدولة و شكره على هدية بعث بها إليه[٢]:

لَيْسَ إِلاَّك يا عَلِيّ همامٌ سَيْفُه دُوْنَ عِرْضِهِ مَسْلُوْلُ

وكذلك قوله في بدر بن عمار [٣]:

لَمْ تَرَ مَنْ نَادَمْتَ إِلاّكَا لا لِسِوَى وُدّكَ لِيْ ذَاكَا

ويزداد انحرافه عن قواعد الأداء اللغوي المألوفة حين يبنى صيغة "أفعل " من الأفعال الدالة على الألوان، و خاصة حين يأتي بصيغة التفضيل من اللون الأسود حيث نجده يخاطب الشيب في البيت الثاني من قوله [٤]:

ضَيْفٌ أَلَّمَ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ وَالسَّيْفُ أَحْسَن فِعْلاً منْه باللِّمَمِ

إبْعِدْ بَعِدْتَ بَيَاضَاً لا بَيَاضَ لهُ لأنْتَ أَسْوَدُ في عَيْنِي مِنْ الظُلَمِ[٥]

نجده قد أتى بصيغة "أفعل" من السواد، وقد سار في ذلك على رأي الكوفيين[٦] الذين يجيزون صياغة ما أفعله من البياض و السواد خاصة، من بين سائر الألوان، أما البصريون فأنهم لا يجيزون ذلك فيها، كغيرها من سائر الألوان.

وتتجلى ظاهرة الانحراف الأسلوبي في نصوصه الشعرية حين يصدم المألوف النحوي بمعاملته الفعل المتعدي معاملة الفعل اللازم، ومن ثم تعديته باللام

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي –ج٢ ، ص ٢١٨.

(٢) المصدر السابق ،ج ٣،ص ١٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢، ص ٥٧ .

(٤) المصدر السابق ،ج ٢ ، ص ٣٣٨.

(٥) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٥ .

(٦) انظر تفصيل رأي الكوفيين في هذه المسألة في كتاب الإنصاف لكمال الدين الأنباري – مصدر سبق ذكره – ج١ ، ص ص ١٤٨ – ١٥٥.

جاء ذلك في ميميته التي مدح بها سيف الدولة عندما عزم على الرحيل من إنطاكية التي نزل بها عقب ظفره بحصن برزويه، انظر البيت الثاني من قوله:

أيْنَ أزْمَعْتَ أيُّهَذا الهُمَامُ نَحْنُ نَبْتُ الرُّبَا وأنْتَ الغَمَامُ[1]

نحْنُ مَنْ ضَايَقَ الزَّمَانُ لَهُ فيْكَ وَخَانَتْهُ بِقُرْبِكَ الأَيَّامُ[2]

وَإذا كانَتْ النُفُوْسُ كِبَاراً تَعِبَتْ فِي مُرَادِها الأجْسَامُ[3]

يريد نحن من ضايقه الزمان فيك، و الفعل " ضايق " متعدٍ، ولكن الشاعر عامله معاملة اللازم، ففصل الفعل ضايق عن المفعول به الضمير و عداه إليه باللام، فصار الكلام: نحن من ضايق الزمان له فيك، ويشير بذلك إلى أن الزمان يحرمهم لقاءه و يغار عليه و يريد أن ينفرد به دون الناس، وهذه المخالفات النحوية هي التي دفعت النحاة[4] وشراح شعر المتنبي إلى الوقوف طويلاً أمام هذا البيت.

إن كثرة انحراف أبي الطيب المتنبي عن المعايير اللغوية الشائعة وخروجه على خصائص الأسلوب المتعارف عليه ليس دليلاً على ضعف لغة الشاعر وعجزه عن الأخذ بناصية اللغة، بل يبدو أن في ذلك نوعاً من الاحتيال لأنه يريد أن يعبر عن شيء في نفسه لا تؤديه اللغة العادية، فتصرف في اللغة بوعي، واستخدمها استخداماً يحقق غايته.

وقد أكد أبو الفتح عثمان بن جني أن مثل هذه الانحرافات لا تدل على ضعف لغة الشاعر فهو يفعل ذلك في أداته الفنية إدلالاً بقوة طبعه وسمو نفسه وتعجرفه، وذلك حين شبه الشاعر في تعامله مع لغته الإبداعية بمن يمتطي جواداً جموحاً بلا لجام، وبمن يجتاز كل طريق مخوف.

---

(٥) ديوان المتنبي ، ج٢ ، ص ٢٧٥ .

(٥) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٦ .

(٥) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٧ .

(١) انظر تفصيل رأي ابن جني في هذا البيت ، كذلك رأي ابن فورجة ، ورأي أبي البقاء العكبري ، في ديوان أبي الطيب المتنبي– مصدر سبق ذكره – ج٣ ، ص ص ٣٤٣ – ٣٤٤

يقول في ذلك[١] "فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها، وانخراق الأصول بها، فاعلم أن ذلك على ما جشمه منه، وإن دلّ من وجه على جوره و تعسفه، فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله، وتخمطه، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته، ولا قصوره عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته، بل مثله في ذلك عندي مثل مجرى الجموح بلا لجام، ووارد الحرب الضروس حاسراً من غير احتشام، فهو، وإن كان ملوماً في عنفه وتهالكه، فإنه مشهود له بشجاعته، وفيض منته، ألا تراه لا يجهل أن لو تكفر في سلاحه أو اعتصم بلجام جواده، لكان أقرب إلى النجاة، وأبعد عن الملحاة، ولكنه جشم ما جشمه، على علمه بما يعقب اقتحام مثله، إدلالاً بقوة طبعه ودلاله على شهامة نفسه".

ب ـ مظاهر الانحراف في البنية الصرفية:

من مظاهر الانحراف في البنية الصرفية، التي يزخر بها شعر أبى الطيب المتنبي جمع الاسم على غير صيغة جمعه، ومن يتصفح شعر المتنبي يجده ينحرف عن الأنماط القياسية المألوفة في الجمع إلى صيغ غريبة أو نادرة أو شاذة إنه يفاجئ المتلقي و يثير الدهشة بصيغ لم يألفها، انظر إليه عندما أراد أن يجمع كلمة "أخ " في أول قصيدة من قصائد الديوان[٢]:

إنَّ المُعِيْنَ عَلَىَ الصَّبَابَةِ بالأَسَى أوْلَى بِرَحْمَةِ رَبِّها وإخَائهِ

تجده يجمع كلمة " أخ " على " إخاء " بدلاً من أن يجمعها على إخوة، وكذلك تجده يجمع كلمة " بوق " على " بوقات " في قوله [٣]:

إذا كانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفاً لِدَوْلَةٍ فَفِي النَّاس بُوْقاتٌ لَهَا وَطُبُولُ

أنَا السَّابِقُ الهَادِي إلىَ ما أقُولُهُ إذا القَوْلُ قَبْلَ القائلِيْنَ مَقُوْلُ

---

(٢) ابن جني ، الخصائص ،تحقيق محمد على النجار ،دار الكتب المصرية،ج٢ ، ط ١٩٥٥م،ص ٣٩٢

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي ج١ ، ص ٨٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٢٦ .

فهو يجمع كلمة "بوق"[1] جمعاً مؤنثا سالماً على " بوقات " منحرفا بذلك عن النمط اللغوي المألوف، ومخالفاً بذلك القياس الصرفي الذي يقتضي جمعه جمع تكسير فيقال: أبواق، لأن جمع المؤنث السالم له مواضع خاصة.

ويزخر شعر المتنبي بصيغ الجمع التي تشحن المتلقي بطاقة انفعالية حين يصطدم فجأة بما لا يتوقع، وبما لم يتربى عليه ذوقه، وخاصة حين يجد الشاعر يجمع كلمة " أرض " على " أروض " في قوله ماداحاً عضد الدولة [2]:

أرُوضُ النَّاسِ مِنْ تُرْبٍ وَخَوْفٍ وَأَرْضِ أبى شُجَاعٍ مِنْ أمَانِ
تُذِمّ عَلَى اللُّصُوْصِ لِكُلِ تَجْرٍ وَتَضْمَنُ لِلصّوَارِمِ كُلّ جَانِي

وكذلك حين يجمع كلمة " كوب " على " أكوب " منحرفاً بذلك عن النمط اللغوي المألوف ومخالفاً القياس الصرفي الذي يقتضي جمع الكلمة على أكواب وذلك في قوله:

لأحِبَّتِي أنْ يَمْلَئُوا بالصَّافِيَاتِ الأكْوُبَا
وَعَلَيْهِمُ أنْ يَبْذُلُوا وَعَلَيّ أَنْ لاَ أَشْرَبَا[3]

ومن مظاهر الانحراف في البنية الصرفية ما يفعله أبو الطيب المتنبي حين يعمد إلى فك الإدغام في ميميته التي مدح بها عمر بن سليمان الشرابي، وهو يومئذ يتولى الفداء بين العرب والروم بقوله فيها.

---

(١) انظر القاضي علي الجرجاني ، : الوساطة بين المتنبي و خصومه ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم و على محمد البجاوي ، المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت ١٩٦٦م ، ص ص ٤٤٣ – ٤٤٦ ، وفيه تفصيل رأي أنصار المتنبي الذين قالوا : أن "بوق" أعجمي تكلمت به العرب ، ولم يحفظ عنهم جمعه ، فلما احتاج المولدون إليه أجروه على أصل الجموع ، تبعوا فيه عادة العرب في الأسماء المنقولة عن الأسماء الأعجمية ، نحو: سرادق وسرادقات ، وساباط وساباطات ... فعدلوا جميع هذه الأبنية عن أصول قياسها، ألحقوها بأصل الجمع ، وأصل الجمع التأنيث ، وقال خصومه : هذه اللفظة تكلمت بها العرب وعرفت قديماً في لغتها ، ولسنا نبعد أن تكون الكلمة عربية صحيحة ، فإننا نجد لها أصلاً في العربية مشهوراً ، وهو قولهم : أصابتنا بوقة من المطر ، أي دفعة ويقولون للشيء إذا انفجر دفعة : انباق ، فإن كانت عربية فباب جمعها معروف ، وإن كانت أعجمية فالعرب إذا عربت أعجمياً ألحقته في كلامها وأجرته على أبنيتها ، ألا تراهم قالوا : مهرق ومهارق ، وبستان وبساتين .

(٢) ديوان المتنبي – ج٢ ، ص ٤٨٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٤٩ .

وَلاَ يُبْرِمُ الأَمْرُ الذَّي هُوَ حَالـــــــلٌ وَلاَ يُحْلِلُ الأَمْرُ الذَّي هُوَ مُبْرِمُ[١]

وَلاَ يَرْمَح الأذيْــالَ منْ جَبرِيـــــــةٍ وَلا يَخْدُمُ الدُّنيَا وإيَّاه تَخْدِمُ...

وَأَغْرَبُ مِنْ عَنْقَاءَ فِي الطَّيْرَ شَكْلُه وأعْوَزُ مِنْ مُسْتَرْفِدٍ مِنْه يُحْرَمُ[٢]

يريد انه ليس للأمر الذي يحكمه ناقض ولا للذي نقضه مبرم فهو لا يخـــالف فيما أراد، فاستعمل كلمة: " حالل " فخالف القياس الصرفي، ويقتضي القيـــاس أن يقول "حال" بإدغام اللامين لا بالفك، ومثل ذلك كلمة " يحلل" في نفس البيت، وقـــد ذكر أبو البقاء العكبري في شرح الديوان أن الشاعر قد يعمـــد إلـــى مثـــل هـــذه الانحرافات عن قصد منه يقول [٣]: "أظهر التضعيف في حالل، وهو مـــن بـــاب الضرورات، ولو قال مكانه: ناقض، لسلم من الضرورة، وربما فعل الشاعر هـــذا ليشعر أنه يعلم بالضرورات...".

والحقيقة إن هذا وأمثاله وإن كان انحرافا عن المألوف ومخالفاً للقياس فإنـــه رجوع إلى الأصل، وقد يصوغ اسم الفاعل من كلمة: "دار" في مثل قوله [٤]:

أسَائلُها عَنْ المُتَدَيِّـــريـــهَا فَلا تَذْرِي وَلا تُذْرِي دُمُوْعَـــا

لَحاهَا اللهُ إلاَّ ما ضيِيْعَهَـــا زَمَانَ اللّهْوِ وَالخَوْدَ الشَّمُوْعَـــا[٥]

المتديروها هم المتخذوها داراً.

إن شعر المتنبي يزخر بالانحرافات الأسلوبية التي تعتمد على كسر رتابـــة النظام اللغوي لذلك نجد أساليبه الشعرية تشحن المتلقي بطاقة انفعاليـــة يقـــول د. إحسان عباس [٦]: "صدم المتنبي الذوق مرتين: مرة بشخصه المتعالي المتعـــاظم، ومرة بجرأته في الشعر، جرأته التي تركب المبالغة و تتصرف باللغة... تصـــرف المالك المستبد".

---

(٥) ديوان المتنبي ، ج٢ ، ص ٣٦٨ .

(٥) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٦٨ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٥٠ .

(٥) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤٦٨ .

(٤) د . إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، بيروت مؤسسة الرسالة ط١ ، ١٩٧١م ، ص٢٥٢.

ونتوقف هنا لنتساءل عن السبب الذي دفع المتنبي إلى الإكثار من الانحراف عن مستويات الاستعمال المطرد؟ وما الذي جعله ينأى بأساليبه الشعرية عما تقتضيه المعايير المقررة في النظام اللغوي، ويتصرف في اللغة تصرف المالك المستبد؟

يبدو أن ذلك مظهر من مظاهر الإرادة الشعرية لدى المتنبي، إنها الإرادة التي تكشف عن الخصائص الفردية التي بها تظهر روح الشاعر، إنه يشعر شعور العظماء، ويعرف قدراته الفنية وقيمة شعره، لذا جاءت أساليبه الشعرية مرآة لنفسه، لقد عرف أن يوائم بين نفسه المحتدمة ولغته التي هي أداته الفنية.

٣ـ الانحراف بخرق النظام المثالي في الاختيار و التوزيع:

تتيح اللغة للأديب أن يغترف من ألفاظها و تراكيبها ما يشاء، وكل أديب يغترف مما تزخر به اللغة ما يتفق مع معجمه اللغوي، وأبو الطيب المتنبي عندما يختار الألفاظ التي تتفق مع معجمه المتميز فإنه ينحرف في اختيار الألفاظ انحرافاً يسبب للمتلقي هزة غير متوقعة، وينحرف أيضا في التوزيع وذلك بخرق النظام المثالي في توزيع أجزاء الجملة لغايات فنية وجمالية، والمعروف أن المتنبي يختلف عن أقرانه بما يتسم به من سمات ثقافية وفكرية وانفعالية، ويبدو لمن يتابع سيرة حياته و طموحاته أن هناك تمازجاً تاماً بين شخصية المتنبي وأسلوبه.

أ ـ الانحراف في محور الاختيار:

تتجلى ظاهرة الانحراف في محور الاختيار بشكل ملفت للنظر حين يختار المتنبي لفظة من مجموع الألفاظ المستقرة في رصيده المعجمي التي تقوم بينها علاقات استبدالية بحيث يمكن الاستغناء بإحداها عن الأخرى، وفي هذه الحالة تجد المتنبي ينأى عن الألفاظ المستعملة في الوسط الأدبي ويختار الألفاظ الغريبة أو النادرة أو الشاذة ويقحمها في نصه الشعري عن قصد وتنتشر هذه الألفاظ في شعره بشكل يختلف إلى حد كبير عن الأدباء المعاصرين له، يقول في مطلع إحدى قصائده(١):

ألاَ كُلُ مَاشِيَةِ الخَيْزَلَـــى فِـدَى كُلّ مَا شِيَةِ الهَيْدَبَـى

(١) ديوان أبى الطيب المتنبي – مصدر سبق ذكره – ج١ ، ص ص ٣٦ – ٣٨ .

وَكُلّ نَجاةٍ بُجَــاوِيـــــةٍ خَنُوفٍ وَمَا بِيَ حُسْنُ المِشَى
وَلَكِنَّهُنَّ حِبَالُ الحَيَـــــاةِ وَكَيْدُ العُدَاةِ وَ مَيـــْطُ الأَذَى

لقد صدم الشاعر المتلقي باختيار كلمتين غريبتين فـي البيـت الأول همـا الخيزلى والهيدبى، وقد أدخلهما في شعره عن قصد، وتزداد صدمة المتلقي بسبب انحراف الصورة التي جسدتها هاتين اللفظتين، وذلك بمخالفته عـادات العـرب، بجعل كل امرأة مسترخية تمشي الخيزلى تفتدي كل ناقة مسرعة تمشي الهيـدبى، حيث عكس ما ألفه المتلقي فحقق الشاعر ما يريده من إثارة اهتمام المتلقي من أول بيت في القصيدة، وقال في مطلع قصيدته التي مدح بها عبد الواحد بن العباس بن أبى الأصبع الكاتب(١):

أَرِكَائبَ الأحْبَابِ إنَّ الأدْمُعَـــــا تَطِسُ الخُدُوْدَ كَمَا تَطِسْنَّ اليَـرْمُعا
فَاعْرِفْنَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَيْكُنّ النَّوَى وَاَمْشِيْنَ هَوْنـــاً فِي الأزِمَّةِ خُضَّعَـا

لقد أختار كلمة " تطس" من بين عدة بدائل متاحة و كان بإمكانه أن يختـار كلمة " تدق " لكنه اختار كلمة تطس لأنها هي لتي تعبر عما في نفســه، وكـذلك اختار كلمة اليرمع، وكان بإمكانه أن يختار كلمة الحجارة، وربما يكون للقافية دور في اختيار اليرمع.

ومن الكلمات الغريبة التي اختارها وفضلها على غيرها كلمة الجرشى التـي استعملها بمعني النفس، وهي كلمة مستكرهة في السمع بسبب عدم تـداولها بـين الأدباء، وندرة استعمالها بين العرب الخلص، ولكنه فضلها علـى كلمـة: الـنفس واستعملها في قوله (٢):

مُبَارَكُ الاسْمِ أغَـــرُّ اللَّقَبِ كَـرِيْمُ الجرِشَّى شَرِيْفُ النَّسَـــبْ
أَخُوْ الحَرْبِ يُخْدِمُ مِمَّا سَبَى قَنَـــاهُ، وَيَخْلَـعُ مِـمَّـا سَلَـبْ

لقد أصبح اختيار الألفاظ الغريبة و تفضيلها على غيرها من البدائل المتاحـة إحدى السمات الأسلوبية لشعر أبي الطيب المتنبي، فهي بمثابة البصمة الأسـلوبية Stylistic Finger" التي امتاز بها المتنبي عمن عداه مـن الشـعراء، وتكشـف

(١) ديوان المتنبي ، ج١ ، ،ص ٤٧٤ .
(٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٩٩ .

شخصيته المختفية خلف قناع اللغة، انظر إلى مطلع قصيدته التي مدح بها محمد بن زريق الطرسوسي[١]:

هَذِي بَرَزْتِ لَنَا فَهِجْتِ رَسِيْسَا ثُمَّ انْثَنَيْتِ وَ مَا شَفَيْتِ نَسِيْسَا
وَجَعَلْتِ حَظيِّ مِنْكِ حَظيِّ فِي الْكَرىَ وَتَرَكْتِنِي لِلْفَرْقَدَيْنَ جَلِيْسَا
قَطَّعْتِ ذَيّاكِ الخِمَارَ بسَكْرَةٍ وَأَدَرْتِ مِنْ خَمْرِ الفِرَاقِ كُئُوْسَا

اختار كلمة "الرسيس" بمعنى مارس في القلب من الهوى أي ثبت، واختار كلمة "النسيس" وهي بقية النفس، ويقول في مطلع قصيدته التي مدح بها علي بن إبراهيم التنوخي [٢]:

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فِي أُحَادِ لُيَيْلَتَنَا المَنُوْطَةُ بالتَّنَادِي

فاستعمل لفظتي: أحاد " و " سداس" وهما من الألفاظ النادرة و الغريبة، يقول ابن عباد في تعليقه على هذا البيت[٣]: "وما ظنك بممدوح قد تشمر للسماع من مادحه فصك سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة و المعاني المنبوذة؟ فأي هزة تبقى هناك؟ وأي أريحية تثبت هنا؟".

وقد عدّ بعض المستشرقين[٤] طريقة المتنبي في اختيار الألفاظ وصوغ الكلام من ظواهر العربية المولدة.

لقد أخضع المتنبي مهارته الأسلوبية لإيثاراته الخاصة فهو شاعر متحرر مما يمليه عليه المقام ولا يضبط اختياراته تبعاً لما يتطلبه الموقف، لذلك نجده يختار الألفاظ ذات المعاني غير المألوفة و يقحمها في شعره مع إمكان استبدالها بغيرها،

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ٤٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤٩٤ .

(٣) الثعالبي ، أبو منصور : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق محمد محي الدين ج١ ، ط عام ١٩٧٣م، ص ١٤٧ .

(٤) انظر: يوهان فك ، : العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، ترجمة د. رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ١٩٨٠م ، ص١٨١، وفيه يقول :" أما الاختيار الذي يؤلف المتنبي نظمه على مقتضاه سقيماً مضطرباً فيتجلى فيه عجزه عن التعبير الموافق لروح العربية القديمة ، على العكس من تقديم المسند إليه في الجملة الفعلية – فهو ظاهرة خاصة بالعربية المولدة " ، ص ١٨١ .

منها انه يستعمل "التوارب" بدلاً من التراب، و "الكيذبان" بدلاً من الكذاب، و"اللغى" بدلاً من اللغات ، و" الجائد " بدلاً من الجواد، وغيرها كثير.

وقد كشف أبو البقاء العكبري وهو أحد شراح شعر المتنبي السبب وراء اختيار المتنبي للألفاظ النادرة و تفضيلها على غيرها، وذلك حينما سأل أبو البقاء شيخه أبا الحرم مكي بن ريان الماكسيني عند قراءته الديوان عليه: ما بال شعر المتنبي في كافور أجود من شعره في عضد الدولة وأبى الفضل ابن العميد؟ فقال شيخه(١): " كان المتنبي يعمل الشعر للناس لا للممدوح وكان أبو الفضل ابن العميد، وعضد الدولة في بلاد خالية من الفضلاء وكان بمصر جماعة من الفضلاء والشعراء فكان يعمل الشعر لأجلهم، وكذلك كان عند سيف الدولة، ابن حمدان جماعة من الفضلاء، والأدباء فكان يعمل الشعر لأجلهم ولا يبالي بالممدوح" ويقول (٢): " والدليل على هذا ما قال أبو الفتح عنه في قوله "تفاوح" لأنه لما قالها أنكرها عليه قوم حتى حققوها ".

على أن طبيعة الشاعر ونفسيته وراء اختيار هذا النوع من الألفاظ، فهو لا ينظر إلى الممدوح فقط لأن صورة المتلقي تتراءى أمامه ولا تغيب عنه، فالمتلقي هو الغائب الحاضر.

ويبدو أن إكثار أبي الطيب المتنبي من استخدام الكلمات غير المألوفة هو الذي سبب صعوبة أسلوبه في بعض نماذجه الشعرية فقد ثبت وجود صلة بين صعوبة الأسلوب وتنوع المفردات غير المألوفة(٣): "وترجع العلاقة بين الخاصيتين إلى أمر يمكن توقعه، فالكاتب أو الشاعر الذي يتميز بنسبة تنوع عالية في المفردات أي بوجود عدد كبير من الكلمات المتنوعة يلجأ عادة إلى استخدام كلمات غير مألوفة لكي يزيد من تنوع ألفاظه".

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي – مصدر سبق ذكره – ج٢ ص٢١ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) د . سعد مصلوح ، في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ط١ ، ١٤١١/١٩٩١ ، ص١٢٥ .

وهناك مظهر آخر من مظاهر انحراف المتنبي في اختيار الألفاظ، فهو حين يترك الألفاظ الغريبة والنادرة فإنه يفاجئ المتلقي بشيء آخر فهو يستخدم ألفاظ الحب في المدح ويستعمل ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب والجدّ، وقد تنبه إلى ذلك وعلله أبو منصور الثعالبي، وهو يرى أن ذلك مذهب تفرد به المتنبي وأكثر من سلوكه اقتداراً منه[١]: "وتبحراً في الألفاظ والمعاني ورفعاً لنفسه عن درجة الشعراء، وتدريجاً لها إلى مماثلة الملوك" يقول في مدح على بن إبراهيم التنوخي[٢]:

أغَارُ مِنَ الزُّجَاجَةِ وَ هْيَ تَجْرِي عَلَىَ شَفَةِ الأَمِيْرِ أبي الحُسَيْنِ

إن الغيرة على شفة هذا الأمير لا معنى لها، إن هذه الغيرة لا تكون إلا بين المحب ومحبوبته، ويقول في مدح كافور[٣]:

مَا أنَا بالبْاَغِي عَلَىَ الحُبِّ رَشْوَةً ضَعِيْفٌ هَوَىَ يُبْغِى عَلَيْهِ ثَوَابُ
وَمَا شئْتُ إلا أنْ أُذِلَّ عَوَاذِلِـــي عَلَىَ أنْ رَأيي فِي هَوَاكِ صَوَابُ

ويقول في مدح عضد الدولة[٤]:

أرُوْحُ وَقَدْ خَتَمْتُ عَلَىَ فُؤَادِي بِحُبِّكَ أنْ يحلَّ بِهِ سِوَاكا

ومن انحرافه عن المألوف في اختيار ألفاظ الغزل والنسيب واستعمالها في أوصاف الحرب، قوله [٥]:

أعْلَىَ المَمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الأسَلِ والطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيْهِنَّ كالقُبَلِ

انظر كيف صارت الطعنات في القتال كالقبل المستعذبة واللذات المغتنمة، فالمقاتلون يستعذبون ويستلذون الطعن استلذاذ القبل، ويقول أيضا في مدح أبي الفوارس وهو "دليرّ بن لشكروز" حين جاء إلى الكوفة لقتال الخارجي الذي ظهر

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر – مصدر سبق ذكره – ج١ ، ص١٩١ .
(٢) ديوان أبي الطيب – مصدر سبق ذكره ٤ ، ص١٩٣ .
(٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص١٩٩ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٠ .
(٥) المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٤ .

بها من بني كلاب، ويظهر الممدوح كأن الحرب عاشقة له، وهو عند زيارته لها يسرع إليها للإلمام بها[١]:

شُجَاعٌ كأنَّ الحَرْبَ عَاشِقَةٌ لَهُ إذَا زَارَهَا فَدَّتْهُ بالخَيْلِ وَالرَّجْلِ

وهذه الظاهرة الأسلوبية التي يستعمل فيها المتنبي ألفاظ الحب والغزل ليست خاصة بالمدح وأوصاف الحرب والجد كما ذكر الثعالبي و إنما تتجاوز ذلك إلى أغراض أخرى من شعره كالعتاب والرثاء، يقول معاتباً سيف الدولة [٢]:

مَالِي أُكَتِّمُ حُبَاً قَد بْرَىَ جَسَدِي وَتَدَّعِي حُبَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الأُمَمُ؟

إنْ كَانَ يَجْمَعُنَا حُبٌّ لغُرَّتِهِ فَلَيْتَ أنّا بِقَدْرِ الحُبِّ نَقْتَسِمُ

وكذلك تجده ينحرف إلى ألفاظ الغزل في الرثاء، كرثائه جدته ورثائه أم سيف الدولة، وأكثر من ذلك وضوحاً ما ورد في رثائه لخولة أخت سيف الدولة وتعزيته بها بقوله :

يَعْلَمْنَ حِيْنَ تُحَيِّي حُسْنَ مَبْسَمِهَا وَلَيْسَ يَعْلَمُ إلاَّ اللهُ بالشّنَبِ[٣]

ويقول أيضاً :

وَهَلْ سَمِعْتَ سَلاَماً لِي أَلَمَّ بِهَا فَقَدْ أَطَلْتَ وَمَا سَلَّمْتُ عَنْ كَثَبِ[٤]

إن استخدام المتنبي لألفاظ الحب و الغزل في رثاء أخت سيف الدولة لم يتم قبوله من قبل بعض النقاد، يقول أبو بكر الخوارزمي[٥]: "لو عزاني إنسان عن حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها، و ضربت عنقه على قبرها".

أما الأستاذ محمود شاكر[٦] فإنه يرى أن هذا الشعر يدل على أن المتنبي كان يحب خولة أخت سيف الدولة حب رجل لامرأة، و ذكر الأدلة المختلفة التي استنبطها من شعره التي تقطع بأن هذا الحب له أكبر الأثر في شعره إلى أن مات.

---

(١) ديوان المتنبي ، ج٢ ، ص ٢٤٥.

(٢) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٨٨.

(٣) المصدر السابق، ج١ ، ص١٣٩.

(٤) المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٤١.

(٥) الثعالبي ، يتيمة الدهر مصدر سبق ذكره – ج١ ، ص ١٦٨ .

(٦) انظر محمود محمد شاكر، المتنبي ، القاهرة منشورات مطبعة المدني الدار السعودية بمصر ، ١٩٧٦ ص ٢٣٤ .

لقد حرص النقاد على تعليل هذه الظاهرة، فأبو منصور الثعالبي [١] يرى أنه استكثر من ذلك تبحراً ومهارة في الألفاظ و رفعاً لنفسه عن درجة الشعراء إلى مرتبة ممدوحه، أما الدكتور محمد مندور [٢] فإنه لم يكتف بتعليل الثعالبي ، ومن يقرأ التعليل الذي كتبه الدكتور مندور فإنه لا يسعه إلا أن يقبل بعض ذلك التعليل و يرفض بعضه، **وما يقبل من ذلك التعليل يمكن تلخيصه بما يلي[٣]:**

١- إن المتنبي قد أخلص الود لسيف الدولة، وأن تلك المودة التي دامت تسع سنوات قد انتهت بأن جعلت استخدام لغة الحب في المدح إحدى خصائص الشاعر وقد يتكلف ذلك في مدح غيره لدوافع خفية

٢- إن المتنبي كان رجلاً قوي الانفعال سريع التأثر عنيف الإحساس، ولغة الحب من الناحية النفسية هي منفذ كل شعور حار، ومن ثم جاء مدحه أشبه بالغزل، كما جاء حديثه عن الحرب عشقاً.

أما الذي لا يمكن قبوله في تعليل الدكتور محمد مندور فهو ما ذكره من أن اجتماع السذاجة و الطموح[٤] هي سبب حب المتنبي للرجال الذين رأى فيهم وسائل إلى تحقيق غايته، ونحن لا ننكر أن المتنبي كان رجلاً طموحاً وأنه يحب الرجال الذين رأي فيهم وسائل تحقيق غايته، ولكن لا يمكن أن يكون للسذاجة دور في ذلك فسيرة الشاعر ومواقفه تدل على أنه كان ذكياً فطناً و ليس ساذجاً، وليس معقولاً أن شاعراً يقظاً ملأ الدنيا وشغل الناس تخيل إليه سذاجته أن الغايات المحبوبة قد تحققت أو أصبحت في حكم المتحقق فيسرف لسذاجته في حب هؤلاء الرجال.

نخلص من ذلك إلى أن انحراف أبي الطيب المتنبي في اختيار ألفاظ الحب والغزل وإدخالها في أغراض أخرى غير الحب والغزل قد أصبحت إحدى السمات الأسلوبية لشعر المتنبي ، فهي – بالإضافة إلى انحرافه في اختيار الألفاظ

---

(١) انظر : الثعالبي ، يتيمة الدهر – مصدر سبق ذكره – ج١ ، ص١٩١ .

(٢) انظر : مندور ، محمد : النقد المنهجي عند العرب ، القاهرة منشورات دار النهضة للطبع و النشر ، (د. ت)، ص ٣١٦ .

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٤) المصدر السابق، ص٣١٧.

الغريبة وتفضيلها على غيرها من البدائل المتاحة – بمثابة البصمة الأسلوبية التي امتاز بها أبو الطيب المتنبي عن غيره من الشعراء المعاصرين وهي أيضاً تساعد في كشف حقيقة شخصية المتنبي المختفية خلف قناع اللغة.

ب ـ الانحراف في محور التوزيع:

يأتي الانحراف في التوزيع تالياً للانحراف في الاختيار بعد إسقاط محور الاختيار "العلاقات الاستبدالية" على محور التوزيع "العلاقات الركنية" حيث يتم توزيع الكلمات التي تم اختيارها من رصيده اللغوي توزيعاً يخرج بها عن المألوف فتتوزع الكلمات فيما بينها داخل الجملة، والجمل فيما بينها داخل البيت ويكون لذلك تأثير صوتي ودلالي وتركيبي، ويتصرف أبو الطيب في تشكيل أساليبه فهو لا يخضع لقواعد ثابتة مستقرة و هذه هي نواة أدبية الخطاب في شعره، لذا تجده يتصرف في أدائه الفني، ولا يعبأ أحياناً بنظام ترتيب الكلمات وتوزيعها على النمط المعهود، فيقدم المفعول به على ركني الجملة من غير مسوغ كنفي أو استفهام فيقول(١):

بغَيْرِكَ رَاعِياً عَبِثَ الذِّئابُ وَغَيْرَكَ صَارِماً ثَلَمَ الضِّرَابُ

أو يقدم ما يجب تأخيره في مثل قوله (٢):

مَكَارِمٌ لَكَ فُتَّ العَالَمِيْنَ بِهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ لأَمْرٍ فَائتٍ طَلَبَا

إن أبا الطيب ينفر من استقرار تراكيب الجمل استقراراً تصبح به القوالب متجمدة، إنه يظهر المرونة في توزيع الكلمات والجمل ويبدو للمتلقي وكأن له مطلق الحرية ولا يهمه ذلك مادام يحقق الدلالة المطلوبة، انظر إلى قوله(٣):

أنّى يَكُونُ أبَا البَرَايَا آدَمٌ وأبُوكَ و الثَّقَلانِ أنْتَ مُحَمّدُ

ويمكن إعادة ترتيب الكلمات وإزالة الانحراف الأسلوبي بقولنا: أنى يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد و أنت الثقلان، ومثل ذلك قوله (٤):

جَفَخَتْ فَهُمْ لا يَجْفَخُونِ بِها بِهِم شِيمٌ عَلَى الحَسَبِ الأغَرّ دَلائِلُ

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي – مصدر سبق ذكره – ج١ ، ص٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٤٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٥٨ .

استعمل جفخت بمعنى فخرت، وأخر الفاعل " شيم " وأقحم قوله " لا يجفخون " بين الفعل وفاعله، ومن الانحراف في التوزيع أيضاً قوله [١]:

أمَا وَحَقِّكَ وَهْوَ غَايَةُ مُقْسِمٍ لَلْحَقّ أنْتَ وَمَا سِوَاكَ البَاطِلُ
الطِّيبُ أنْتَ إذَا أصَابَكَ طِيبُهُ وَالمَاءُ أنْتَ إذَا اَغْتَسَلْتَ الغَاسِلُ

أراد: الطيب أنت طيبه إذا أصابك، والماء أنت غاسله إذا اغتسلت، ويكثر في شعره انحراف الفاعل عن موضعه في مثل قوله في سيف الدولة عندما ظفر ببني كلاب[٢]:

فَقَاتَلَ عَنْ حَرِيْمِهِم وفِرّوا نَدَى كَفَّيْكَ وَالنَّسَبُ القُرَابُ

وقوله في مدح أبي على هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب [٣]:

لَمْ تَحْكِ نَائلَكَ السَّحَابُ وَإنِّمَا حُمَّتْ بِهِ فَصَبِيْبُها الرُّحَضَاءُ
لَمْ تَلْقَ هَذَا الوَجْهَ شَمْسُ نَهَارُها إلاّ بِوَجْهٍ لَيْسَ فِيْهِ حَيَاءُ

وعندما أراد الدكتور إبراهيم أنيس[٤] أن يدعم رأيه ويؤكد أن هناك دوافع واعتبارات فرقت بين نظام النثر و الشعر في ترتيب الكلمات قام بجولة في شعر المتنبي وقف بعدها على أنواع من تلك الأساليب التي ينفرد بها الشعر دون النثر.

إن هذا التصرف في توزيع الكلمات يجعلنا نرى أبا الطيب المتنبي يواجه الحياة من خلال اللغة بنفس كبيرة، فتعب و تعبت أيامه و أتعب متلقيه، وتكسرت النصال على النصال لأن مراده لا يحده زمان ولا مكان، لذا نجده يتصرف في أداته الفينة وينحرف عن النمط المعهود بحثاً عن تركيب غير عادي مما يعكس ذاته ونمط تفكيره وأحاسيسه وانفعالاته.

ولعلم النفس اللغوي دور بارز في كشف الانحرافات الأسلوبية وقد عنى بعلم النفس اللغوي عدد من الباحثين يأتي في مقدمتهم الناقد الألسني[٥] توماس ألبرت

---

(١) ديوان المتنبي ، ج٣، ص٢٦١ .

(٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص ص ٣٠ – ٣١ .

(٤) لمزيد من التفصيل : انظر: د . إبراهيم أنيس : من أسرار العربية ، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية ط٧ ، ١٩٩٤ م ، ص ص ٣٤٩ – ٣٥٢.

(٥) لمزيد من التفصيل انظر كتابه (الأسلوب في اللغة):
Styleinlanguage,cambridge,mass.M.T.T.press,196

سابوك (T.A Sebeok) الذي درس كيف تطفوا مقاصد المتكلم ونواياه على سطح الخطاب في شكل إشارات ألسنية تتصهر في اللغة التي يتواضع على أنماطها مجموعة بشرية معينة، كما درس سبل تمكين المتلقي لذلك الخطاب من تأويل تلك الإشارات.وقد طبق الدكتور عبد السلام المسدي ذلك في دراسته[١] لمفاعلات الأبنية اللغوية في شعر المتنبي و توقف عند مظاهر التركيب الثنائي في شعره، ولا يهمنا من دراسته إلا ما له صلة بالتوزيع مما يؤدي إلى تنافي العناصر الجزئية إيجاباً وسلباً كقوله [٢]:

صَارَ الخَصِيُّ إمَامَ الآبِقِيْنَ بِهَا فالحُرُّ مُستَعْبَدٌ وَ العَبْدُ مَعْبُودُ
العَبْدُ لَيْسَ لِحُرّ صَالِحٍ بِأخٍ لَوْ أنَّهُ فِي ثِيَابِ الحُرِّ مَوْلُودُ

وقوله [٣]:

أصَخْرَةٌ أنا؟ مَا لِي لاَ تُغَيِّرُنِي هَذِى المُدَامُ وَلا هَذِي الأَغَارِيْدُ
مَاذا لَقِيْتُ مِنْ الدُّنْيا وأعْجَبُهَا إنْي بِمَا أنا بَاكٍ مِنْهُ مَحْسُودُ

وانتهى الدكتور المسدي في بيان الحقيقة النفسية للمتنبي من خلال تراكيبه إلى أن شخصية المتنبي في شعره هي [٤]: " شخصية صراعية متمزقة، يتجاذبها قطبان متباينان: سلباً و إيجاباً و يتمثل هذا في روابط حياته الخارجية : المتنبي/ سيف الدولة، المتنبي/ كافور، و في الصراعات الذاتية الانطوائية التفاعلية مع الصراع الخارجي مما ولد ثنائياً تقابلياً أنطق الشاعر بصريح التناقضات ومرير الاعترافات، كل ذلك من موقع المتأزم بين مرمى الطموح، والسبيل إليه "ولعل أغلب ما ذكره الدكتور المسدي ينطبق على شعر المتنبي بشكل واضح بعد مغادرة سيف الدولة، حيث الصراعات التي ظهرت آثارها على سطح خطابه الشعري.

ومما يجدر الإشارة إليه إن الانحراف في التوزيع يؤدي أحياناً إلى غموض في شعر المتنبي، فينشغل المتلقي بفك طلاسم الأسلوب، ذلك أن بعض الأساليب

---

(١) انظر . د. عبد السلام المسدي ، مفاعلات الأبنية اللغوية و المقومات الشخصانية في شعر المتنبي ، بيروت مجلة الآداب ، نوفمبر ١٩٧٧م ، ص ص ٤٦- ٥٣ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي – مصدر سبق ذكره – ج٢ ، ص ص ٤٢ – ٤٣ .

(٣) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٤٠ .

(٤) د . عبدالسلام المسدي : مفاعلات الأبنية اللغوية – مصدر سبق ذكره – ص٤١.

الغامضة ليس لها دلالة فنية إذا ليس لكل انحراف أثر جمالي، إن بعض الانحرافات [١]: "ليس في نهاية الأمر سوى أخاديع أسلوبية دون أي دور شعري" انظر إلى قوله[٢]

وَفاؤكُمَا كَالرّبْعِ أشْجَاهُ طَاسِمُه بأنْ تَسْعُدا والدّمعُ أشْفَاهُ سَاجِمُه

لقد عابه عدد من النقاد العرب، ونورد هنا على سبيل المثال ما قاله القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني[٣]: "كيف يحتمل له اللفظ المعقد و الترتيب المتعسف لغير معنى بديع يفي شرفه و غرابته بالتعب في استخراجه... ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة والتعقيد المفرط، فيشك أن وراءها كنزاً من الحكمة، وأن في طيها الغنيمة الباردة، حتى إذا فتشها و كشف من سترها، وسهر ليالي متوالية فيها حصل على أن: وفاؤكما يا عاذلي بأن تسعداني إذا درس شجاي... ".

على أن البيت ليس بهذه الدرجة من سوء الأسلوب المؤدي للغموض بل إن فيه شيئاً من الجمال، فهو يقول: وفاؤكما بأن تسعدا، كالربع أشجاه طاسمه ، والدمع أشجاه ساجمه.وإذا لم ينحرف أبو الطيب في التصرف في التوزيع عن الحد المقبول فإن المتلقي ينصرف مباشرة إلى تذوق جمال الصور في النص انظر إلى قوله: [٤]

لِيَالِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ طِوَالٌ وَلَيْلُ العَاشِقِينَ طَوِيلُ

يُبِنَّ لِيَ البَدْرَ الذِي لا أُرِيدُهُ وَيُخْفِينَا بَدْراً مَا إلَيْهِ سَبِيلُ

---

(١) بول فاير، وكرستيان بايلون : مدخل إلى الألسنة ، ترجمة طلال وهبة ، المركز الثقافي ط١ ، ١٩٩٢م ، ص٢٢٤.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي – مصدر سبق ذكره – ج٣ – ص ٣٢٥ .

(٣) القاضي على الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي و خصومه – مصدر سبق ذكره – ص ٩٨ .

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي – مصدر سبق ذكره – ج٣ – ص ٩٥ .

(٥) لمزيد من التفصيل انظر : رينيه ويلك – أوستن وارين : نظرية الأدب ، ترجمة محي الدين صبحي ، مراجعة د . حسام الخطيب ، منشورات المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، ط ١ ، ١٩٨٧م ، ص ص ٨٨– ٨٩ ، وكذلك جان ماري جويو : مسائل فلسفة الفن المعاصر ، ترجمة وتقديم د. سامي الدروبي دمشق ،ط٢ ، ١٩٦٥م ، ص ص ١٣٣– ١٣٨ ، وكذلك كتاب : د. عبد السلام المسدي ، الأسلوبية والأسلوب – مصدر سبق ذكره – ص ٧٥ .

وَمَا عِشْتُ مِن بَعدِ الأحبَةِ سَلْــوَةً وَلكِنّــنِي لِلنــَّائِبَاتِ حَمُــــــوْلُ

وَإنَّ رحيْلاً واحِداً حَالَ بَيْنَنَــــــا وَفِي المَوْتِ مِنْ بَعْدِ الرّحِيلِ رَحِيلُ

تجد النقاد يقفون أمام هذه الصور: محاولين استكناه الأبيات ومعرفة حقيقة البدر الذي تخفيه الليالي عن أبى الطيب المتنبي، وهو يهواه و يطمح إليه ولكن لا سبيل إلى تحقيقه، فما حقيقة هذا البدر؟ أهو الأعرابية المحبوبة التي ظعنت مع الظاعنين؟ أم أنه رمز لآماله و طموحاته التي لم يبلغها؟..

وفي ختام الحديث عن الانحراف في الاختيار والتوزيع في شعر أبي الطيب المتنبي يطرأ التساؤل التالي: **ما مدى الاعتداد بالإلهام والعبقرية في الظاهرة الإبداعية؟ وهل خصائص الأسلوب هي التي تبرز براعة الأديب؟**

إن التصرف في الأسلوب عملية واعية تقوم على اختيار أدوات اللغة وتوزيعها واستغلال طاقاتها عن وعي وإدراك، فهل في هذا نقض لمبدأ العبقرية والإلهام "التولد الذاتي" في النتاج الإبداعي؟ وهو المبدأ الذي يرى أن هناك قوة تلهم الشاعر، وتمكنه من الإبداع كما يمكن المغناطيس قطع الحديد المتصلة به من قدرة الجذب، وتجعل الشاعر الملهم لا يملك وعيه وهو يبدع قصائده، ويبدو أن هناك خيطاً رفيعاً ينظم العلاقة بين الوعي و اللاوعي.

٤ـ الانحراف باستغلال الطاقة التعبيرية للالتفات

يميل أبو الطيب إلى الانتقال من أسلوب في الخطاب إلى أسلوب آخر مخالف للأول، لذا نجده يستعين بالطاقة التعبيرية للالتفات في تلوين أساليبه الشعرية، ومعروف أن " الالتفات " ظاهرة أسلوبية تعتمد على الخروج على النمط المثالي في الأداء والانتقال بالأسلوب من صيغة إلى أخرى من صيغ الخطاب أو التكلم أو الغيبية، أو الانتقال من مخاطبة الجمع إلى مخاطبة المفرد أو المثنى وغير ذلك من صور الالتفات المتنوعة، وللالتفات قيم جمالية وفنية إذ إنه يفاجئ المتلقي بغير ما يتوقع وفي ذلك إيقاظ للمتلقي وإبعاد له عما قد يصيبه من ملل، فهو يتيح للأديب التنويع بين الصيغ التركيبية المختلفة والتمييز بين ما لها من خواص ويبدو أن

هذه الخواص التركيبية هي التي جعلت أبا يعقوب يوسف السكاكي [١] يدرج الالتفات ضمن موضوعات علم المعاني بدلاً من علم البديع.

ولا يهمنا هنا من التفاتات المتنبي إلا ما كان منها مثار نقاش لدى النقاد والمتذوقين ويأتي في مقدمتها ما قاله في رثاء جدته لأمه [٢]:

وَإنِي لمَنْ قَوْمٍ كَأنَّ نُفُوسَنَا بِهَا أَنَفٌ أنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالعَظْمَا
كَذَا أنَا يَا دُنْيَا إذا شِئْتُ فأذْهَبِي وَيَا نَفْس زِيْدِي فِي كَرائهَا قُدْمَا
فَلا عَبَرَتْ بِي سَاعَةٌ لا تُعِزَني وَلا صَحِبَتْنِي مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظَّلْمَا

في مطلع الأبيات انحرف عن صيغة الغيبة إلى صيغة التكلم، فقال: إني لمن قوم كان نفوسنا، ولم يقل: كأن نفوسهم لإلصاق الصفات الحميدة بالمتكلم وقومه فهو يرى نفسه أهم القوم الذين عناهم، وهو في حالة فخر وهذه الخصال التي ذكرها هي خصال قومه، وهذا ما جعله ينحرف عن ضمير الغيبة ويستخدم ضمير المتكلم، مما جعل المتلقي يشعر بجمال الأداء في هذه الأبيات.

إن موقف بعض النقاد القدامى من التفاتات المتنبي مثار عجب ودهشة، وبخاصة القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي ذكر أراء الذين عابوا التفاتات المتنبي وعدوها من شنيع ما وجد في شعره، ثم ذكر ردود الذين دافعوا عنه وبينوا أن ذلك من أساليب العرب في كلامها واستعرضوا ما ورد من ذلك في كتاب الله العزيز وأشعار العرب ويعرض الجرجاني عدداً من النماذج ثم يفاجئنا بقوله [٣]: " وأبيات أبي الطيب تعتبر عندي غير مستكرهة في قسم الجواز، وقد بلغ هذا المحتج منه مبلغاً غير أن أبا الطيب عندي غير معذور بتركه الأمر القوي الصحيح إلى الشكل الضعيف الواهي لغير ضرورة داعية ولا لحاجة ماسة، إذ موقع اللفظيين من الوزن واحد، لو قال: نفوسهم، لأزال الشبه ودفع القالة... " ويقول أيضاً [٤]: " إن هذه القضية إذا استمرت على ظاهرها، واقتصر على القدر

---

(١) السكاكي ، مفتاح العلوم ، ضبطه و علق عليه نعيم زرزور ،منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط٢ ، ١٩٨٧م، ص ١٩٩ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي – مصدر سبق ذكره – ج ٤ – ص ١٠٩ .

(٣) القاضي علي الجرجاني ، : الوساطة – مصدر سبق ذكره – ص ٤٤٩ .

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة .

المذكور منها اختلطت الكنايات وتداخلت الضمائر ولم ينفصل غائب عن حاضر، ولم يتميز مخاطب..."

لقد أجاز القاضي الجرجاني للمتنبي هذا النوع من الالتفاتات لكنه يفضل الأصول النحوية على الجوانب الجمالية، يريد منه أن يتبع الأصول النحوية في الضمائر مادام الشاعر غير مضطر، بالإضافة إلى أن اتباع الأصول لا يخل بالوزن وهذا ما أثار بعض نقاد عصرنا الحديث الذين يرون أن المتنبي شاعر كبير له طبعه وروحه، وهو حريص على أن يؤدي ما في نفسه، وأعرف بمصادر الجمال من ناقده، يقول الدكتور محمد مندور [1]: " آثر الشاعر: وإني لمن قوم كأن نفوسنا، وكان لهذا الإيثار دلالته النفسية، لنا نحن نقاد اليوم، فهو يشعر بامتلاء الشاعر بنفسه وإيثاره للضمير (نا) ضمير المتكلم الذي يستحضر قائله، الشاعر يفتخر، وهل أبلغ في هذا من الضمير (أنا) و (نحن) و (نا) يشدون أزره، فزاد إحساسه بشرف الانتماء إليهم، فلم يجد للتعبير عن هذا الإحساس خيراً من أن يجمع بينهم وبين نفسه في الضمير (نا). ".

ومن الانحرافات الأسلوبية التي اتخذت من الالتفات قالباً لها وعابها خصوم الشاعر وأجازها له القاضي الجرجاني ولم يعذره في استعمالها ما جاء في البيت الأول من مدحه لسيف الدولة:

كَرِيْمٌ مَتَى اسْتُوهِبْتَ مَا أَنْتَ رَاكِبٌ وَقَدْ لقَحَتْ حَرْبٌ فَإِنَّكَ بَاذِلُ
إِذَا الجُود أعْطِ النَّاس مَا أَنْتَ مَالكٌ وَلا تُعْطِيَنَّ النَّاس مَا أنا قائلُ[2]
أفي كُلّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ ضَعِيْفٌ يُقاوِيْنِي قَصِيْرٌ يُطاوِلُ
لِسَانِي بنُطْقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ وَقَلْبي بصَمْتِيَ ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ[3]

---

(١) د. محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب – مصدر سبق ذكره – ص ص ٢٧٠-٢٧١ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي – مصدر سبق ذكره – ج٣ – ص ص ١١٦ – ١١٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج٤ ، ص ص ١٣ – ١٤ .

(٤) د. محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب – مصدر سبق ذكره ص ٢٦٩ .

(٥) ديوان أبي الطيب – مصدر سبق ذكره – ج٢ – ص ص ١٦٨ – ١٦٩ .

(٦) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ١٣٠.

(٧) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٤١٧.

ومثل ذلك ما ورد في البيت الثالث من قوله:

يَا سَيْفَ دَوْلَةِ هَاشِمِ مَنْ رَامَ أَنْ يَلْقَى مَنَالَكَ رَامَ غَيْـرَ مَـــرَامِ..
فَلَقَدْ رَمَى بَلَـــدَ العَدُوِّ بِنَفْسِـــهِ فِي رَوْقِ أَرْعَنَ كالغِطَـــمِّ لُهَـامِ[1]
قَـــــوْمٌ تَفَرَّسَتْ المَنَايَا فِيكُمُ فَرأَتْ لكمْ فِي الحَرْبِ صَبْرَكرَامِ
تَاللهِ مَا عَلِـــمَ أَمْرُؤٌ لَـــوْ لاكُـــمُ كَيْفَ السَّخَاءُ وكَيْفَ ضَرْبُ الهَامِ[2]

انتقل في البيت الثالث من صيغة الغيبة إلى صيغة الخطـــاب فقـــال: فـــيكم، وقال: فرأت لكم، ولم يقل تفرست المنايا فيهم فرأت لهم، لاستحسان أفعال الممدوح وقومه وإظهار الرغبة في النظر إليه ومخاطبته وجلب المسرة إليه.

وقد قال الدكتور مندور بعد أن استعرض عدداً من الالتفاتات التـــي عابهـــا خصوم المتنبي: "فهذه كلها أمثلة لما يسمونه اليوم في علم الأساليب بكسر البناء Rupture de syntaxe وهو عبارة عن الخروج على قواعد اللغة التماساً لجمال الأداء وروعته، وإنما يباح هذا لكبار الكتاب، بل يحمدون من أجله، وهم لا يأتونه عن جهل بالقواعد أو غفلة في العبارة وإنما يقصدون إليه لأغراض لا حصر لها، وإن استطعنا أن نحسها في كل حالة بذاتها ".

وأساليب الالتفات التي أثارت المتلقين وخاصة النقاد لم تقتصر على صـــيغ الخطاب و التكلم و الغيبة بل هناك صور أخرى كالانتقال من خطاب الجمع إلـــى خطاب الاثنين، انظر إلى قوله.

أرأيْـــتَ همَّـــةَ ناقَـــتِي في نَاقَةٍ نَقَلَت يَداً سُرُحاً وَخُفّاً مُجْمَرَاَ
تَرَكَتْ دُخَانَ الرَّمْثِ فِي أَوْطَانِهَا طَلَـــباً لِقَوْمٍ يُوْقِدُوْنَ العَنْبَرَاَ[3]
وَتَكَرَّمَتْ رُكَبَـــاتها عَنْ مَبْرَكٍ تَقَعَانِ فِيْهِ وَلَيْسَ مِسْكا أَذْفَرَاَ
فَأَتَتْكَ دَامِيـــةَ الأَظَلّ كَـــأنمَّا حُذِيَتْ قَوَائمُها العَقِيْقَ الأَحْمَرَاَ[4]

(١) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٣١٨.
(٢) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٣١٩.
(٣) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٤١٧.
(٤) ديوان المتنبي ، ج ٤، ص ٤١٨.

انتقل في البيت الثالث من الجمع إلى التثنية فقال قال: وتكرمت ركباتها، ثم قال: تقعان فيه، وذلك أن أقل الجمع اثنان فجاز أن يعبر عن الاثنين بالجمع، ولم يعجب ذلك أبا منصور الثعالبي ولذا قال [1]: "جمع الركبات ثم انتقل إلى التثنية فقال تقعان، وهو ضعيف وغير سديد في صناعة الإعراب ".

ومثل ذلك قوله في بداية القصيدة التي مدح بها القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله **الأنطاكي** [2]:

لَكِ يَا مَنَازِلُ في القُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

يَعْلَمْنَ ذَاكَ وَمَا عَلِمْتِ وَإِنَّمَا أَوْلا كُمَا يَبْكِي عَلَيْهِ العَاقِلُ

يخاطب الشاعر المنازل الخالية و يخبرها أن لها منازل في القلب عامرة مأهولة ويقول لها: إن تلك المنازل التي في القلب تعلم بحالك وحالها، ولكن الشاعر كسر التتابع النحوي عن طريق الالتفات فقال: يعلمن ذاك ولم يقل: يعلمن تلك أي تلك الحال أو تلك المنزلة أو المنازل، وقد استوقف هذان البيتان الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف عند حديثه عن الجملة في الشعر العربي، فبعد أن بين أن الشاعر أراد أن يصدم المألوف من أول القصيدة قال [3]: "ويتضح في قوله: وهن منك أواهل، إذ أعاد ضمير جمع المؤنث (هن) إلى القلوب، وأكد هذا الاستعمال في البيت الثاني وجعل اسم الإشارة "ذاك" –وهو للمفرد المذكر، وقد اتصل بحرف الخطاب للمفرد المذكر كذلك – إشارة إلى المنازل التي في القلوب وأقفار هذه المنازل المخاطبة مع أن القلوب أواهل بها...".

إن مهارة أبي الطيب الفنية مكنته من استغلال الانحرافات الأسلوبية الناجمة عن الالتفات استغلالاً تاماً وتطويع ذلك للمواءمة بين صراعاته النفسية المحتدمة وأدواته اللغوية.

---

(١) الثعالبي ، : يتيمة الدهر – مصدر سبق ذكره – ج١ ، ص ١٥٥ .

(٢) ديوان أبي الطيب – مصدر سبق ذكره – ج٣ ، ص ص ٢٤٩ –٢٥٠

(٣) د. محمد حماسة عبد اللطيف ، الجملة في الشعر العربي ، القاهرة مكتبة الخانجي ط١ ، ١٩٩٠م ، ص٥٦.

٥ ـ أثر الانحراف في الإيقاع الموسيقي:

لا يحدث الانحراف الأسلوبي في شعر أبي الطيب المتنبي اعتباطاً وإنما يحدث لغاية معينة، فكما يحدث لغايات دلالية فإنه يحدث أيضاً لغايات صوتية إيقاعية، إنه يتصرف في تركيب الجملة من أجل ملاءمة الوزن و متطلبات القافية، ولا بد أن يتوافق عنصرا القصيدة الإيقاعي و التركيبي من أجل نجاحها، و الوزن مؤثر كبير في تركيب الجملة ولا بد للغة الشعر أن تستجيب له، يقول "جون كوهن" J.cohen [١]: " إذا وجد صراع بين البحر و التركيب فإن البحر دائماً هو الذي ينتصر، وينبغي أن تخضع الجملة لمتطلباته " و المتنبي لا يسير على نمط واحد من الانحرافات الأسلوبية المتعلقة بالإيقاع، فأحياناً ينحرف بالتركيب من أجل الإيقاع، وأحياناً ينحرف بالوزن لملاءمة الصراعات النفسية المحتدمة.

ومن مظاهر مساهمة انحراف المستوى التركيبي في الإيقاع إنه حين ينحرف في تركيب شطر بيت بالتقديم و التأخير يلتزم نفس التركيب في الشطر الثاني بحيث يحدث تقابل في تركيب شطري البيت مما يؤدي إلى خلق نغمة موسيقية متميزة تقوم على التماثل التركيبي التام بين صدر البيت و عجزه، انظر إلى قوله [٢]:

وَلَكَ الزَّمَانُ مِنَ الزَّمَانِ وِقَايَةٌ وَلَك الحِمَامُ مِنَ الحِمَامِ فِدَاءُ

ويبدو التقابل في تركيب الشطرين على النحو الآتي:

الواو / الواو، لك / لك، الزمان / الحمام، من / من، الزمان/ الحمام، وقاية / فداء.

وقد يأتي الانحراف الأسلوبي من أجل القافية فيرتب أجزاء الجملة بطريقة خاصة، ولو خالف ذلك الأصول العامة لتركيب الجملة، فيقدم بعض أجزاء الجملة ويؤخر بعضها حتى تستقر لفظة القافية في موضعها المناسب، انظر إلى قوله [٣]:

---

(١) جون كوهن ، بناء لغة الشعر ، ترجمة د . أحمد درويش ، القاهرة ط١ ، ١٩٨٤ م ، ص ٧٣ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي – مصدر سبق ذكره – ج١ ، ص ٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٥٨ .

حَمَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ لِسَانِي حَدِيْقَةً سَقَاهَا الحِجَا سَقْيَ الرِّيَاضِ السَّحَائبِ

فقدم وأخر، وفصل بين المضاف و المضاف إليه بكلمة الرياض حتى تستقر القافية في موضعها المناسب، ومثل ذلك ما جاء في البيت الأول و الثالث من قوله[١]:

أَفْسَدَتْ بَيْنَنَا الأَمَانَاتِ عَيْنَاهَا وَخَانَتْ قُلُوبَهُنَّ العُقُولُ

تَشْتَكِي مَا شْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمَ الشّوْقِ إِلَيْهَا وَالشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ

وَإِذا خَامَرَ الهَوَى قَلْبَ صَبٍّ فَعَلَيْهِ لِكُلّ عَيْنَ دَلِيْلُ

لقد انحرف في تركيب الجمل داخل الأبيات فقدم وأخر حتى تكون الكلمة المنتهية باللام المضمومة في أخر البيت، فتستقر القافية في الموضع المقدر لها،[٢] "وذلك لأن للكلمة الأخيرة في البيت الشعري سيطرة علي هيكله التركيبي "،بل على الهيكل التركيبي للقصيدة بأكملها.

ومن مظاهر الانحرافات الملفتة للنظر في شعره إنه يعطي الكلمة في نهاية الشطر الأول أحياناً حكم الموقوف عليه، ويجرد الحرف الأخير من الحركة، على الرغم من وقوعها في وصل الكلام، أي إنه يجري الوصل مجرى الوقف و يبدو ذلك في أبياته المصرعة في داخل القصيدة، إذ لا بد من الوقف فيها على آخر الشطر الأول، وأن تعامل في النطق معامل نهاية البيت " الضرب " انظر إلى قوله[٣]:

مُبَارَكُ الاسْمِ أَغَرُّ اللّقَبْ كَرِيمُ الجرِشَّى شَرِيْفُ النَّسَبْ

لقد أجرى الوصل مجرى الوقف، فجعل حرف الباء من كلمة "اللقب "ساكناً، والقصيدة من المتقارب،ولو حرك حرف الباء لاختل الوزن، ومثل ذلك قوله [٤]:

يَا طَفْلَةَ الكَفّ عَبْلَةَ السَّاعِدْ عَلَى البَعِيْرِ المُقَلَّدِ الوَاخِدْ

---

(١) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ص ١٤٨ – ١٤٩ .

(٢) توفيق الزيدي ، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٤م ، ص ٦٥ .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي – مصدر سبق ذكره ، ج١ ، ص ٩٩ .

(٤) المصدر السابق ، ج٢ ، ٧١ .

وقوله أيضاً [1]:

حَكَيْتَ يَا لَيْلُ فَرْعَهَا الوَارِدْ فَاحْكِ نَوَاهَا لِجِفْنِيَ السَّاهِدْ

هذان البيتان المصرعان من قصيدة على بحر المنسرح و عروضها " مفتعلن " ويجب الوقوف على آخر الشطر الأول من كل واحد منهما وإلا اختل وزن البيت، فالدال من كلمة " الساعد " يجب أن تنطق ساكنة و تعامل معاملة الموقوف عليه، لأنها إذا حركت مراعاة لقواعد النحو انكسر البيت، ومثل ذلك الدال من كلمة " الوارد " يجب نطقها مسكنة، وبهذا يتبين أنه يقف على الشطر بما يقتضيه صحة الوزن، ولو أدى إلى انحراف الكلمة عن نظام الوقف المعروف

ويرد في شعره من الانحراف أحياناً ما هو أكثر إدهاشاً، وذلك حينما يعامل الوصل معاملة الوقف في حشو البيت كقوله [2]:

وَأحرَّ قَلْبَاهُ ممَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ

فألحق الهاء في قوله " قلباه "، لقد جلب هاء السكت و أثبتها في الوصل كما تثبت في الوقف، وتلحق هاء السكت في الوقف لخفاء الألف، فتبين بها الألف، فإذا وصلت الكلمة حذفت الهاء،ولكن المتنبي انحرف عن الأصل فأجرى الوصل مجرى الوقف وأثبت الهاء.

ومن الانحرافات التي أثرت على الإيقاع خروجه في بعض الأحيان على الوزن إلى أصل البحر في الدائرة العروضية انظر إلى قوله [3]:

تَفَكُّرُهُ عِلَمٌ و مَنْطِقُهُ حُكْمٌ وَبَاطِنُهُ دِيْنٌ، وَظَاهِرُهُ ظَرْفُ

البيت من الطويل وجاء الشاعر بعروضه على " مفاعيلن " و عروض الطويل تأتي دائماً مقبوضة على وزن " مفاعلن " إلا إذا صرع البيت فإن العروض تتبع الضرب فتجئ على مفاعيلن، و ليس هذا البيت مصرعاً و الشاعر هنا أنحرف إلى أصل البحر في الدائرة العروضية، هذا الانحراف يدل على أن

---

(١) ديوان المتنبي، ج٢ ، ص ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣٦٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٨٧ .

المتنبي لم يكتف باختيار وزن البحر الطويل الذي يشتمل على إيقاعات تصلح للتعبير عن حالات الصراع النفسي، بل انحرف به عن وضعه الطبيعي.

وينحرف أيضاً عن الوزن إلى أصل الدائرة العروضية حين ينظم بعض قصائده على وزن لا يصلح للتعبير عن الصراعات النفسية كقوله في مدح بدر بن عمار[1]:

إنَّما بَدْرُ بْنُ عَمَّارٍ سَحَابٌ هَطِلٌ فِيْهِ ثَوَابُ وَ عِقَابُ
إنَّما بَدْرٌ رزَايَا وَعَطَايَا وَمَنَايَا وَطِعَانٌ وَضِرَابُ
مَا بِهِ قَتْلُ أَعَادِيْهِ وَلَكِنْ يتَّقِي إخْلافَ مَا تَرْجُوه الذِّئَابُ
فَلَهُ هَيْبَةَ مَنْ لاَ يَتَرجّي وَلَهُ جُودُ مُرَجّى لا يُهابُ

القصيدة من بحر الرمل، وتأتي محذوفة السبب فيصبح وزنها " فاعلن " وهذا البحر يصلح للنفوس الهادئة المستقرة، وهو لا يتفق مع عالم المتنبي الداخلي، لذا انحرف بالعروض في أبيات القصيدة وجاء بها على " فاعلاتن " ولا تأتي في الأصل على " فاعلاتن " إلا إذا كانت الأبيات مصرعه كالبيت الأول، وقد عمد الشاعر إلى ذلك في جميع أبيات القصيدة من غير تصريع، وهذا يعني أنه انحرف عن الوزن إلى أصل البحر في الدائرة العروضية وهو فاعلاتن.

ولاشك في أن المتنبي كان يستطيع تعديل الوزن، وليس شيء أبسط على الشاعر من تعديل الوزن، ولكن يبدو أن المتنبي كان يعمد إلى ذلك عمداً لأسباب تعود إلى طبيعته وشخصيته.

ومما سبق يري الباحث انه يمكن استخلاص أبرز النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة فيما يلي:

-إن أبا الطيب المتنبي ينزع إلى تشكيل اللغة حسبما تقتضيه حاجته لتقديم رؤاه وأحاسيسه بالطريقة التي يراها أكثر تأثيرا من غيرها، ولو أدى ذلك إلى الإخلال ببنية الكلمة أو نظام الجملة، مما ولد لدى المتلقي إحساساً بالدهشة والمفاجأة، لقد تمكنت منه روح المغامرة والرغبة في التحدي فتصرف في أداته الشعرية تصرف المالك المستبد، وذلك بعد أن وجد منفذا صغيرا في النظام اللغوي

(١) ديوان المتنبي ، ج١ ، ص ص ١٣٣ – ١٣٤ .

يتمثل في خلافات النحاة إذ إنه اتكأ على المذهب الكوفي في الوقت الذي كان فيه معاصروه قد هجروا هذا المذهب، كما أنه أكثر من الأساليب النحوية الشاذة مما جعله موضع نقد من قبل كثير من النقاد، والحقيقة أن ذلك ليس دليلا على ضعف لغة أبي الطيب وعجزه عن الأخذ بناصية اللغة بل إنه يريد أن يعبر عن شئ في نفسه لا تؤديه اللغة العادية فتصرف في أداته اللغوية بوعي، لقد كانت أساليبه الشعرية مرآة لنفسه.

-إن أبا الطيب ينحرف عندما يختار من الألفاظ المستقرة في رصيده المعجمي انحرافا يسبب للمتلقي هزة غير متوقعة، وينحرف في توزيع الكلمات وترتيب أجزاء الجملة لغايات فنية وجمالية، ويختلف في ذلك عن المعاصرين له بشكل كبير، لما يتسم به من سمات ثقافية وفكرية وانفعالية،ويبدو لمن يتتبع سيرته وطموحاته أن هناك تمازجاً بين أسلوبه وشخصيته.

-إن أبا الطيب يأخذ في حسبانه من يكون موجودا في مجلس الممدوح من العلماء والأدباء مما يضطره إلى الانحراف نحو ألفاظ وأساليب معينة، فهو لايكتف بما يثير الممدوح لأن صورة المتلقي تتراءى أمامه فالمتلقي لشعر المتنبي هو الغائب الحاضر، لقد أصبح ميله للأساليب والألفاظ الغريبة وتفضيلها على غيرها من البدائل المتاحة إحدى السمات الأسلوبية لشعر المتنبي فهي بمثابة البصمة الأسلوبية التي تساعد في كشف شخصيته المختفية خلف قناع اللغة.

-إن أبا الطيب المتنبي يتصرف في توزيع الكلمات وصياغتها بشكل يجعل المتلقي يري المتنبي وهو يواجه الحياة من خلال اللغة بنفس كبيرة فتعب وتعبت أيامه وأتعب متلقيه لذا تصرف في أداته الفنية وانحرف بها عن النمط المعهود بحثا عن تركيب غير عادي يعكس ذاته ونمط تفكيره وأحاسيسه وانفعالاته ويعكس مقاصده على سطح خطابه الشعري.

-إن أبا الطيب استغل الطاقة التعبيرية للالتفات بصفته ظاهرة أسلوبية تعتمد على الخروج على النمط المثالي للأداء، وإن عددا من النقاد القدامى عابوا التفاتاته بخلاف أغلب نقاد العصر الحديث الذين يرون فيها جانبا من جمال الأداء وروعته.

-إن أبا الطيب ينحرف في أسلوبه أحيانا من أجل غايات صوتيه وإيقاعيـــة، إنه يتصرف في تركيب الجملة من أجل ملاءمة الوزن ومتطلبات القافية، إذ إنـــه لابد أن يتوافق عنصرا القصيدة الإيقاعي والتركيبـــي من أجـــل نجاحهـــا، فيقـــدم ويؤخر حتى تستقر القافية في الموضع المقرر لها، وأحيانا يعطي الكلمة في نهاية الشطر الأول حكم الموقوف عليه، على الرغم من وقوعها في وصل الكلام أي إنه يعمد إلى إجراء الوصل مجري الوقف،كما أنه يخرج أحيانا عن الوزن إلى أصـــل البحر في الدائرة العروضية.

-وعلى ضوء ما سلف يمكن القول إن الانحرافات الأسلوبية في شعر المتنبي إحدى الأسباب الأساسية التي جعلت النقاد يعنون بشعر أبي الطيب المتنبي علـــى مر العصور لأن ما يهم الناقد في النص الشعري لا يتوقف على ما يقوله الـــنص وإنما بتجاوز ذلك إلى الطريقة التي يقال بها ذلك النص، إن الناقـــد يبحـــث عـــن الشكل وأنماط الصيغ.

نماذج شعر المتنبي واراء خصومه فيها:

أتوك يجرون الحديد كأنهم *** سروا بجياد ما لهن قوائم[١]

يقول: أتوا مدججين بالسلاح، ولكثرة الحديد عليهم وعلى خيولهم كانت لخيولهم كأنها لا قوائم لها، أي لا ترى لأنها محجبة بالتجافيف التي على الخيول.

وقوله :

وقفت وما في الموت شك لواقف *** كأنك في جفن الردى وهو نائم[٢]

يقول : وقفت في ساحة القتال حين لا يشك واقف في الموت ، لشدة الموقف وكثرة المصارع فيه حتى كأنك في جفن الردى وهو نائم فلم يبصرك وغفل عنك بالنوم فسلمت.

وقوله :

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة *** ووجهك وضاح وثغرك باسم[٣]

يقول: أي تمر بك الجرحى من الأبطال منهزمين وكلمى مستسلمين ، وذلك لا يثني عزمك ولا يضعف نفسك ، بل كنت حينئذ وضاحاً غير متخوف، وبساما غير متضجر ، واثقاً من الله بنصره، متيقناً بما وصلك به من جميل صنعه.

وقوله :

ضممت جناحيهم على القلب ضمة *** تموت الخوافي تحتها والقوادم[٤]

يقول: لففت جناحي العسكر، عسكر الروم : على القلب فأهلكت الجميع، وقوله : تموت الخوافي تحتها أي تموت تحت مثل هذه الضمة ولذلك عبر بالمضارع.

وقوله :

بضرب أتى الهامات والنصر غائب *** وصار الى اللبات والنصر قادم[٥]

---

(١) ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٠٠.

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٠١.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٠٢.

(٤) نفس المصدر، ج ٢ ، ص ٣٠٢.

(٥) نفس المصدر، ج ، ص ٣٠٣.

يقول: لم يكن إلا حملة بالسيوف وقعت على هاماتهم والجيشان لا يتحقق النصر لأحدهما، فما بلغت من الهامات إلى اللبات حتى انهزموا فكان النصر لك.

وقوله:

ودانت له الدنيا فأصبح جالسا *** وأيامه فيما يريد قيام[١]

يقول: هل أطاعت الدنيا أحداً كما أطاعته وخضعت له ، وأصبح جالساً لا يسعى في تحصيل مراد وقامت الأيام تسعى في تحصيل ما يريد.

وقوله :

وكل أناس يتبعون إمامهم *** وأنت لأهل المكرمات إمام[٢]

يقول: أن الكرام يقتدون به لأنه إمام

وقوله:

ورب جواب عن كتاب بعثته *** وعنوانه للناظرين قتام[٣]

يقول: رب جيش أقمته مقام جواب كتاب كتب به إليك ، فصار غباره يدل عليه كما يدل العنوان على الكتاب هذا وعنوان الكتاب من يعرف به سمي كذلك لأنه يعن الكتاب من ناحيتيه – أي يعرض – وأصله عنان – كرمان – وكل ما استدللت بشيء يظهر على غيره فهو عنوان له.

وقوله :

تضيق به البيداء من قبل نشره *** وما فض بالبيداء عنه ختام[٤]

يقول: تضيق البيداء بهذا الجواب ولم ينشر ولم يفض عنه الختم، يعني أنه جيش كبير تضيق به الأرض الواسعة قبل انتشاره ،فكيف إذا انتشر وتفرق للحرب والغارة، وقد استعاد الفض والختم وهما للكتاب والجواب لما جعل الجيش كتاباً وجواباً وهو تخيل بديع رائع.

وقوله :

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي

(٢) ديوان المتنبي، وصفه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٠٦.

(٣) المصدر نفسه ، ج ٢، ص ٣٠٨.

(٤) المصدر نفسه ، ج ٢، ص ٣٠.

وربوا لك الأولاد حتى أصبتها*** وقد كعبت بنت وشب غلم[١]

يقول: لما هربوا منك وجلوا من منازلهم ربوا أولادهم لتسبيهم ، وقد صارت البنت كاعباً والابن شاباً أي صاروا يصلحان للسبي.

وقوله:

جرى معك الجارون حتى إذا انتهوا*** الى الغاية القصوى جريت وقاموا[٢]

يقول: جارك الملوك فيما نهجته من المكارم حتى إذا انتهوا إلى أقصى غاياتهم ووقعوا من الكلال متخلفين عنك جريت وحدك فسبقت غاياتهم وأصل هذا في الحيل تجارى ، فإذا ونى بعضها سبقه الذي لم يلحقه الكلال.

وقوله:

للنفس أخلاق تدل على الفتى*** أكان سخاء ما أتى أم تساخيا[٣]

يقول: إن أخلاق الإنسان تدل عليه فيعرف جوده أطبع هو أم تطبع.

وقوله :

خلقت ألوفا لو رحلت الى الصبا*** لفارقت شيبي موجع القلب باكيا[٤]

يقول: لو فارقت شيبي إلى الصبا لبكت عليه لإلفي إياه إذا خلقت ألوفاً.

وقوله :

فإن دموع العين غدر بربها*** إذا كن إثر الغادرين جواريا[٥]

يقول: إذا جرت الدموع على فراق الغادرين كانت غادره بربها – أي صاحبها – لأنه ليس من حق الغادر أن يبكي على فراقه فإذا جرت الدموع في إثره وفاء له كان ذلك الوفاء غدراً يصاحب الدموع ، يريد لا ينبغي أن تفي لغادر.

وقوله :

وجردا مددنا بين آذانها القنا*** فبتن خفافا يتبعن العواليا[٦]

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٣٠٩.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٣١٠.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٠٣.

(٤) نفس المصدر، ج ٢ ، ص ٥٠٣.

(٥) نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٠٢.

(٦) نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٠٣.

يقول: وأزردته خيلاً مددنا رماحنا بين أذانها فباتت تتبع حوالي الرماح في سيرها.

وقوله :

تماشى بأيد كلما وافت الصفا*** نقشن به صدر البزاة حوافيا[١]

يقول: إن هذه الجرد تمشي بأيد إذا وطئت أثرت فيها مثل صدر البزاة،وجعلها حوافي مبالغة في وصف حوافرها بالشدة والصلابة ، يعني أنها بلا نعال تؤثر في الصخور بحوافرها.

وقوله :

وتنظر من سود صوادق في الدجى*** يرين بعيدات الشخوص كما هيا[٢]

يقول : أنها ترى الأشباح البعيدة عنها كما هي – لصدق نظرها – في ظلمة الليل، والخيل توصف بحدة النظر ولذلك قالوا : أبصر من فرس في غلس.

ويقول :

وتنصب للجرس الخفي سوامعا*** يخلن مناجاة الضمير تناديا[٣]

يقول: ويصدق حس سمعها حتى تسمع الصوت الخفي فتنصب له آذاناً – كعادتها إذا أحست بشيء – تكاد تلك الآذان تسميع ما يناجي به الإنسان ضميره ، فكأنه عندها كالمناداة لحدة حسن آذانها.

قوله :

تجاذب فرسان الصباح أعنة*** كأن على الأعناق منها أفاعيا[٤]

يقول: إن هذه الخيل – لما فيها من القوة والنشاط – تجاذب أعنتها، ثم شبه أعنتها في طولها وامتدادها بالحيات .

---

(١) ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي، ج ٢ ، ص ٥٠٤.

(٢) نفس المصدر، ج ٢ ، ص ٥٠٤.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٠٤.

(٤) نفس المصدر، ج ٢ ، ص ٥٠٤.

قوله :

قواصد كافور توارك غيره*** ومن قصد البحر استقل السواقيا[١]

يقول: قصدنا بها كافوراً وتركنا غيره من الملوك ، لأنه كالبحر وغيره كالساقية.

قوله:

فجاءت بنا إنسان عين زمانه*** وخلت بياضا خلفها ومآقيا[٢]

قال الواحدي جعله إنسان عين الزمان كناية عن سواد لونه وأنه هو المعنى المقصود من الدهر وأبنائه وأن من سواه فضول لا حاجة بأحد إليهم فإن البصر في سواد العين وما حوله جفون ومآق لا معنى فيها.

تجوز عليها المحسنين إلى الذي*** نرى عندهم إحسانه والأياديا[٣]

يقول هذه الخيل نتخطى عليها الذين أحسنوا إلينا إلى الذي يحسن إليهم وينعم عليهم، يعني كافوراً، يريد أنه فوقهم، ومثل هذا يؤخذ على المتنبي إذ يدل على عدم وفائه فضلاً أنه لم يكن للأسود على سيف الدولة ولا قومه إحسان.

وقوله:

وما زال أهل الدهر يشتبهون لي*** إليك فلما لحت لي لاح فرده[٤]

يقول: ما زال الدهر يتشابهون عندي في مسيري إليك، فلا أكاد أرى بينهم فرقاً حتى ظهرت لي فإذا أنت فردهم الذي لا يشبهه أحد منهم.

يقال إذا أبصرت جيشا وربه*** أمامك رب رب ذا الجيش عبده[٥]

يقول: إذا رأيت جيشاً وملكه فاستعظمته قيل لي قدامك ملك هذا الملك الذي تراه عبده فكيف هو؟

وألقى الفم الضحاك أعلم أنه*** قريب بذي الكف المفداة عهده[٦]

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ج ، ص ٥٠٥.

(٢) نفس المصدر، ج ٢ ص ٥٠٥

(٣) نفس المصدر، ج ٢ ص ٥٠٥

(٤) نفس المصدر، ج ١ ص ٣٢٦

(٥) نفس المصدر، ج ١ ص ٣٢٦

(٦) نفس المصدر، ج ١ ص ٣٢٦

يقول: إذا لقيت إنساناً ضاحكاً علمت أنه قريب عهده بكفك وأخذه عطاءك فانثنى عنك مسروراً فقوله: بذي الكف أي بهزه الكف وهي متعلقة بعهده.

فكن في اصطناعي محسنا كمجرب*** يبن لك تقريب الجواد وشده[١]

قال بن جني: أي جربني ليظهر لك صغير أمري وكبره، فإما اصطنعتني وإما رفضتني فلا فضل بيني وبين غيري إذا لم تجربني، وقال الواحدي: جربني في اصطناعتك إياي ليتبين لك إني موضع للضيعة، فبالتجربة يعرف الفرس وأنواع جربه من التقريب والشد.

وما الصارم الهندي إلا كغيره*** إذا لم يفارقه النجاد وغمده[٢]

يقول: إن السيف القاطع الهندي لا يظهر فضله على غيره من السيوف حتى يصل ويضرب به، وبذلك يعرف مضاؤه.

فإنك ما مر النحوس بكوكب*** وقابلته إلا ووجهك سعده[٣]

يقول: إذا مرت النحوس بكوكب وقابلته بوجهك زال النحس عنه وحل محله السعد يعني أنك تسعد المنحوس، وتطرد البؤس.

وقوله:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه*** وصدق ما يعتاده من توهم[٤]

يقول إذا كان فعل المرء سيئاً قبيحاً ساء ظنه بالناس لسوء ما انطوى عليه، وإذا توهم في أحد ريبة أسرع إلى تصديق ما توهمه لما يجد من مثل ذلك في نفسه.

وعادى محبيه بقول عداته*** وأصبح في ليل من الشك مظلم[٥]

يقول: ولسوء ظنه يعادي الذين يحبونه بوشاية أعدائه فلا يميز صديقه من عدوه، إذ يشك في كل واحد يصبح في كل أموره حائراً بسبب أنه يصدق ما يتوهمه.

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ص ٣٢٧

(٢) نفس المصدر، ج ١ ص ٣٢٧

(٣) نفس المصدر، ج ١ ص ٣٢٨

(٤) نفس المصدر، ج ٢ ص ٤٠٤

(٥) نفس المصدر، ج ٢ ص ٤٠٤

أصادق نفس المرء من قبل جسمه*** وأعرفها في فعله والتكلم[١]

يريد النفس: المعاني الكريمة والفضائل الإنسانية التي تستشف من الإنسان بذكر لطف حسه ودقة علمه، وأنه قبل أن يقع بينه وبين من يحبه معرفة يصادق نفسه أولاً ويستدل عليه بكلامه وفعله.

كل هاو للجميل بفاعل*** ولا كل فعال له بمتمم[٢]

يقول: ليس كل من أحب الأمر الجميل يصنعه ولا كل من يصنعه يتممه.

وأبلخ يعصي باختصاصي مشيره*** عصيت بقصديه مشيري ولومي[٣]

يقول: واستزدت بظل أبلخ يعصي من يشير عليه بتركي بأن يختصني دون غيري، كما أني عصيت من أشار على بترك المسير إليه.

فساق إلي العرف غير مكدر*** وسقت إليه الشكر غير مجمجم[٤]

يقول: لم يكدر إحسانه إلي بالمن، ولم ينغصه بالأذى فكان شكره صريحاً خالصاً غير مشوب.

فأحسن وجه في الورى وجه محسن*** وأيمن كف فيهم كف منعم[٥]

قال الواحدي: هذا البيت يوري عنه هجائه بقبح الصورة وأنه لا منقبة له يمدح بها غير أنه إذا أحسن بالإعطاء موجهه أحسن الوجوه، ويرد أيمن الأيادي بالإنعام.

ولو كنت أدري كم حياتي قسمتها*** وصبرت ثلثيها انتظارك فاعلم[٦]

يقول: لو كنت أعرف كم مقدار بقائي في الدنيا لجعلت ثلثي ذلك المقدار مدة انتظار عطائك.

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ص ٤٠٤

(٢) نفس المصدر، ج ٢ ص ٤٠٥

(٣) نفس المصدر، ج ٢ ص ٤٠٧

(٤) نفس المصدر، ج ٢ ص ٤٠٧

(٥) نفس المصدر، ج ٢ ص ٤٠٨

(٦) نفس المصدر، ج ٢ ص ٤٠٨

وقوله:

أما تغلط الأيام في بأن أرى*** بغيضا تنائي أو حبيبا تقرب[١]

يقول: أن الدهر مولع بتقريب من أبغضه وإبعاد من أحبه، أفلا يغلط مرة فيبعد البغض ويدني الحبيب؟ وجعل ذلك غلطاً من الدهر.

ويوم كليل العاشقين كمنته*** أراقب فيه الشمس أيان تغرب[2]

ورب يوم طال على طول ليل العاشقين استترت فيه خوفاً من الأعداء أراقب غروب الشمس لأخرج من الكمين وآمن على نفسي.

وعيني إلى أذني أغر كأنه*** من الليل باق بين عينيه كوكب[٣]

يقول: إنه كان في مسيره يراعي أذني فرسه يحفظ نفسه بهما، وذلك أن الفرس إذا أحس شيئاً من بعيد نصب أذنيه حياله فيعلم الفارس أنه أبصر شيئاً ثم وصف فرسه فقال: كأنه في سواده قطعة من الليل وكأن الغر في وجهه كوكب من كواكب الليل قد بقي بين عينيه.

له فضلة عن جسمه في إهابه*** تجيء على صدر رحيب وتذهب[٤]

يقول: إن هذا الفرس رحيب الصدر رحيب الإهاب ومن ثم كان واسع الخطو سريع الجري، إذ لو كان ضيق الصدر كان خطوه قصيراً وكذلك إذا كان ضيق الجلد ضاق عن مد يديه، ولهذا ترى الحمار يضيق إهابه عن مد يديه وإذن ففي إهاب هذا الفرس فضلة عن جسمه تجيء وتذهب على صدره الرحب.

شققت به الظلماء أدني عنانه*** فيطغى وأرخيه مرارا فيلعب[٥]

يقول: شققت ظلام الليل بهذا الفرس فإذا أدنيت لجامه إلي يجذبه وثب وطغى مرحاً ونشاطاً، وإذا أرخيت لجامه لعب برأسه.

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ج١ ، ص ١٨٩.

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص١٩٠.

(٣) نفس المصدر، ج ١، ص ١٩٠.

(٤) نفس المصدر، ج ١، ص ١٩٠.

(٥) نفس المصدر، ج ١، ص ١٩١.

وأصرع أي الوحش قفيته به*** وأنزل عنه مثله حين أركب[١]

يقول: إذا طردت به وحشاً لحقه فصرعته –فقتلته– وإذا نزلت منه بعد الصيد كان مثله حين أركبه ولم يدركه لغب ولم ينقص من جريه ونشاطه شيء، مثل ما كان حين الركوب.

وما الخيل إلا كالصديق قليلة*** وإن كثرت في عين من لا يجرب[٢]

يقول: إن الخيل بمثابة الصديق قليلة لدى التجربة والامتحان كثيرة في عين من لم يجرب، فبالتجربة تعرف الكوادن من السوابق، كما أن الصديق يعرف بالتجربة ما عنده من صدق الود أو مذقه وحاصل المعنى أن الجياد من الخيل قليلة، كما أن الصديق الذي يستحق الصداقة قليل.

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها*** وأعضائها فالحسن عنك مغيب[٣]

يقول: إن مزايا الخيل فيما وراء ألوانها من جريها وعددها وطباعها، فإذا لم تر منها إلا حسن ألوانها وأعضائها لم تر حسنها ومزاياها.

وفيها:

يريد بك الحساد ما الله دافع*** وسمر العوالي والحديد المذرب[٤]

يقول: إن الحساد يريدون بك السوء فلا ينالون ما يبتغون، لأن الله يدفعه عنك ثم الرماح والسيوف.

إذا طلبوا جدواك أعطوا وحكموا*** وإن طلبوا الفضل الذي فيك خيبوا[٥]

يقول: إذا طلبوا عطاياك أعطيتهم وجعلت لهم الحكم فيما يطلبون فينالون كل ما يقترحون، أما إذا حاولوا أن يحصلوا على الفضل الذي آتاكه الله فإنهم لا يدركونه، لأنه لا ينال بالإكتساب وإنما ذلك شيء آثرك الله به.

ولو جاز أن يحووا علاك وهبتها*** ولكن من الأشياء ما ليس يوهب[٦]

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ١٩١.

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص ١٩١.

(٣) نفس المصدر، ج ١، ص ١٩١.

(٤) نفس المصدر، ج ١، ص ١٩٣.

(٥) نفس المصدر، ج ١، ص ١٩٣.

(٦) نفس المصدر، ج ١، ص ١٩٤.

يقول: لست تؤتي من بخل وشح، فلو كانت العلى توهب لوهبتها ولكنها لا توهب.

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا*** لمن بات في نعمائه يتقلب[١]

يقول: إن هؤلاء الحاسدين يتقلبون في نعمائك، فما كان ينبغي لهم أن يحسدوك، لأن أشد الظالمين ظلماً من تقلب في نعمة إنسان ثم بات يحسده على تلك النعمة.

ويغنيك عما ينسب الناس أنه*** إليك تناهى المكرمات وتنسب[٢]

يقول: إنك في غني عن الأنساب التي يذكرها النسابون لغيرك، لأن المكرمات تتناهي إليك وتعزى، إذ كنت أصلاً لها، إليك وحسبك هذا شرفا يغنيك محموده عن النسب وليلحظ أن هذا شبه غمز في كافور قد يكون مقصوداً للمتنبي الداهية. وقد يكون غير مقصود ومن هنا قال التبريزي ليس هذا مما يمدح به، ولاسيما الملوك، لأنه أشبه بنفي النسب عنه.

وتعذلني فيك القوافي وهمتي*** كأني بمدح قبل مدحك مذنب[٣]

يقول: إن شعري وهمتي يلومانني على أن لم أقصدك قبل غيرك ولم أقصر مدحي عليك، فكأنني أذنبت بمدحي غيرك، فكنت أهلا لأن ألام.

وقوله:

رأيتكم لا يصون العرض جاركم*** ولا يدر على مرعاكم اللبن[٤]

يقول: من جاوركم لا يقدر على صون عرضه، لأنه يشتم عندكم فلا تكترثون لشتمه ولا تحامون عنه، وإذا رعت النعم في أرضكم لم يرد لبنها على مرعاكم لوخامته وهذا مثل، يريد أن نعمتكم مشوبة بالأذى فلا يهنأ آخذها حتى تزكو عنده بالشكر وكل هذا تعريض بسيف الدولة وهجاء مر له.

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ١٩٤.

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص ١٩٤.

(٣) نفس المصدر، ج ١، ص ١٩٥.

(٤) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٦٩.

جزاء كل قريب منكم ملل*** وحظ كل محب منكم ضغن[١]

يقول: من قرب منكم مللتموه، وأبغضتموه ومن أحبكم حقدتم عليه، أي لستم تجازون المحب ولا القريب بما يستحقانه.

وتغضبون على من نال رفدكم*** حتى يعاقبه التنغيص والمنن[٢]

يقول: لا يخلو عطاؤكم من المن والأذى حتى يصير آخذه معاقباً بتنغيص ما أخذه، وهذا كله تعريض بسيف الدولة.

فغادر الهجر ما بيني وبينكم*** يهماء تكذب فيها العين والأذن[٣]

يقول: ترك الهجر بيني وبينكم فلاة بعيدة الأطراف مضلة المسالك ترى العين فيها من الأشباح وتسمع الأذن من الأصوات ما لا حقيقة له، لكثرة ما يخيل فيها من المخاوف.

تحبو الرواسم من بعد الرسيم بها*** وتسأل الأرض عن أخفافها الثفن[٤]

يقول لطول السير في هذه البهماء ومتابعته ترى الأرض أخفاف الإبل فتحبو على ثفناتها بعد أن كانت تسير الرسيم، وتقول الثفنات للأرض أين ذهبت الأخفاف حتى انتقل السير عليها، –على الثفنات– بعد أن كان على الأخفاف؟ وهذا تمثيل لطول السير وقوته أي لو قدرت على السؤال لسألت.

سهرت بعد رحيلي وحشة لكم*** ثم استمر مريري وارعوى الوسن[٥]

يقول: لما فارقتكم استوحشت لفراقكم حتى أمتنع رقادي، أي لإلفي إياكم على جفائكم، ثم قويت وتصبرت وعاد إلي النوم إذ سلوت.

وإن بليت بود مثل ودكم*** فإنني بفراق مثله قمن[٦]

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤٧٠.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٧٠.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٧٠.

(٤) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٧٠.

(٥) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٧٠.

(٦) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٧٠.

يقول: إن كنت في قوم آخرين فعاملوني معاملتكم فارقتهم كما فارقتكم، وهذا تعريض بكافور، يعني إن بليت منه بود ضعيف مثل ودكم فارقته كما فارقتكم. وقوله:

برغم شبيب فارق السيف كفه*** وكانا على العلات يصطحبان[١]

شبيب هذا هو شبيب بن جرير العقيلي، من قوم كانوا من الغرامطة وكانوا مع سيف الدولة، وولي شبيب معرة النعمان دهراً طويلاً واجتمع إليه جماعة من العرب فوق عشرة آلاف وأراد أن يخرج على كافور وقصد دمشق فحاصرها فيقال إن امرأة ألقت عليه رحى فصرعته فانهزم من كان معه بعد أن هلك ويقال أنه حدث به صرع من شرب الخمر، فتركه أصحابه ومضوا، فأخذه أهل دمشق فقتلوه. يقول: إنه هلك ففارق سيفه كفه وكانا لا يفترقان على العلات –أي على كل حال

كأن رقاب الناس قالت لسيفه*** رفيقك قيسي وأنت يماني[٢]

قيس: من عدنان، واليمن من قحطان، وكان بينهما شقاق وتنازع واختلاف، يقول: كأن رقاب الناس أغرت ما بيني وبين سيفه –لكثرة قطعه إياها– لتفرق بينهما، وقالت لسيفه إن شبيباً الذي يصاحبك (قيسي) وأنت (يمني) والسيوف الجيدة تنسب إلى اليمن –ففارقه سيفه لما علم أنه مخالف له في الأصل.

وهل ينفع الجيش الكثير التفافه*** على غير منصور وغير معان[٣]

يقول: إن الجيش الكثير لا ينفع من لم يكن منصوراً من قبل الله سبحانه وتعالى معاناً بتأييده كما لم ينفع شبيباً كثرة أصحابه.

ثنى يده الإحسان حتى كأنها*** وقد قبضت كانت بغير بنان[٤]

يقول: ليس من يفي لصاحبه اليوم، أي لا وفاء اليوم عند أحد، فإن أوفى من ترى الناس غادر كشبيب، فهما في ذلك أخوان في الغدر.

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤٧٤.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٧٤.

(٣) نفس المصدر، ج ١، ص ٤٧٥.

(٤) نفس المصدر، ج ١، ص ٤٧٦.

وقوله:

عيون رواحلي إن حرت عيني*** وكل بغام رازحة بغامي[١]

قال الواحدي: قال ابن جني: معناه إن حارت عيني، فأنا بهيمة مثل رواحلي، وعيني عينها وصوتي صوتها كما تقول. إن فعلت كذا فأنت حمار، وأنت بلا حاسة، وزاد ابن فورجة هذا بياناً فقال يريد أنه بدوي عارف بدلالات النجوم في الليل، فيقول إن تحيرت في المفازة فعيني البصيرة عين راحلتي.

فقد أرد المياه بغير هاد*** سوى عدي لها برق الغمام[٢]

يقول: لا أحتاج في ورود الماء إلى دليل يدلني سوى أن أعد برق الغمام، وأستدل بذلك على المطر فأتبع موقعه، على عادة العرب في عدها بروق الغمام وذلك أن العرب كانوا إذا لاح البرق عدوا سبعين برقة، وقيل مائة، فإذا كملت وثقوا بأن البرق برق ماطر.

ولما صار ود الناس خبا*** جزيت على ابتسام بابتسام[٣]

يقول: لما فسد ود الناس وصار خداعاً يبشون بوجوههم وكشحهم منطوٍ على الخبث عاملتهم بمثل ما يعاملونني به فهم يكاشرونني وأنا أكاشرهم أي ابتسمت إليهم كما يبتسمون لي.

وصرت أشك فيمن أصطفيه*** لعلمي أنه بعض الأنام[٤]

يقول: لعموم الفساد في الخلق كلهم صرت إذا اصطفيت –اخترت– أحداً لمودتي لم أكن على ثقة من مودته لعلمي أنه من جملة الخلق.

أرى الأجداد تغلبها كثيرا*** على الأولاد أخلاق اللئام[٥]

يقول: إذا لؤمت الأخلاق غلبت الأصل الطيب الكريم حتى يكون صاحبها لئيماً وإن كان من أصل كريم.

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٢٠٩.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٠٩.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٠.

(٤) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٠.

(٥) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٠١.

وقوله:

وزائرتي كأن بها حياء*** فليس تزور إلا في الظلام[١]

وزائرتي: أي ورب زائرة لي –يريد الحمى وكانت تأتيه ليلاً يقول: كأنها حبيبة إذا كانت لا تزورني إلا في دجنات الظلام.

بذلت لها المطارف والحشايا*** فعافتها وباتت في عظامي[٢]

يقول: هذه الزائرة –يعني الحمى– لا تبيت في الفراش، وإنما تبيت في عظامي.

يضيق الجلد عن نفسي وعنها*** فتوسعه بأنواع السقام[٣]

يقول: جلدي لا يسعها ولا يسع أنفاسي للصعداء، والحمى تذهب لحمي وتوسع جلدي بما تورده علي من أنواع السقام.

إذا ما فارقتني غسلتني*** كأنا عاكفان على حرام[٤]

قال الواحدي يريد أنه يعرق عند فراقها فكأنها تغسله لعكوفها على ما يوجب الغسل، وإنما خص الحرام للقافية، وإلا فالإجتماع على الحلال كالإجتماع على الحرام في وجوب الغسل، وقال ابن الشجري: وإنما خص الحرام لأنه جعلها زائرة غريبة ولم يجعلها زوجة ولا مملوكة.

كأن الصبح يطردها فتجري*** مدامعها بأربعة سجام[٥]

يقول: إنها تفارقه عند الصبح، فكأن الصبح يطردها وكأنها تكره فراقه فتبكي بأربعة أدمع يريد كثرة الرحضاء وهو عرف الحمى، والدمع يجري من الموقين فإذا غلب وكثر جرى من اللحاظين أيضاً.

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤١١.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١١.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١١.

(٤) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٢.

(٥) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٢.

أراقب وقتها من غير شوق*** مراقبة المشوق المستهام[١]

يقول: إنه لجزعه من ورودها يراقب وقت زيارتها خوفاً لا شوقاً.

ويصدق وعدها والصدق شر*** إذا ألقاك في الكرب العظم[٢]

يقول: إنها صادقة الوعد في الورود –لأنها لا تتخلف عن ميقاتها– وذلك الصدق شر من الكذب لأنه صدق يضر ولا ينفع، كمن أوعد ثم صدق في وعيده.

ومنها:

ألا يا ليت شعر يدي أتمسي*** تصرف في عنان أو زمام[٣]

يقولون: ليت شعري ما حال فلان؟ أي ليتني أشعر، يقول: ليت يدي علمت هل تتصرف بعد هذا في عنان خيل أو زمام إبل؟ يعني ليتني علمت هل أصح وأبرأ فأسافر على الخيل والإبل.

وهل أرمي هواي براقصات*** محلاة المقاود باللغام[٤]

يقول: هل أقصد ما أهواه من المطالب والمقاصد بإبل تسير الرقص وقد جمد الزبد على مقاودها فصار عليها مثل الحلي الفضية؟

فربتما شفيت غليل صدري*** بسير أو قناة أو حسام[٥]

يقول: إنه لما كان صحيحاً كان يسافر ويقاتل فيشفي غليله بالسير إلى ما يهواه، وبالسيف والرمح.

وضاقت خطة فخلصت منها*** خلاص الخمر من نسج الفدام[٦]

يقول: ربما ضاق أمر علي فخلصت منه كما تخلص الخمر من النسيج الذي تشد به أفواه الأباريق.

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤١٢.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٢.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٢.

(٤) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٢.

(٥) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٠٣.

(٦) نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٠٣.

وفارقت الحبيب بلا وداع*** وودعت البلاد بلا سلام[١]

يقول: وربما فارقت الحبيب بلا وداع لعجلتي، يريد أنه قد هرب من أشياء كرهها فلم يقدر على توديع الحبيب ولا على أن يسلم على أهل ذلك البلد الذي هرب منه.

يقول لي الطبيب أكلت شيئا*** وداؤك في شرابك والطعام[٢]

وما في طبه أني جواد*** أضر بجسمه طول الجمام

يقول: إن الطبيب يظن أن سبب دائي الأكل والشرب فيقول: أكلت كذا وكذا مما يضر وليس في طبه أن الذي أضر بجسمي طول لبثي وقعودي عن الأسفار، كالفرس الجواد يضر جسمه طول قيامه في المرابط، فيفتر ويني.

تعود أن يغبر في السرايا*** ويدخل من قتام في قتام[٣]

يقول: تعود هذا الجواد –يعني نفسه– أن يثير الغبار في الجيوش ويخرج من حرب فيدخل في غيرها.

فأمسك لا يطال له فيرعى*** ولا هو في العليق ولا اللجام[٤]

يقول: أمسك هذا الجواد يرخي له الطول فيرعى فيه ولا هو في السفر فيعتلف من المخلاة –التي تعلق على رأسه– وليس هو في اللجام، وهذا مثل ضربه لنفسه، وأنه حليف الفراش، ممنوع عن الحركة، وجائز أن يكون هذا المثل قد ضربه لحالته مع كافور.

فإن أمرض فما مرض اصطباري*** وإن أحمم فما حم اعتزامي[٥]

يقول: إن كنت قد مرضت في بدني فإن صبري وعزمي باقيان على ما كانا عليه لم يمرضا بمرض جسمي.

وإن أسلم فما أبقى ولكن*** سلمت من الحمام الى الحمام[٦]

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤١٣.

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص ٤١٣.

(٣) نفس المصدر، ج ١، ص ٤١٣.

(٤) نفس المصدر، ج ١، ص ٤١٣.

(٥) نفس المصدر، ج ١، ص ٤١٣.

(٦) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٣.

يقول: وإن سلمت من الحمى لم أبق خالداً ولكني أسلم من الموت بهـا إلـى الموت بغيرها.

وقوله:

تسود الشمس منا بيض أوجهنا*** ولا تسود بيض العذر واللمم[١]

يقول: إن الشمس تغير ألواننا فتسود وجوهنا البيض، ولكنها لا تـؤثر ذلـك التأثير في شعورنا البيض.

وكان حالهما في الحكم واحدة*** لو احتكمنا من الدنيا الى حكم[٢]

يقول: لو احتكمنا إلى حاكم من حكام الدنيا لحكم بأن ما يسود الوجه يسـود الشعر ولكن الله قضى بأن الشمس إنما تسود الوجه ولا تسود الشعر، ومن ثـم لا تجري في شأنها على أحكام الناس.

طردت من مصر أيديها بأرجلها*** حتى مرقن بنا من جوش والعلم[٣]

يقول: حثثتها على السير وأعجلتها حتى كأن أرجلها طاردتة لأيديها.

في غلمة أخطروا أرواحهم ورضوا*** بما لقين رضا الأيسار بالزلم[٤]

يقول: سرت من مصر في غلمة حملوا أرواحهم على الخطر لبعد المسـافة وصعوبة الطريق ورضوا بما يستقبلهم من فوز أو تهلكه، كما يرضى المغـامرون بما يخرج لهم بالأزلام.

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي*** المجد للسيف ليس المجد للقلم[٥]

يقول: حتى عدت إلى وطني وقد علمت أن المجد إنمـا يـدرك بالسـيف لا بالقلم، لأن ذا الفضل لا يعظم ولا يهاب كما يهاب صاحب السيف، ولا يدرك مـن معاني المجد والشرف ما يدركه.

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٤١٨.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٨.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٨.

(٤) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٩.

(٥) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٢١.

اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به*** فإنما نحن للأسياف كالخدم[١]

يقول: قالت لي الأقلام أخرج على الناس بالسيف وأقتلهم ثم أكتب بنا ما فعلت بالسيف وما تقول من الشعر في ذلك فإن القلم كالخادم للسيف جعل الضرب بالسيف كالكتابة به.

من اقتضى بسوى الهندي حاجته*** أجاب كل سؤال عن هل بلم[٢]

يقول: من طلب حاجته بغير الهندي –السيف– أجاب سائله عن قوله هل أدركت حاجتك؟ بقوله: لم أدرك: أو لم أصل أو لم أظفر، ونحو ذلك قال القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه كان الواجب أن يقول عن هل بلا، لأن المطالب بغير السيف، يقول: هل تبتدع لي بهذا المال؟ فيقول المسؤول: لا. فأقام لم مقام (لا) لأنهما حرفا نفي.

توهم القوم أن العجز قربنا*** وفي التقرب ما يدعو الى التهم[٣]

يقول: إن القوم الذين قصدناهم بالمديح تفهموا أن العجز عن طلب الرزق قربنا إليهم ثم قال ولهم الحق في أن يتوهموا ذلك لأن بعض التقرب قد يدعو إلى التهمة، لأنك إذا تقربت إلى إنسان توهمك عاجزاً محتاجاً إليه.

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة*** بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم[٤]

يقول: إن ترك الإنصاف يدعو إلى التقاطع بين الناس ولو كانوا أقارب فما الظن بمن لا قرابة بينهم يشير إلى إعراضه عن القوم الذين ذكرهم لأنهم لم ينصفوه في قصده لهم.

فلا زيارة إلا أن تزورهم*** أيد نشأن مع المصقولة الخذم[٥]

يقول: فلا أزورهم بعد ذلك إلا بأيدٍ قد ألفت القتال ونشأت في صحبة السيوف، يعني إذا لم ينصفوا فإني لا أزورهم إلا محارباً.

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ج ٢، ص ٤٢١.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٢٢.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٢٢.

(٤) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٢٢.

(٥) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٢٣.

صنا قوائمها عنهم فما وقعت*** مواقع اللؤم في الأيدي ولا الكزم[١]

يقول: صنا قوائم السيوف فما وقعت إلا في أيدينا التي لا لؤم فيها ولا قصر يعني أنهم لا يحسنون العمل بالسيوف ونحن أربابها نشأت أيدينا معها، والمعنى أنهم لم يسلبونا سيوفنا فتقع في أيديهم التي هي مواقع اللؤم والقصر عن بلوغ الحاجة.

هون على بصر ما شق منظره*** فإنما يقظات العين كالحلم[٢]

يقول: هون على العين ما شق عليها النظر إليه مما تراه من المكاره وهبك تراه في الحلم لأن ما تراه في اليقظة شبيه بما تراه في المنام، لأنهما يمكثان قليلاً ثم يزولان فكأنهما لم يكونا وروي منظرة –بفتح الراء فيكون المراد الشيء الذي يشق البصر ويفتحه باقتضائه النظر إليه.

ولا تشك الى خلق فتشمته*** شكوى الجريح الى الغربان والرخم[٣]

يقول: لا تشك إلى أحد ما ينزل بساحتك من ضر وشدة فتشمته بشكواك، فتكون شكواك كشكوى الجريح إلى الطير التي ترقب أن يموت فتأكله وعبارة التبريزي، الناس بعضهم أعداء بعض، فمن شكا حاله إليهم فهو كمثل جريح اجتمعت عليه الطير لتأكل لحمه فهو يشكو إلى من ليس عنده رحمة –لأن الغربان– جمع غراب– والرخم جمع رخمه –طائر من الجوارح الخسيسة– إنما يجتمعان حول الجريح ليأكلا لحمه.

وقوله:

تزاحم الجيش حتى لم يجد سببا*** إلى بساطك لي سمع ولا بصر[٤]

فكنت أشهد مختص وأغيبه معاينا وعياني كله خبر

يقول: كنت في هذا اليوم أحضر الناس المختصين بك لأني كنت شاهداً بشخصي، وكنت أغيبهم عياناً لأني عبت معاينة، إذ لم أر ما يجري فكأني عياني ما يخبرني به الذين عاينوا.

---

(١) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٢٣.

(٢) نفس المصدر، ٢ج ، ص ٤٢٣.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٢٣.

(٤) نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٧٢.

وقوله:

إن تريني أدمت بعد بياض*** فحميد من القناة الذبول[١]

يقول: إن غيرت الأسفار وجهي حتى صرت آدم بعد بياض الوجه، فليس ذلك بعاب فيَّ، كما أن الذبول وإن كان مذموماً في غير القناة فإنه محمود فيها، لأنه آية صلابتها.

صحبتني على الفلاة فتاة*** عادة اللون عندها التبديل[٢]

يقول: صحبتني على الفلاة التي قطعتها في سيري والأسباب التي عاينتها وتجشمتها فتاة لا يهرم شخصها ولا ينتقص حسنها عادتها في الألوان أن تبدلها وتنقلها إلى الأدمة السمرة وتغيرها.

سترتك الحجال عنها ولكن*** بك منها من اللمى تقبيل[٣]

يقول: لمحبوبته –سترتك الحجال عن هذه الفتاة– الشمس التي غيرت لوني لأنك في كن عنها لا يصيبك حرها، ولكن بك منها تقبيل لما في شفتيكك من الأدمة –السمرة– كأنها قبلتك فأورثتك هذا اللمى الذي في شفتيك وبعبارة أخرى أنت محجوبة عن الشمس بالستور فلا يصيبك شعاعها إلا أن في شفتيك سواداً من قبيل السواد الذي تحدثه حتى كأنها قبلت فاك فأثرت في موضع التقبيل.

وقوله:

أخو الحرب يخدم مما سبى*** قناه، ويخلع مما سلب[٤]

يقول: هو أخو الحرب وصاحبها، فإذا أعطى أحداً خادماً فهو مما سباه بنفسه، لا مما اشتراه، لأن مماليكه جميعاً من سباياه، وإذا خلع على إنسان ثوباً فهو مما سلبه من أعدائه يريد كثرة نكايته في الأعداء.

إذا حاز مالا فقد حازه*** فتى لا يسر بما لا يهب[٥]

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ١٥٢.

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص ١٥٢.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ١٥٢.

(٤) نفس المصدر، ج ١، ص ١٤٥.

(٥) نفس المصدر، ج ١، ص ١٤٥.

يقول: إذا جمع مالاً لا يسر منه بما يدخر، ولكن بما يهب.

وقد علمت خيله أنه*** إذا هم وهو عليل ركب[١]

يقول: ما كان ينبغي للدمستق أن يغتر لأن سيف الدولة إذا هم بالغارة وهو عليل ركب إلى أعدائه كما تعلم خيله من عادته.

أتاهم بأوسع من أرضهم*** طوال السبيب قصار العسب[٢]

يقول: أتاهم الدمستق بخيل موضعها من الأرض أوسع من أرض الروم، يصف عسكر الروم بالكثرة، ثم وصف خيلهم بأنها من جياد الخيل لأن طول شعر الذنب وقصر عظمه مما يستحب في الخيل.

ولا تعبر الريح في جوه*** إذا لم تخط القنا أو تثب[٣]

يقول: لكثرة رماح هذا الجيش وتضايق ما بينها غص الهواء بها فلا تجد الريح منفذاً إلا أن تتخطى الرماح، أي تكون أعلى طريقاً منها أو تثب من فوقها. وقوله – يصف السيف:

قلدتني يمينه بحسام*** أعقبت منه واحدا أجداده[٤]

يقول: قلدتني سيفاً ماضياً لم تعقب أجداده منه –أي لم تلد من نوعه– إلا واحداً يعني هذا السيف نفسه وأراد بأجداد السيف معادن الحديد التي يستخرج منها وملخص المعنى: قلدني سيفاً لم يطبع مثله، فلا نظير له.

كلما استل ضاحكته إياة*** تزعم الشمس أنها أرآده[٥]

يقول: كلما جرد هذا الحسام من غمده برقت في صفحة إياه من الشمس كأنما تضاحكه ولشده بريق الإباة تنخدع الشمس لدى رؤيتها فتحسب الحسام شمساً أخرى قد التمعت هذه الإباة من أشعتها. يشير إلى أن شعاع هذا السيف يضاهي شعاع الشمس وأن الشمس تقر بأن ضوءها كضوئه.

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ج ١، ص ١٤٦.

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص ١٤٦.

(٣) نفس المصدر، ج ١، ص ١٤٧.

(٤) نفس المصدر، ج ١، ص ٣٤١.

(٥) نفس المصدر، ج ١، ص ٣٤١.

مثلوه في جفنه خشية الفقد*** ففي مثل أثره أغماده[١]

يقول: إن ما نسج من الفضة على غمده تصوير وتمثيل لما على متنه من الفرند، وإنما فعل به ذلك إرادة أن لا تفقده العين إذا أغمده، بل يكون كأنها ناظرة إليه: أي أنه لحسنه لا يود مالكه أن يفقد منظره بإغماده ومن ثم مثله في جفنه، وقال الواحدي خشية الفقد: يريد أن الناس يقولون: إن هذا السيف عزيز فلعزه وخوف فقده غشوا جفنه بالفضة.

منعل لا من الحفا ذهبا يحمل*** بحرا فرنده إزباده[٢]

يقول: إن هذا الجفن قد جعل له نعل من الذهب وليس ذلك للحفاء، وهو يحمل من هذا السيف بحراً، يعني كثرة مائه ولما جعله بحراً جعل تموج الفرند فيه بمنزلة الزبد (هذا) والسيف لا يوصف بالحفاء ولكن ذكره افتناناً لإبهام لفظ النعل.

يقسم الفارس المدجج لا يسلم*** من شفرتيه إلا بداده[٣]

يقول: إذا ضرب به الفارس المقنع في سلاحه قطعه نصفين من فوق إلى أسفل وقطع السرج أيضاً، فلا يسلم منه إلا جانبا السرج لانحرافهما على الجانبين. وقوله: من شفرتيه –والحال أن السيف إنما يقطع بشفرة واحدة– لأنه أراد بأي شفرتيه ضرب، عمل هذا العمل.

جمع الدهر حده ويديه*** وثنائي فاستجمعت آحاده[٤]

يقول: إن الدهر جمع حد هذا السيف ويدي الممدوح في الضرب وشعري في وصفه، فاجتمعت بذلك آحاد الدهر التي لا نظير لها، فلا سيف كهذا السيف ولا يد في الضرب به كيد الممدوح ولا ثناء كثنائي.

وقوله:

تبدل أيامي وعيشي ومنزلي*** نجائب لا يفكرن في النحس والسعد[٥]

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج١ ، ص ٣٤٢.

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص ٣٤٢.

(٣) نفس المصدر، ج ١، ص ٣٤٢.

(٤) نفس المصدر، ج ١، ص ٣٤٢.

(٥) نفس المصدر، ١ج ، ص ٣٤٨.

يقول: إن هذه النجائب يمضين بي مصممات لا يلتفتن إلى نحس ولا سعد فتتبدل علي بمضيهن الأيام والمعايش والديار، وكذلك المسافر له كل يوم منزل وأصحاب.

وأوجه فتيان حياء تلثموا*** عليهن لا خوفا من الحر والبرد[١]

يقول: تبدل أيامي بجانب وأوجه فتيان: أي أنا أبداً مسافر على هذه النجائب في صحبة هؤلاء الفتيان الذين ألفوا الأسفار، ومن ثم لا يبالون بالحر والبرد، وإنما تلثموا على وجوههم لشدة حيائهم، لا اتقاء الحر والبرد، والحياء شيمة الكرام.

إذا لم تجزهم دار قوم مودة*** أجاز القنا والخوف خير من الود[٢]

يقول: إنهم من الشجاعة والإقدام بحيث إذا مروا في أسفارهم بدار قوم لم يكن بينهم وبين قطانها مودة يجوزون أرضهم بها جازوها برماحهم ولم يخافوا أهل تلك الناحية ثم قال: والخوف خير من الود: أي أن تخاف خير من أن تحب، لأن من أطاعك خوفاً منك أبلغ طاعة ممن يطيعك مودة.

ومن يصحب اسم ابن العميد محمد*** يسر بين أنياب الأساود والأسد[٣]

يقول: من جعل اسم ابن العميد صاحباً له في سفره أمكنه السير بين أنياب الحيات والأسود، يعني إذا عرف المسافر بأنه يقصده وينتسب إليه لم يتعرض له أحد هيبة له ورهباً.

كفانا الربيع العيس من بركاته*** فجاءته لم تسمع حداء سوى الرعد[٤]

يقول: ببركته أخصب الربيع وكثر مطره ورعده فأغنانا عن تجشم حداء الإبل في المسير إليه، لأن الرعد أغنى غناء العداء.

كأنا أرادت شكرنا الأرض عنده*** فلم يخلنا جو هبطناه من رفد[٥]

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣٤٨.

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص ٣٤٩.

(٣) نفس المصدر، ج ١، ص ٣٤٩.

(٤) نفس المصدر، ج ١، ص ٣٤٩.

(٥) نفس المصدر، ج ١، ص ٣٥.

يقول: إن كل موضع نزلناه في طريقنا إليه أصبنا به ماء وكلأ فكأن الأرض أرادت أن نشكرها عنده تقرباً إليه.

فتى فاتت العدوى من الناس عينه*** فما أرمدت أجفانه كثرة الرمد[١]

يقول: إن عينه فاتت العدوى فلم يعدها رمد غيرها، وهذا مثل، يعني: أنه تنزه عن عمى الناس عن دقائق الكرم فلم يعده هذا العمى النفسي: أي لم تعده عيوب الناس على كثرتها، فهو بصير بالمكارم طب بها والناس عمى عنها.

يغير ألوان الليالي على العدى*** بمنشورة الرايات منصورة الجند[٢]

يقول: أنه يغير على أعدائه ألوان الليالي، فإذا كانت مظلمة صيرها مشرقة منيرة، ببريق أسلحة جيوشه التي هي منشورة الرايات –أي الأعلام– منصور الجند، وإذا كانت الليالي مقمرة جعلها مظلمة بسواد النقع –الغبار– وقال بعض الشراح لكثرة عساكره إذا سادت بالليل أوقدت المشاعل، إما للاستضاءة، وإما لإحراق ديار الأعداء فحينئذٍ تنجاب الظلمة.

ومبثوثة لا تتقى بطليعة*** ولا يحتمى منها بغور ولا نجد[٣]

يقول: ورأوا خيلاً متفرقة في كل ناحية لا يستطيعون أن يتوقوها بالطلائع – وهي التي ترسل لتستطلع طلع العدو– لأنهم لا يشعرون إلا وقد دهمتهم، ولا أن يتحرزوا منها بمنخفض من الأرض أو مرتفع منها.

---

(١)ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣٥٢.

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص ٣٥٢.

(٣) نفس المصدر، ج ، ص.

الباب الثالث
أغراض شعره

الفصل الأول : المدح – الرثاء – الغزل.

الفصل الثاني : الفخر الهجاء – الوصف .

الفصل الثالث : الشكوى – العتاب – الحكمة – المثل

الفصل الأول

المدح – الرثاء– الغزل

مدحه:

يشتمل المدح على القسم الأكبر من ديوان أبي الطيب، وفيه تنطوي أكثر فنونه وأغراضه. والمتنبي في مدائحه يسير على طرق مشتبهة المسالك، متواطئة الأفكار. ويعود ذلك على أن الشاعر كان يصور في مدائحه ذاتيته، ومطامع نفسه ورغائبها، ونظره إلى الأشياء المحمودة بعين مكبرة، أكثر مما يصور حقيقة ممدوحه وصفاته التي يتماز بها. فقد كان أبو الطيب لا يرى خيراً إلا بالرجل الذي يملأ الدنيا، ويترك فيها دوياً، الرجل السامي الذي تتمثله مخيلته، وتتوقف نفسه إلى بلوغ مرتبته. فجعل ممدوحيه صوراً لهذا الرجل الخيالي، متشابهة الألوان والأوصاف والأشكال. وكان يرى الرسل والأنبياء رجالاً غير عاديين، فطمعت نفسه في منافستهم، والتفوق عليهم، فجعل ممدوحيه في منازلهم، أو أعلى من منازلهم. وكان شاعرنا شجاعاً، بعيد الهمم، شديد العزائم، فأحب الشجاعة في ممدوحيه، وبالغ في تعظيمها، وأبدع في نعت الأبطال، وذكر حروبهم، ووصف انتصاراتهم، فجاءت مدائحه في سيف الدولة، وفاتك،[1] وبدر بن عمار وأمثالهم، أروع منها في غيرهم، وكان يعينه أن يرى ممدوحه سخياً معطاء، فافتتن في وصف جوده، وغالي في طرق أنفاقه، فجعل كل ما في الدنيا صغيراً في عينه محتقراً، يبذله ولا يسأل عنه. ودونك أمثلة من أقواله في المدح

أو كانَ صادَفَ رأسَ عازَرَ سَيفُهُ في يوْمِ مَعركَةٍ لأعْيا عيسَى[2]

أوْ كانَ لُجُّ البَحْرِ مِثْلَ يَمينِهِ ما انْشَقّ حتى جازَ فيهِ مُوسَى

****

(١) هو أبو شجاع فاتك، ويلقب بالمجنون لشجاعته ، مدحه المتنبي وهو في مصر بقصيدته الشهيرة: (لا خيل عندك تهديها ولا مال).

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ٤٣٧.

لو كان لفظُكَ فيهـــمُ ما أنـــزلَ القرآن، والتـــوراة، والإنجيلا[١]

****

بمن تقشعرُّ الأرضُ خوفاً إذا مشى عليها، وترتجُ الجبالُ الشواهقُ[٢]

****

فما ترزقُ الأقدارُ من أنت حارمٌ ولا تحرمُ الأقـدارُ مـن أنـت رازقُ[٣]

وأرهب حتى لو تأمَّلَ دِرعـهُ جرت جزعاً من غيرِ نارٍ ولا فحم[٤][٥]

وأضراب هذه المغاليات كثيرة في شعر أبي الطيب لا نـرى حاجـة إلـى الاستزادة منها، ففي القدر الذي أوردناه كفاية للدلالة علـى نظـر الشـاعر إلـى ممدوحه، وشغفه بكل خارق عجيب، ومثل هذه المعاني وغيرها معادة مكررة فـي ديوان المتنبي فلا تكاد تقرأ قصيدة إلا وقعت على شيئ منها وجدته فـي قصـيدة سواها. وترداد هذه الأفكار في شعره دليل على ما كان لها من بليغ التـأثير فـي نفسه. وهي إلى ذلك يشوبها الغلو المستكره حتى لينحدر بصاحبه إلـى السـخف، وربما لا يخلو من المضحكات فيخيل إليك أن الشاعر يهزأ بممدوحه، كقوله:

فبَعدهُ وإلى ذا اليوم لو ركضتْ بالخيل في لهوات الطفل ما سعلا[٦][٧]

ومثل هذه الحماقات يحفل بها شعر صباه أكثر من شعر كهولته.

وأروع مدائح المتنبي ما قاله في سيف الدولة، ويكاد يبلـغ ثلـث شـعره. ويمتاز في وصف الجيوش والمعارك، وصدق العاطفة وإخلاص الولاء، والإدلال على الممدوح، ومخاطبته بلغة العشاق والمحبين. وهذه الخاصة تكاد تشمل جميـع

---

(١) الفرقان: اسم جامع للكتب المنزلة لفرقها بين الحق والباطل. وقد يراد به القرآن بخصوصه وهو المقصود هنا.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٤.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٦.

(٤) جرت : سألت.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٤٨.

(٦) ركضت: الضمير لنبي تميم الذين كسرهم ممدوحه. اللهوت: جمع اللهاة وهي لحمة في الحلق عند أصل اللسان.

(٧) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص. ١٦٣

مدائح المتنبي، إلا أنها في مدح سيف الدولة اظهر وأدلّ لأن أبا الطيب لم يحب ممدوحاً كما أحب صاحب حلب، ولم يخلص الود لأمير كما أخلص له. فهو شاعر سيف الدولة وإن تعدد ممدوحه.

وليست مدائحه في كافور كذلك، فإنها كذب محض، وتجارة محض. ولكنها رائعة الفن، بديعة الأسلوب، لأن الشاعر استطاع ان يلبسها ثوباً ذا لونين اتحد ظاهرا واختلفت حقيقتها. فمزج المدح بالسخر والجد بالعبث، ولا يُلام أبو الطيب في مدحه الكاذب لكافور لأنه لم يقصده بالعبث، ولا يُلام أبو الطيب في مدحه الكاذب لكافور لأنه لم يقصده إلا بعد أن دعاه إليه، ولم يمدحه شغفاً بمناقبه، ولكن رجاء أن ينال منه ولاية يمحو بها خيبته، ويفقأ عيون خصومه، ويحقق أحلام صباه. فقد كان شاعرنا متهالكاً في طلبها، وبه مثل الجنون للحصول عليها حتى إنه اصطنع التزلف على غير عادته، فكان ينشد العبد واقفاً بين يديه، ولم ينشد الحرّ إلا قاعداً.

ووعده كافور بالولاية فاستنجزه الوعد، فأرهقه مطلاً وتسويفاً، فكانت نفسه الكبيرة تتألم لعبث الأسود بها، واضطرارها إلى مصانعته. وبوسعنا أن نتبين سوء حالها من تململ الشاعر في كل قصيدة مدح بها كافوراً، وإلحاحه في طلب الولاية، وتذمره على التسويف:

إذا لم تَنُطْ بي ضيعةً أو ولايةً فجودُك يكسوني، وشُغلك يَسلُب[1][2]

ولئن كان أبو الطيب بارع الفن في مدح كافور، لقد كان سيء السياسة في مصاحبته، قصير الحيلة في استمالته، ضعيف النظر في استبصار فطنته، فإنه ما كاد يدخل عليه لينشده أول قصيدة صنعها فيه حتى فاجأه بطلب الولاية، وأظهر له غرضه من مجيئة إليه، فقال في يائيته:

وغيرُ كثيرٍ أن يزورك راجلُ فيرجعَ ملكاً للعراقين واليا[3]

---

(١) تنط بي: تفوض إلي: يقول: إن شغلك عن إجابة طلبي يسلب مني ما يكسوني إياه جودك.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ١٩٢.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص٥٠٧.

فعلم العبد أن أبا الطيب طامع فيه، فساء به ظنه، ومناه الوعود الكاذبة. وأبت نفس المتنبي في جبروتها أن تستتر مع رغبتها في اصطناع التزلف، فطفق الشاعر يتغنى بفضله ويتسامى إلى مقام الملوك فيقول:

وفؤادي من المُلوك، وإن كا ن لساني يُرى من الشُّعراءِ [1]

ولعل كافوراً خاف من طمعه وطموحه فعالجه بالمطل، أو لعله شك في صلاحه للسياسة والتدبير لما رأى من تهوره، وقلة مبالاته. وأحس أبو الطيب ضعف ثقته به فخاطبه يقول:

إذا كنت في شكٍ من السيف فابله، فإما تنفيه، وإما تعدُّه[2][3]

ولكن الأسود لم يشأ أن يبلو هذا السيف، بل تركه متقلقلاً في قرابه. ولو اقتصر الشاعر على طلب الولاية، والاعتداد بنفسه لهان بعض الشيئ على كافور، ولكن أبا الطيب حسب العبد مغفلاً ولا يفطن لما يقوله له فجعل يتنادر عليه في مدحه، ويسخر به في أسلوب موجه[4] ولو خفى على كافور لما كتمه إياه ابن حنزابة وهو يكره الشاعر ويتمنى إسقاطه. وما نُرى أنه يخفي على كافور تعابث المتنبي في قوله:

وما طربي، لما رأيتُك، بدعةً، لقد كنتُ أرجو أن أراك فاطربُ[5][6]

قال الواحدي:(هذا البيت يشبه الاستهزاء لأنه يقول: طربت على رؤيتك كما يطرب الإنسان على رؤية المضحكات." وقال ابن جني: (لما قرأت على أبي الطيب هذا البيت قلت له: (ما زدت على جعلت الرجل أبا زنة، وهي كنية القرد، فضحك.) ولا نرى أنه يفوت العبد الذكي، أن يكتنه الذم بمعرض المدح في قوله:

فَمَا لكَ تَخْتَارُ القِسِيَّ وَإنّمَا عَنِ السّعْدِ يُرْمَى دونَكَ الثّقَلانِ[7]

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٤٠٤.

(٢) إيله: امتحنه . تعده: تختاره وتهيئة.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ٧٢٧.

(٤) موجه: ذو وجهين.

(٥) البدعة: ما أحدث من جديد غير مسبوق إليه، وهي منصوبة على أنها خبر ما . فأطرب معطوفة على ارجو ، أي فاطرب رجاء رؤيتك.

(٦) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ١٩٥.

(٧) الثقلان: الإنس والجن. أي يرمي الثقلان عن قوس سعدك.

وَمَا لكَ تُعْنى بالأسِنّةِ وَالقَــنَا وَجَــدُّكَ طَعّانٌ بِغَيـــــرِ سِنَانِ[1]

وَلِمْ تَحْمِلُ السّيفَ الطّوِيلَ نجادُه وَأَنْتَ غَنيٌّ عَنْهُ بالحَـــــدَثَانِ[2][3]

فإن تقول لإنسان: (نم واطمئن فالحظ يخدمك.) لأقرب إلى التهكم منه إلـــى المدح.

ومهما يكن عليه كافور من الغرور بالنفس، لا نحسبه يُخدَع بشاعر يفضله على الشمس بشمس سواده، وإن جعل وجه الشبه ضياء مجده:

تفضـــحُ الشمسَ كلما ذرتِ الشمس بشمسٍ مُنيرةٍ ســـــوداء[4][5]

إن في ثوبكَ الذي المجدُ فيه لضياءً يُزري بكل ضياءِ

فذكر الشمس السوداء كافٍ لأن يبعث السامع على الضحك والاستغراب. وقد علمت أن كافوراً فطن ذكي، فهيهات أن تذهب عنه مرامي الشـــاعر، وأن تغافـــل عنها، وصرها إلى وجهها الصالح صوناً لكرامته وأجاز عليها أبا الطيب وقر به، ولكنه عرف من أين يأتيه، فينتقم منه، فإنه مازال يعده بالولاية ويماطله حتى أتلف انتظاراً، وأشعل في قلبهُ حرقاً.

وجملة القول أن مدح المتنبي جيد بارع لولا غلوه الممقوت، وأفخمه ما جاء في سيف الدولة، وأبرعه ما جاء في كافور.

رثاؤه:

يختلف رثاء المتنبي باختلاف صلته بالمفقود، وشعوره بوقع المصاب، فقـــد اضطر إلى رثاء أشخاص لم يحزنه الرؤية بهم، فجاء شعره متصلب العاطفة، فاقد الشعور، كرثائه لأم سيف الدولة وابنه وأخته الصـــغرى، ولمحمـــد بـــن إســـحق التنوخي، ولعمه عضد الدولة. ولكنه ستر عجزه بإرسال الحكم البليغـــة ووصـــف المأتم والجنازة ومدح الميت وآله. وأن نفساً كبيرة كنفس أبي الطيب، تهزأ بالدهر

---

(١) جدك: حظك.

(٢) لم: بمعنى بفتح الميم، والتسكين مخصوص بالشعر، يقول: الحدثان تحارب أعداءك فلماذا تحمل الســـيف لمحاربتهم؟

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٤٧٦.

(٤) ذرت : طلعت.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ١٠٣.

ومصائبه، ويغلب عليها العقل أكثر من العاطفة، لا يهون على الدهر أن يذلها ويلينها، فهاجر عليها من حوادثه وخطوبه. ولكن قد تمر بها أحوال قاهرة تخضعها للعاطفة ولو زمناً يسيراً، فتتصاعد منها زفرات، وتنحدر دموع، كما جرى للشاعر في رثائه جدته لأمه، وأبا شجاع فاتك، وأخت سيف الدولة الكبرى، فإنه ذرف على هؤلاء الثلاثة ثلاث دمعات صادقات. فقد ماتت جدته بالكوفة وهو بعيد عنها، وكان قد طال غيابه بعد أن أخفو في دعوته، فبرح بها الشوق، فأرسلت إليه كتاباً تطلب منه أن يحضر، فشخص إلى العراق، ولكنه تعذر عليه دخول الكوفة، لأسباب غير واضحة، فجاء بغداد، وكتب إليها يسألها المسير إليه، وكانت قد يئست فقبلت كتابة شوقاً، وغلب عليها السرور فحُمت وماتت. وأرسل الدمعة الأولى أخر دمعة رؤى بها تراب ميت :

لكِ اللهُ من مفجوعةٍ بحبيبها قتيلة شوقٍ غير مُلحقها وصما
إحنُّ إلى الكأسِ التي شربتْ بها وأهوى لمثواها الترابَ وما ضما[1]

ومات أبو شجاع فاتك، بعد خروج المتنبي من مصر، وكان أبو الطيب بحبه لشجاعته وكرمه، فرثاه متوجعاً، ذارفاً دمعته الثانية على ضريح ميت:

برد حشاي إنِ استطعتَ بلفظةٍ فلقد تضرُّ، إذا تشاءُ، وتنفعُ
ما كان منكَ إلى خليلٍ قبلها ما يُستُترابُ به ولا ما يوجعُ[2]

وماتت أخت سيف الدولة الكبرى وهو في الكوفة، بعد رجوعه من مصر، فكان في رثائه إياها صادق العاطفة، بين اللوعة، مما يدل على إخلاصه المودة لها. فجاءت دمعته على قبرها خاتمة دمعاته الثلاث:

ولا ذكرتُ جميلاً من صنائعها، إلا بكيتُ، ولا وُدّ بلا سبب
قد كان كلُّ حِجابٍ دون رؤيتها، فما قنعتِ لها يا أرضُ بالحُجب[3]

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ١٨٠.
(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ٤٨٢.
(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ١٤٠.

والمتنبي في رثائه مثله في مدحه، يخاطب المرئي مخاطبة المحب لحبيبه، ويؤخذ عليه أنه لم يجتنب هذه الخطة في رثاء الأميرات، فقد خاطب أم سيف الدولة بقوله:

بعيشك هل سلوتِ فإنّ قلبي، وإن جانبتُ أرضكِ، غيرُ سالِ[١]

وقال في أخته الكبرى:

يعلمن حين تحيا حُسن مبسمها وليس يعلمُ إلا اللهُ بالشنبِ[٢][٣]

وما رثى امرأة إلا رفعها من الأنوثة إلى الذكورة، متأثراً بعقلية عصره، فإنهم كانوا يحتقرون المرأة، ويعدونها ضعيفة، مهيضة الجناح وكان أبو الطيب يحب القوة، ويأنف أن يرثي ضعيفاً، فجعل مرثياته ذكور وربما فضلهن على الذكور، قال في أم سيف الدولة:

ولو كان النساءُ كمنْ فقدنا لفضلتِ النساءُ على الرجالِ[٤]

وقال في اخته الكبرى:

وإن تكنُ خلقت أنثى، لقد خُلقتْ كريمة غير انثى العقل والحسبِ[٥]

وقال في عمة عضد الدولة:

ويُظهر التذكيرُ في ذكره ويسترُ التأنيثُ في حُجبه[٦][٧]

هذا وإن أحسن حلية تتحلى بها مرائي أبي الطيب هي الحِكم والأمثال.

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٧٤.

(٢) يعلمن: الضمير لأتراب المرثية، الشنب: برد الريق، قال الواحدي: (وأساء في ذكر حسن مبسم أخت ملك، وليس في العادة ذكر جمال النساء في مراثيهن).

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ١٣٩.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٧٥.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ١٤٠.

(٦) الضمير في ذكره وحجبه يعود على شخص المرثية،: يقول: أنها امرأة في خدرها ، ولكنها ذكر إذا ذكرت مساعيها للمعالي.

(٧) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ٢١٢.

غزله:

ليس في أخبار أبي الطيب ما ينبئنا أنه أحب يوماً، ولا في شعره ذكر لمحبوب يردد أسمه، ويشبب به، ويتشوق إليه، وقد تزوج المتنبي، ورُزق ولداً، ولكنه لم يحدثنا بشعره شيئاً عن امرأته وحبه لها، ولو لم نعلم أن له ولداً لجهلنا أمر زواجه لأن مؤرخي الآداب سكتوا عنه.

وكان أبو الطيب متعففاً يرغب عنها الملاهي ومكانس الريب، والقيان والحب الفاجر، فخلا غزله من التعهر والمجون، غير أنه تسرى بالجواري التي أهديت إليه، والتسري عندهم ممنوع.

وهو في غزله يؤثر البدويات على الحضريات، وقديماً كان الغزل المتعفف في خيام الأعراب، وليس له غزل متحضر إلا في شعره الذي قاله وهو في بلاد فارس، فإن ديار العجم ذكرته بوطنه الذي نشأ به، فحنَّ إلى ديار الشام، وذكر نساءها، وتعزل بهن، ولكن إن هي إلا خطرة عرضت حتى عاد إلى البدويات كأنه لا يجد ارتياحاً في ذكر نساء الحضر.

وغير عجيب أن يأنس المتنبي بالأعرابيات وقد تمضى شطر عمره الذي تشتغل فيه نار الحب، وهو يتردد في قبائل البادية، فتفتقت أكمام عاطفته على بسمات البدويات، فشغف بهنّ، ولم يرقه إلا حسنهن، لأنه جمال مطبوع لا مصنوع، وهو يكره التمويه والطلاء:

ما أوجهُ الحضر المُستحسنات به ... كأوجه البدويات الرعابيبِ[1]

حُسنُ الحِضارةِ مجلوبُ بتطريةٍ ... وفي البداوة حُسنٌ غير مجلوبِ[2]

افدى ظباءَ فلاةٍ ما عَرفنَ بها ... مضْغَ الكلامِ ولا صيغَ الحواجيبِ[3]

وكان يُكرر النزول في بني عَدِيّ وهي قبيلة ضاربة بأرض سليمة من عمل حمص، فشبب بالعدويان وجعلهن عرائس شعره دون أن يسمى واحدة منهن:

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ١٨٣.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ١٨٤.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ١٨٤.

لولا ظباءُ عدِيٍّ ما شَغفتُ بهم ولا بربر بهم لولا جَآذره[1][2]

على أن غزل المتنبي لم يكن قوي العاطفة لأن اشتغال الشاعر بطلب المعالي لم يترك له متسعاً من الوقت فيفرغ للحب والنساء وكان له من نفسه المتصلبة وازع عن الاستسلام لعوامل الهوى، فإذا نسب فلا تبعاً للأسلوب القديم، وأرضاء للفن، لا تلبية لجرس فؤاده الخافق، او تخفيفاً لعواج أشواقه، ولطالما أراد التغزل فاخشوشن فأسمعك في صباه:

أيا خدد الله ورد الخدودِ وقد قدود الحسانِ القدودِ[3][4]

وأسمعك في شبابه:

أركائبَ الأحباب إن الأدمُعا تطِسُ الحدود كا تطسن اليرمع[5][6]

وأسمعك وهو على قمة كهولته:

ألا كلُّ ماشيةِ الخيزّلي فِدى كلِّ ماشيةِ الهَيْذ بى[7]

وقد تجد له غزلاً يروقك، فإذا تدبرته رأيت أن إعجابك به ناجم إما عن صنعه تستحسنها وإما عن معنى جميل تستلطفه، لا لأنه حرّك فيك عاطفة كامنة، كقوله:

ولما التقينا، والنّوى ورقيبُنا غفولان عنّا، ظلتُ أبكي وتبسم[8]

فلم أر بدراً ضاحكاً قبل وَجهها ولم ترَ قبلي ميتاً يتكلمُ[9]

وأكثر عنايته بأن يغوص على المعاني الدقيقة ويستخرجها من مكامنها، وأن يدخل الفلسفة على الحب، فإذا صح أن تسميه غزلاً في مثل هذه الحال، فهو

---

(١) الربرب: القطيع من بقر الوحش ، والمراد به جماعه النساء ، والمراد بالظباء النساء. الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوشية، والمراد بهن التيات.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ٣٨٣.

(٣) خدد: شقق ، قد: قطع طولا ، الحسان القدود : إضافة لفظية.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٢٨٧.

(٥) الركائب: جمع ركاب وهي الإبل ، تطس: تضرب بشدة ، اليرمع : حجارة رخوة.

(٦) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٤٧٤.

(٧) الخيزلي: مشية النساء فيها تثاقل وتفكك . الهيذبي : ضرب من مشى الخيل فيه جد.

(٨) ظلت: أي ظللت.

(٩) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٦٥.

فيلسوف الغزلين وغزل الفلاسفة، وقد يجيء بالأشياء الحسنة لما فيها من قوة التفكير، ودقة المعنى، وقد يعتاص عليه اللفظ فما ينجلي له الكلام، وربما تبغض فيه وتبرد، ومهما دار الأمر، فإن أرضت الفلسفة في الغزل الأدباء أو المفكرين، لا نراها ترضي حبيباً مرحاً لعوباً، تعوّد أن يفهم لغة العاطفة، لا لغة العقل، وهيهات أن يكون له صبر على اجهاد فكره لتفهمه غزلاً خفي المعنى أو معقد اللفظ قيل فيه، وماذا يهمه من تفلسف أبي الطيب في وضع قانون الصبابة للمحبين ليصح أن يسموا عشاقاً:

جُهدُ الصبابةِ أن تكون كما أرى عينٌ مسهدةٌ، وقلبٌ يخفُقُ[١]

أوليس من التبرد ان يوغل شاعرنا في التفلسف، فيختلق الأعذار للنوى، ويجعل منها شخصاً عاشقاً حبيبه:

ملامي النوى في ظلمها غايةُ الظلمِ لعل بها مِثلَ الذي بي من السُّقمِ[٢]

وذهب بعض غزل أبي الطيب مذهب الأمثال لما فيه من فلسفة الحياة وفي الحب كقوله:

زودينا من حُسن وجَهكِ ما دا مَ، فحُسنُ الوجوه حالُ تحولُ[٣]

وصلينا نصلك في هذه الدنيا فإن المُقامَ فيها قليلُ

فهذا أولى بأن يبعث الزهد والنسك في النفوس من أن يضرم نار الحب والصبابة، ومن ذلك قوله:

وما صبابةُ مشتاقٍ على أملِ من اللقاء، كمشتاقٍ بلا أملِ[٤]

والهجرُ أقتلُ لي مما أراقبهُ أنا الغريقُ فما خوفي من البللُ[٥]

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٢٧.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٤٢.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ١٥١.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ١٠٧.

(٥) قوله مما أراقبه: أي مما ارقبه من فت أهلها بي لشجاعتهم ، ودفاعهم عن أعراضهم وقبلهك

متى تزر قوم من تهوى زيارتها لا يتحفوك بغير البيض والأسل

وقوله:

إن القتيلَ مضرَّجاً بدمُوعهِ مثلُ القتيل مضرجاً بدمائه[١]

وما هكذا لغة المحبين، وبعيد أن يستميل صبٌّ حبيبه بالإعتماد على المنطق والأدلة العقلية.

وشيء آخر يميز غزل المتنبي وهو مزج الحب بالحماسة، وخلط ألفاظ الحرب بألفاظ النسيب،وأبو الطيب شاعر فارس، ومن عادة الشعراء الفرسان أن يصطبغ حبهم بدماء الحروب:

وما كلُّ من يهوى يَعف إذا خلا عفافي ويُرضي الحُبّ والخيلُ تلتقي[٢][٣]

وقد يكون المتنبي أحب كما يزعم، غير أن الحب لم يشغل فؤاده، فيتيمه ويذله، وأراد أن يتغزل أسوة بغيره، فجاء غزله فلسفة وصنعة وأنى لنفسه الجبارة أن تخضع للحب وتلين؟ وهي لا تصبو لغير ركوب الأهوال، وبلوغ المراتب العليا، فما حبها إلا القوة تحيط بها السيوف والرماح، ولقد أحسن أبو الطيب في تعريف حبه حين قال:

تقولينَ ما في الناس مثلك عاشقُ جدي مثل من أحببتُه تجدي مثلي[٤]

مُحبٌّ كنى بالبيض عن مُرهفاته وبالحسنِ في أجسامهن عن الصقل[٥][٦]

وبالسُّمْرِ عن سُمر القنا، غير أنني جناها أحبائي، واطرافُها رُسلي[٧]

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ٨٧.

(٢) إذا خلا: أي خلا بمن يحب ن يرضي الحب: أي يحمي من يحبها فما تسبي .

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ١١٢.

(٤) مثلك: حال عن عاشق ، جدي: أمر من وجد.

(٥) البض: السيوف ، مفردها أبيض ، وجمع بيضاء أي امرأة بيضاء ، يقول: أنه يكني بالبيض عن السيوف لا عن النساء، ويكني بالحسن عن صقل السيوف لا عن بضاضة أجسام النساء.

(٦) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٢٣٨.

(٧) يقول : واكني بالسمر عن سمر الرماح لا سمر النساء ، جناها أحبائي: أي ما تجنيه من الدماء، وأطرافها رسلي: أي أطراف الرماح رسلي التي تذهب إلى أحبائي، وتجمع بيي وبينها.

الفصل الثاني

الفخر الهجاء الوصف

فخره:

لا يُستغرب الفخر في شاعر شجاع باسل متكبر كالمتنبي، فعنصر الفخر مركب في طباعه، رافقه منذ صباه حتى وافته منيته، فقد كان صبياً يوم سمت به همته إلى ان يقول:

أي محلٍ أرتقي، أي عظيمٍ أتَّقي[1]

وكلُّ ما قد خَلقَ الله وما لم يخلق

مُحتقرٌ في همتي، كشعرةٍ في مفرقي

وفي هذه الأبيات الثلاثة وضع خطة الفخر التي سار عليها طوال حياته، وهي الارتفاع بنفسه إلى أعلى الدرجات، وتحقير غيره والإزدراء به، فأبوالطيب في فخره كثير الاعتداد بنفسه، لا يجد لها صنواً، والناس كبارهم وصغارهم، ملوكهم وسوقتهم، محتقرون عنده.

وليس للشاعر قصائد مستقلة في الفخر، وإنما هي أبيات يوردها في أثناء شكاويه ومدائحه وأهاجيه ومرائية، وأعجبها ما جاء في قصائد المدح وهي كثيرة، فإنه يجعل نفسه في الثريا شرفاً وخيراً بحيث يصبح كل ما يقوله في ممدوحه لا يعادل ذرة مما قاله في نفسه، فكأن نفسه الكبيرة تأبى عليه أن يطري أحداً قبل أن يؤدي لها حقها من التعظيم والإكرام، وأعجب من هذا أن ممدوحيه كانوا يسمعون تبجحاته وتمدحاته، ويرضون عنها ويقبلون مديحه، ويجيزونه عليه؛ فكان كمن يستبيهم بقوة شعره، وسحر بيانه، فيتخذون له ولا يستنكفون فما قولك بشاعر يمدح أميراً ويصدر مدحته بأبيات يقول فيها مفتخراً:

وكيف لا يُحسدُ امرؤٌ علمٌ له على كل هامةٍ قدمُ [2][3]

فمهما يقل من مديح في الأمير لا يبلغ به مبلغ هذا البيت الذي وضع فيه قدمه على الرؤوس غير مستثنٍ رأس ممدوحه، أو ليس عجيباً أن يدخل الشاعر على سيف الدولة معاتباً مسترضياً فيخاطبه بقوله:

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٢.

(٢) علم : سيد عظيم .

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٣٥١.

سيعلمُ الجمعُ ممن ضم مجلسنا، بأنني خيرُ من تسعى به قدمُ

وغير ذلك من أبيات كلها صلف وتعريض، ثم يرضى عنه سيف الدولة ويدنيه ويجيزه مع أن أبا الطيب لم يقل له كلمة لينة إلا أردف معها كلمات عنيفة، فقد جاءه من علُ وملأ مسامعه وناظريه كبراً وتعجرفاً، وفتن الأمير بقوة شعره، فاغتفر له سيئاته، وتغافل عما نعت به نفسه من أوصاف لم تنعت بمثلها الملوك.

ومفاخر المتنبي تتناول حيناً آباءه، وأحياناً نفسه، وهو إذا افتخر بآبائه يجمل القول فما يعدد لهم مآثر، ولا يذكر لهم أياماً، ولا يتباهى بأسمائهم وإنما يقول:

ولو لم تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ لكان أباكِ الضخمَ كونُكِ لي أما[١]

وإني لمن قومٍ كأن نفوسنا بها أنفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعظما[٢]

وإما إذا افتخر بنفسه، فإنه يتسع له مجال القول فيباهي بشجاعته وصبره وعفته وإبائه، وشعره وفصاحته فتراه يتحرى الزمان ليبارزه:

ولو برزَ الزمان إلي شخصاً لخضبَ شعرَ مفرقة حُسامي[٣]

ولا يقبل حكماً إلا لله:

تغربَ لا مستعظماً غير نفسهِ ولا قابلاً إلا لخالقه حُكما[٤]

وإذا سأل متكسباً كان الفخر حشو سؤاله، فإنه يُظهر للممدوح قيمة شعره، فهو كالدر لا يغبن من يعطي عليه دراً:

لك الحمدُ في الدُّرِّ الذي لفظه، فإنكَ مُعطيه وإني ناظمُ[٥]

ويعرض للشعراء فيرمي بهم إلى اسفل، ويحلق فوقهم مغرداً، ومدلاً بشاعريته على ممدوحه فيقول:

وَدَع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكيُّ والأخرُ الصدى[٦][٧]

وقلما خلت قصيدة لأبي الطيب من أبيات الفخر، ولاسيما مدائحه.

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٨٤.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٣٨٥.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٤١.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٨٤.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٠٥.

(٦) المحكي : الذي يحكي به ، أي يكون غيره حكاية له.

(٧) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٢٥٩.

هجاؤه:

لم يصطنع أبو الطيب الهجاء آلة للتكسب كما اصطنعه بشار ودعبل وابن الرومي، فالمتنبي أعز نفساً من أن يهبط بها إلى هذا الدرك. وإنما اصطنعه عادة للكفاح يؤذي بها من أذاه، ويدرأ بها عن نفسه، ولا نعدُّ هجاءه في كافور من قبيل التكسب لأنه لم يهجه مهدداً ليعطيه، أو مستقبلاً عطاءه. وإنما هجاه لأن كافوراً آلمه في صميم فؤاده، إذ عبث به عبث الوليد بلبته حتى إذا ملأها أطرحها وحطمها، فقد استقدم كافور أبا الطيب، وكان هذا يأنف أن يتصل به، ووعده بأن يُقطعه ولاية يدبر أعمالها، ثم ماطله وكذب عليه، واستأثر به، ومنعه براح مصر. فهذه الأمور أحبطت الشاعر وزادته كرهاً للعبد فهجاه. وكذلك هجوه لابن كيغلغ فلو لم يؤخره عن السفر لما هجاه، وهكذا هجاؤه لضبة، فإن رفاقه الكوفيين هم الذين حملوه على هجوه، ولم يكن يريده، وليس له في غير هؤلاء الثلاثة هجاء يستحق الذكر إلا أبياتاً مبثوثة في عدة قصائده ذم بها الزمان وأهله، والملوك والحساد والشعراء، فجاءت وليدة الألم والتنافس، والدفاع عن النفس، وحب الذات، والاستئثار بالنفوذ وجوائز الأمراء. وحبُّ الاستئثار بالجوائز يرجع عند المتنبي إلى التنافس والاعتداد بالنفس أكثرها مما يرجع إلى الرغبة في التكسب كما يدل على ذلك شعره.

وهجاء أبي الطيب مقذع يؤلم الأعراض، فاحش الألفاظ والمعاني، يمتاز في تلك القوة التي تتغلغل في أجزائه، هي قوة نفس الشاعر العاتية، وفي تلك الأمثال الحكمية التي يتحلى بها جميع شعره، ثم في ذلك التشاؤم الذي تضاعف في صدره بعد الأخفاق المتواصل، فجعله ناقماً على الدهر وبينه، ثم في اشمئزازه من المهجو واحتقاره له، حتى لا يكاد يخاطبه إلا بصيغة التصغير، ثم في تصويره السخري له حتى يجعل منه أضحوكة شوهاء فيصيبه بخلقه وخلقه ومنزلته الاجتماعية.

وسخر أبي الطيب بعيد من أن يكون فيه نكتة لطيفة، أو شيء من الظرف، وإنما هو تهكم حادٍ جارح يعجب أكثر مما يضحك، وأبرع هجاء قاله كان في كافور فإنه افتتن فيه ما شاء له الفتن، فأرضى به نفسه المتألمة، الثائرة على العبد

المتملك. وكافور عند أبي الطيب كُويفير بصيغة التصغير، وكناه أبو النتين، وأبو البيضاء. وألقابه الخنثي، والأسيود، والخنزير، والخصي، والنويبي وماشاكل.

ولم يكثر الشاعر من الهجاء وكان في هجائه يأتي بحكم يجعلها قواعد عامة تخضع لمبدأ أو خلق وكثيراً ما يلجأ إلى التهكم أو استعمال ألقاب تحمل في موسيقاها معناها وتشيع حولها جو السخرية بمجرد اللفظ بها كما أن السخط يدفعه إلى الهجاء اللاذع في بعض الأحيان وقال بهجو طائفة من الشعراء الذين كانوا ينافسون عليه مكانته.

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر * ضعيف يقاويني قصير يطاول
لساني ينطق بنطقي صامت عنه عادل * وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعب من ناداك من لا تجيبه * وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما النية طبي فيهم غير أنني * بغيض إليَّ الجاهل المتعاقل[1]
من أية الطرق يأتي نحوك الكرم * أين المحاجم يا كافور والجلم
جاز الأولى ملكت كفاك قدرهم * فعرفوا بل أن الكلب فوقهم
لا شيء أقبح من فحل له ذكر * تقوده أمة ليست لها رحم
سادات كل أناس من نفوسهم * وسادة المسلمين الأعبد القزم
ألا فتى يورد الهندي هامته * كما تزول شكوك الناس والتهم
فإنه حجة يؤذى القلوب بها * من دينه الدهر والتعطيل والقدم
ما أقدر الله أن يخزي خليفته * ولا يصدق قوماً في الذي زعموا
أغاية الدين أن تحفوا شواربكم * يا أمة ضحكت من جهلها الأمم[2]

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ١٣١.
(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٤١٤.

وصفه:

لم يُعن المتنبي بوصف الطبيعة، والتغزل بجمالها، والإفضاء بما توحي إليه أسرارها، ولم يتلفت إلى قصورها وحدائقها، ولا إلى حلقات اللهو وأدواته لأن نفسه كانت أبعد هماً من أن تفرغ لهذه الأشياء، فقد شغلها حب المغامرات وطلب السيادة والتملك فلم يجد قبلها غير القوة تصفها على اختلاف صورها وهياكلها، فاتبعها يتقرّاها في مواطنها، فنظر إلى الطبيعة على قلة احتفاله بها فلم يبدُ له منها غير القوة فوصفها في بحيرة طبرية، فإذا أمواجها فحول مزبدة وطيورها فرسان على خيول بلق، ورياحها جيشاً وغَّى، هازم ومنهزم[1]. وأصابته الحمّى وهو في مصر، فما كاد يصفها ببضعة أبيات لطيفة حتى أخذ يتشوق إلى يوم تعود به إليه صحته، فيتمكن من أن يصرف عناناً أو زماماً، ويحمل قناة أو حساماً، ووصف إنشاء ابن العميد في كتاب ورد منه عليه، فلم يجد فيه غير أسود مفترسة، فالقوة ماثلة في جميع أوصاف المتنبي، تتبنها في تشابهه واستعاراته في ألفاظه وعباراته وفي غلوه وتخيلاته، وأحسن الوصف عنده ما صح أن تتمثل القوة فيه، كوصف أسدٍ ضارٍ يطلب فريسه، ووصف خيول مغيرة تثير غباراً، وجيش زاحف غارق في الزرد، وسيوف مسلولة، ورماح مشرعة، ومعارك حامية الوطيس تضاربُ فيها الأبطال وتطاعن.

وأبدع في وصف الأخلاق وتصوير الحياة، والأشخاص، وصوره مادية واقعية، قلما بث فيها روحاً أرفع من روحها، ولكنه يرفعها بالأغراق والتكبير و جمال الفن، فما أسده أسداً عادياً ولا شخصه إنساناً بشرياً ولا جيشه جيشاً مألوفاً، وإنما هي اشياء متطرفة عن حدودها تطرف نفسه الجبارة وخياله العنيف الجامح.

وقد وصف الأسد في قصيدة مدح بها بدر بن عمار لما عفر الليث بسوطه ودار به الجيش. ومثل هذه المشاهد الراعبة تثير إعجاب أبي الطيب، فبالغ في

---

(١) نستثنى وصفه للطبيعة في شعب بوان، وهو سائر إلى عضد الدولة ، فإنه لطيف ناعم خارج عن مألوفه، ولا ندري ماذا أوحت إليه بلاد الفرس، وماذا كان من تأثيرها في نفسه، فإنه حن بها حنيناً صادقاً إلى وطنه الشامن وهي المرة الأولى التي يعرف بها المتنبي وطناً يرتاح إلى ذكره، وذكر القيان الدمشقات وهي المرة الأولى التي يأنس فيها بذكر الحضريات دون البدويات، ووصف الطبيعة وصفاً لطيفاً ، ولم يسبق له وصف مثله قبل ذلك الحين.

وصف الأسد ما شاءت له شاعريته، وشاء خياله المبدع، وهذه المبالغة كلها مدح لبدر لأنه أذل بسوطه ليثاً هصوراً نضد هام الرفاق تلولاً، ووصف المعارك فكان كما قال فيه ابن الأثير: (إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها، وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها، حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا، والسلاحين قد تواصلا.)

وهذه المعارك هي التي شهدها مع سيف الدولة، فأجاد وصفها، ولم يبرع في وصف الحروب إلا عند صاحب حلب.

ووصف الجيوش والمعارك أروع شعر المتنبي وأفخمه، ولولاه لما جاءت مدائحه في سيف الدولة أجل من مدائحه في غيرهن فقد كان مصوراً بها لحروبه، ومؤرخاً ومخلداً، ومن العدل أن نقول إنه لم تجتمع عبقرية المتنبي، وهمة سيف الدولة في الحروب، لما خرج هذا الشعر الرائع.

وقال يصف مجلسين لأبي محمد الحسن بن عبد الله بن طغج[1].

المجلسان على التمييز بينهما * مقابلان ولكن أحسن الأدبا[2]

إذا صعدت إلى ذا، مال ذا رهبا * وإن صعدت إلى ذا مال ذا رهبا

فلسفته وآراؤه في الحياة:

للشعر أغراض متفاوته يمتاز بعضها عن بعض، ويعلو بعضها على بعض، ونرى ان أعلاها ثلاثة، فالأول الغزل وما يتبعه من تشبيب بحسن المحبوب وتصوير لأخلاقه، ووصف لمشاعر النفس في حالتي اللذة والألم، والثاني وصف الطبيعة، واستجلاء أسرارها، والاتصال بمحاسنها وألوانها، والثالث النظر في الحياة، وما يتعلق بها من عادات الناس وأخلاقهم، وطبائعهم وأذواقهم، ولذاتهم وآلامهم، وتآلفهم وتخالفهم، وسياساتهم واجتماعاتهم، فإذا قسنا العبقرية في الشاعر على هذه الأغراض الثلاثة، فالمتنبي خاسر في الغرضين الاولين، رابح في الثالث، بل معتصب بأوج اكاليل العبقرية، متبؤئ أعلى مراتبها فهو لا جرم

(١) ديوان المتنبي وضعه عبد الرحمن البرقوقي، ص ١٧٣.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ١٧٣.

فيلسوف الحياة، لأن فلسفته مأخوذة من صورها وأسفارها[1]، فقد كان لأبي الطيب من حياته وحياة عصره عبر ومواعظ اعمل فيها فكره، وبنى عليها آراءه، وكان له من اطلاعه على الفلسفة العربية اليونانية عون على إبراز فكره ناضجاً، مشبعاً بالأحكام السديدة، فكتبت له فلسفته صك الخلود، وسارت أمثاله على افواه الأجيال تطوي وراءها العصور والقرون.

والمتنبي، كما علمت يحب القوة فغير عجيب أن تقوم آراؤه في الحياة على تعظيمها، وتعظيم القوة يكاد يكون من خصائص الفلسفة العربية منذ طورها الجاهلي إلى عصر أبي الطيب، فقد كان العرب في بداوتهم يعيشون بالغزوات والغارات، فجاءت حكمة شاعرهم ممزوجة بالقوة كما قال زهير:

ومن لم يذُدْ عن حَوضِه بسلاحهِ يهدّم، ومن لا يظلِم الناسَ يظلمِ

ثم جاء الإسلام قائماً على الجهاد، فلم يجد الشاعر المسلم غير القوة عتاداً، فبشر بها وأشاد بذكرها، والمتنبي أحد أولئك المبشرين الذين رفعوا للقوة هيكلاً عالي الدعائم، ويختلف عن غيره في أنه كان يبني فلسفته على مشاعر نفسه ورغباتها، فهو لم يعظم القوة إلا لأنه أحبها، وجاهد في سبيلها، ولم يرَ للحياة معنى إلا بها.

وقد يحب الإنسان القوة ويعظمها، ولكنه يرحم الضعف ويعطف عليه، وأما المتنبي فقد ازدرى الضعيف، وسخر منه، وتنادر عليه:

وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ طلب الطَّعْنَ وحدهُ والنِّزالا[2]

ونحن نشرع الآن في تحليل فلسفته، وعرضها على حياته وحالة عصره، لنستخرج منها هذين العنصرين المتضادين ألا وهما تعظيم القوة، وتحقير الضعف، ونصل إلى الغاية التي يرمي إليها شاعرنا وهي المجد:

ذم الزمان وأهله:

أوتي أبو الطيب نفساً جبارة تسامت به إلى أرفع الدرجات، فخالفتها الأقدار، فأخفقت مراراً، فأفضى بها الإخفاق المتتابع إلى التشاؤم بالزمان وأهله، وقد تشائم

---

(١) أسفارها: أي كتبها.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ١٤٧.

بأهل زمانه لأنه رأى فيهم أعداء وحساداً يكيدونه، ويعكسون آمالـــه، ويخضـــدون شوكته، ورأى فيهم أيضاً من ساعده الحظ، فبلغ أعلى الرتب، وهو عنده لا يستحق هذا المقام، فكره زمانه، وأشار إليه بهذا تحقيراً:

أريدً من زمني ذا أن يُبلغني ما ليس يبلُغُه من نفسهِ الزمن[١][٢]

وكره أهل زمانه، وصغرهم فجعلهم أهيلاً، ورماهم بأقبح الأوصاف. فهم قوم ليس الإحسان عندهم في صنع جميل، وإنما في ترك القبيح:

إنا لفي زمنٍ تركُ القبيح به من أكثر الناسِ، إحسانٌ وإجمالُ[٣]

وفي هذا البيت حكمة خالدة مع العصور.

كره النسل:

وقاده تشاؤمه بالزمان وأهله إلى القول بكره النسل:

وما الدّهرُ أهلٌ أن تؤمل عندهُ حياةُ، وأن يُشتاقَ فيه إلى النسلِ[٤]

مصاحبة الناس

فأما وقد قضى على أهل زمانه باللؤم والقبح والظلم والجهل، فأصبح حقه أن يتهم مودتهم ودينهم:

فلم أرَ وُدَهم إلا خِداعاً، ولم أر دينهم إلا نفاقا[٥]

ويربأ بنفسه أن ينتسب إليهم:

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدنُ الذهب الرغام[٦][٧]

سخطه على الملوك:

وأبو الطيب ساخط على الملوك، يريد الشر لهم لأمرين، أولهما أنه يرى من حقه أن يرتفع إلى منازلهم لأن فؤاده منهم:

---

(١) يقول: أكلف زمني هذا هماً كبيراً يعجز الزمن عن بلوغه.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٤٦٧.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٢٣٨.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٩٤.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ١٠.

(٦) الرغام: التراب.

(٧) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٥٨.

وفؤادي من الملوكِ، وإن كان لساني يُرى من الشُّعراء

والثاني تأمله من رؤية من تجري معهم التقادير، وهم جهال فتُعلى لهم العروش بعد خمول ذكر، وقد حاول أن يوطئ له عرشاً، فلم يفلح فنقم منهم، وراح يشتمهم، ويتمنى هلاكهم:

ولا أعاشرُ من أملاكهم أحداً إلا أحق بضربِ الرأسِ من وثن[١]

اعتقاده بالحظ:

ونشأ من هنا اعقاده بالحظ، فقضى أن العاقل غير مجدود:

وما الجمعُ بين الماء والنار في يدي بأصعب من أن أجمع الجدّ والفهما[٢]

وكان كافور مجدوداً لأنه مغفل في نظره:(وجدّك طعانٌ بكلِ سنان).

الحياة والموت:

ولو كان غير المتنبي أصيب بالإخفاق المتواصل في حياته لأفضى به ذلك إلى الإذعان والخنوع، ولكن أبا الطيب لم يزده الإخفاق إلا عزماً وإقداماً، وأبى أن يقر بخيبته وعجزه، فلم يفتأ يجاهد الأيام ويعارك الليالي فما يسقط في المضمار إلا نهض قائماً وهو يقول:

تريدين لُقيانَ المعالي رخيصة ولابُد دون الشهدِ من إبرِ النحل[٣]

أو يقول: وإذا كانتِ النفوسُ كباراً تعبت في مُرادها الأجسامُ[٤]

وكان يرى أن (لكل امرئ من دهره ما تعودا.) فمن عود نفسه الذي هان عليه احتماله:

من يهُنْ يَسهُلِ الهوانُ عليه وما لجُرْحٍ بميتٍ إيلامُ [٥]

ومن حمل نفسه على ركوب الأخطار هانت عليه مكارهها:

سُبحان خالق نفسي كيف لذتُها فيما النفوس تراهُ غاية الألمِ[٦]

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤٨٤.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ، ص.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٢٣٩.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٧٤.

(٦) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤٢٣.

ونظر إلى الموت فرآه ضرورياً لحياة الإنسان فقال:

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئةٍ وذهوبِ[١]

وقضى بأن طعم الموت واحد سواء مات الإنسان حتف أنفه أو مات في الحروب:

فطعم الموتِ في أمرٍ حقيرُ كطعم الموت في أمرٍ عظيم[٢]

ورأى أن لا مهرب من الموت، فاستعجز من يحذره ويخافه، على حين لا يرده حذر ولا خوف، فتولد فيه تحقيق الضعف وإيثار القوة:

وإذا لم يكُنْ من الموتِ بُد فمن العجز أن تكونَ جبانا[٣]

وأنكر أن يكون العجز من العقل:

يرى الجُبناءُ أن العجزَ عقلٌ وتلك خديعةُ الطبعِ اللئيمِ[٤]

وعلى هذه الآراء بنى صرح الحياة التي يريد أن يحياها، فإذا هي حياة القوة البالغة بصحابها إلى قمم المجد.

طلبه المجد:

وغير جدير بأبي الطيب أن يطلب من المجد أدناه، وهو يرى أن طعم الموت في الأمر الحقير مثله في الأمر العظيم، فمد نظره إلى أسمى الدرجات وقال:

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومِ فلا تقنع بما دُون النجوم[٥]

ووطن نفسه على الجهاد في سبيل المجد، فعانى الأسفار، وركب الاخطار، فما الدنيا عنده إلا غنيمة الجسور: (والبرُّ أوسع والدنيا لمن غلبا.) فأضعف ذلك فيه حب الوطن، فكان يقول: (وكلُّ مكان يُنبت العزَّ طيبُ.) أو يقول: (إنَّ الذليل غريبٌ حيثُما كانا.) ووضع خطته التي يسير عليها لبلوغ المجد فإذا هي:

ولا تحسبنّ المجدَ زقاً وقينه فما المجدُ إلا السيفُ والفتكة البكرُ

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ١١٤.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٩١.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٤٧٣.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٩٢.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٣٩١.

وتضريبُ أعناق الملوكِ، وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر[١]

وتركُــكَ في الدنيــا دويــاً كأنمــا تداولُ سمعَ المرء أنملُــه العشــر[٢][٣]

فالقوة تحوط هذا المجد من جميــع أطرافــه، فقبابــه الصــور، وموطنــه المعارك، وهدفه تضريب أعناق الملوك، ولا سلامة له إلا إذا سبح بالدماء:

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يُراقَ على جوانبهِ الدمُ[٤]

وهذه القوة التي يتعشقها شاعرنا يدعمها بأشياء ثلاثة لا غنى عنها، وهــي الشجاعة والعقل والمال.

الشجاعة والعقل:

يقدس المتنبي العقل كما يقدّس الشجاعة، لأن هذه لا تبلغ بصاحبها المراتب العليا ما لم يصحبها العقل:

فإذا هُما اجتمعا لنفسٍ مرةٍ بلغتْ من العلياء كل مكانِ[٥]

وهو وإن فضل السيف على القلم مرة في قوله:

حتى رجعتُ وأقلامي قوائل لي المجدُ للسيف ليس المجد للقلم[٦]

فقد فضله بين قوم لا يعظمون العلم، وإنما يعظمون البطش، ولكنه قضــى للعقل على الشجاعة بقوله:

الرَّأي قبلَ شجاعةِ الشجعان هو أول وهي المحلُّ الثاني[٧]

والعقل عنده لا يعادله في التعظيم إلا الشرف:

يَهونُ علينا أن تُصابَ جُسومُنا وتسْلمُ أعراضٌ لنا وعُقولُ[٨]

---

(١) الهبوات: جمع هبوة وهي الغبار ، المجر: الكثير.

(٢) تداول الشئ: تعاقبه وأخذه مرة بعد مرة.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٤٠٤.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٣٩٦.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٤٣١.

(٦) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٤٢١.

(٧) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤٣١.

(٨) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ١٢٦.

المال:

وكان يرى أن المال عصب المجد، وأن لا قوة إلا به، فعظم جانبه، ولم يسرف في إنفاقه حفاظاً على المجد أن ينهار بشلل أعصابه:

فلا مجدَ في الدُّنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدُّنيا لمنْ قل مجدهُ[١]

فحبه المال من أجل المجد وحده، فإذا ذهب المجد أصبح المال لا قيمة له ولا نفع: (ولا مال في الدنيا لمن قلَّ مجده) [٢] فالمجد إذاً هو المحور الذي تدور عليه فلسفة المتنبي في الحياة.

فلسفته الآلهية:

لم يُعن أبو الطيب بالفلسفة الآلهية عنايته بفلسفة الحياة، لأنه رآها لا تؤدي إلى نتيجة واضحة، فزهد فيها ولم يتعمق في بحثها، غير أنه ترك بعض أقوال لا نرى بأساً في أن نعرض لها موجزين، فنقول: إن الشاعر لم يشك في وجود الله تعالى، ولكنه استخفّ بالدين والأنبياء والكتب المقدسة، غير حافل. ويظهر أنه تأثر بالحوالية منذ صباه، فقد ذكر هذا المذهب وهو صبي:

نورٌ تظاهر فيك لاهويتهُ فتكاد تعلمُ عِلم ما لن يُعلما[٣]

والحلولية انتحلها جماعة من العلويين، فقالوا بأن روح الله تحلّ في أئمتهم حتى تبلغ المهدي المنتظر، ونرى أن أبا الطيب قد تلقن هذا المذهب من باطنية الكوفة، ووافقه التفكير فيه إلى أواخر حياته فإذا هو يقول في ابن العميد:

فإنْ يكُن المهدي من بان هديُهُ فهذا، وإلا فالهُدى ذا، فما المهديُّ[٤]

ولعل تأثره بهذا المذهب يؤيد الرؤية التي تذهب إلى أنه ادعى العلوية في أول أمره، وما العلوية إلا الإمام الباطن، والمهدي المنتظر.

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣٢٤.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ٣٢٤.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٣٣٠.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣٥٣.

النفس:

تكلم أبو الطيب غير مرة على النفس فقال:

فهذه الأرواحُ من جوه، وهذه الأجسامُ مِن تُربة[١]

وهذا ماذهب الماديين الذين يقولون بأن النفس من الهواء، وقال أيضاً:

والظلمُ من شيم النفوسِ فإن تجدْ ذا عِفةٍ، فلعله لا يظلمُ[٢]

وهذا قول من يرى أن الشر كامن في النفس، وهو مذهب مادي أيضاً لأن أصحابه يزعمون أن الخير في الجسم، ويخالفون في ذلك مذهب أفلاطون الذي يقول بأن الخير في النفس، والشر في الجسم، وتكلم أبو الطيب على خلود النفس قال:

تخالف الناسُ حتى لا اتفاق لهم إلا على شجبٍ، والخلف في الشجبِ[٣]

فقيلَ تخلُصُ نفسُ المرءِ سالمةًوقيلَ تشركُ جسمَ المرء في العطبِ

ومن تفكر في الدّنيا ومُهجتــه أقامهُ الفِكرُ بين العجــز والتعــب[٤][٥]

فقد أقر بعجزه عن إدراك الحقيقة، ووقف حائراً بين القوالين لا يبت أمراً، وحاول مرة أن يفسر الحالة التي تطرأ على النفس بعد مفارقتها الجسد فقال:

تمتع من سُهادٍ أو رُقادٍ ولا تامُلْ كرى تحت الرجامِ[٦]

فإن لثالثِ الحالين معنى سوى معنى انتباهكِ والمنام[٧]

ولكنه لم يخرج بهذا التفسير من حيرته وعجزه.

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٢١١.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٩٦.

(٣) الشجب: الهلاك، يقول: تخالف الناس في كل شئ، فلم يتفقوا إلا على الموت، ولكنهم اختلفوا في حقيقة هذا الموت.

(٤) المهجة: الروح.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ١٤٣.

(٦) الكرى: النعاس ويريد به النوم، الرجام: حجارة ضخمة تنصب على القبر، مفردها رجمة.

(٧) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤١٤.

المحسوسات:

لم يشك المتنبي في المحسوسات، كما أنه لم يشك في المعقولات:

وليس يصحُّ في الإفهام شيٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ[1]

الكواكب:

وكان الفلاسفة في عصره، والفارابي في مقدمتهم، يقولون بعقول الكواكب، يريدون به تأييد المذهب الانبثاقي الذي اعتمدوا عليه في تعليل خلق العالم، فلم يطمئن المتنبي إلى هذا القول، فسخر به، وأنكره:

فتبّاً لدينِ عبيد النجوم ومن يدعى أنها تعقلُ

ولكنه اعتقد تأثيرها الطبيعي في حظوظ الناس اسوة بأهل زمانه:

نفى وقعَ أطرافِ الرِّماح برمحه ولم يخشَ وقعَ النجم والدبرانِ[2][3]

على أن فلسفته الآلهية ليست مما ينظر إليه في معيار شاعريته وتفكيره، وإنما تقوم منزلته على آرائه في الحياة.

ما ادارك عليه:

كان انحدار المتنبي في مقابحه بقدر ارتفاعه في محاسنه، فجعل منها سلاحاً ماضياً بأيدي خصومه يحاربونه به، ولا نريد أن نتقصى جميع ما أدراك عليه، فهذا بحث يطول أمره، وليس محله هنا، وقد عالجه قبلنا جماعة من الأدباء المتقدمين كصاحب بن عباد، والقاضي الجرُجاني، والحاتمي، والثعالبي، الواحدي وسواهم، فبحسبك أن ترجع إلى الوساطة، أو يتيمة الدهر، أو الصبح المنبئ لتقع على ضالتك. بل حسبك أن تطالع البحث البليغ الذي ذيل به الشيخ إبراهيم اليازجي ديوان أبي الطيب فإن فيه نهاية الأرب، وإنما نحن نجتزئ بالدلالة على أنواع معايبه، وبيان أسبابها، فنقول: إن المتنبي كان يعني بتصيد المعاني ويغوص عليها في أبعد قراراتها، حتى إذا أمكنته أبرزها بالثوب الذي يتفق له فسواء عليه كان

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٤١٧.

(٢) النجم: هنا الثريا، الديوان: خمسة كواكب من الثور وقيل نجم كبير في عين الثور وهو من منازل القمر، يقول: إن هذا الرجل رد عنه قضاء الرماح برمحه ، ولكنه لم يحسب حساباً لقضاء النجوم ومناحسها، وكانت قد قضت بحلول أجله.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤٧٤.

كرابيس أو خزّاً وديباجاً. وربما ازدحمت عليه المعاني في البيت الواحد، فيلجأ في إظهارها إلى التقديم والتأخير، والحذف وتقصير الألفاظ، فيكثر تداخلـــه وتعقـــده، ويطبق عليه الغموض، فلا يحصل معناه إلا بعد كد الخـــاطر وإرهـــاق الـــذهن، واستبان للشيخ إبراهيم أن طائفة من غوامض المتنبي ليس فيها كبير معنى بحـــث لو حللتها لما رأيت للشاعر عذراً في إلباسها هذا الثوب البالي، وعزا ذلـــك إلـــى التعمية في صور التراكيب، وإلباس المعنى غير ثوبه، فقد كان المتنبي يقع علـــى المعنى الساقط فيحاول الخروج به إلى الإغراب، وعلى المعنى المسبوق فيحـــاول البعد به عن أصله، فيغير ديباجته ويتحذلق فيه حتى يفسده، وأكثر معامياته واردة في أوائل شعره قبل أن تستحكم ملكته، وكان يومئذ يحتذي خطة أبي تمام فيغـــرب ويتكلف، وينقب عن الوحشي من اللفظ، ويعتمد الصيغ الشاذة، والتراكيب الجافية، ويسرف في طلب المجاز والبديع، فمن ذلك قوله:

أحادٌ أمْ سُداسٌ في أحادِلِيُلِيلتُنا المنوطةُ بالتنادي[1][2]

قال الصاحب بن عباد: (وهذا من عنوان قصائده التي تحير الأفهام، وتفوت الأوهام، وتجمع من الحساب مالا يُدرك بالأرتمـــاطيقي، والأعـــداد الموضـــوعة للموسيقى.) ويؤخذ عليه فساد ذوقه في مطالع المدح:

أوهٍ بديلٌ من قولتي واها! لمنْ نأتْ، والبديلُ ذكراها[3][4]

قال الثعالبي: (وهو بِرقية العقرب أشبه منه بافتتاح كلام في مخاطبة ملك). وعيب عليه الاستكثار من استعمال ذا، وهي ضعيفة في صنعة الشعر، دالة علـــى التكلف، ويزيدها قبحاً وغلاظة أن تاتي ثقيلة على السمع، متقلقلة في موضـــوعها، ظاهرة التكلف كقوله: (يَضاحكُ في ذا اليوم كلّ حبيبه.).

وعيب عليه تكرار اللفظ حتى يثقل وقعه، ولا يحسن فيه المعنى.

ولا الضعفَ حتى يتبعَ الضعفَ ضِعفهُ

---

(١) التنادي: القيامه ، يقول: إن ليلة لطولها معلقة بيوم القيامة ، وقوله : أحاد ، أي أأحاد؟ والمعنى أن ليلتـــه دهر، وكل ليلة من ليالي هذا الدهر سبعة أيام

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ٢٩٤.

(٣) أواه: كلمة توجه. واهاً: كلمة تعجب واستطابة ، وقوله: والبديل ذكراها، أي والبديل منها ذكراها.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤٩٢.

ولا ضِعفَ ضِعفِ الضعف، بل مثله ألف[١][٢]

فقد أراد المغالاة في ممدوحه فحشر نفسه في هذا المأزق المستوحل حتى غرق، وكأن ممدوحه أحب أن ينتقم للشعر فلم يجزه بسوى دينار واحد.

ومن مقابحه خشونته في مخاطبة الملوك:

عيبٌ عليكَ تُرى بسيفٍ في الوغى ما يَصنعُ الصمصامُ بالصمصام[٣][٤]

وسوء تخلصه من الغزل إلى المدح:

علَّ الأميرّ يرى ذُلي فيشفع لي إلى التي تركتني في الهوى مثلا[٥]

ولم يقنع بتكليفه هذه المهمة الشنعاء حتى جعله يعتقل رمحه ليحارب امرأة، ويأخذ له بثأره منها:

أيْقَنْتُ أنّ سعيداً طالب بِدمي لما بَصُرتُ بِهِ بالرُّمحِ مُعتقلا[٦][٧]

ويعاب عليه غلوه المستنكر حتى يخرج به إلى الإحالة، وسرقاته عمن تقدمه كأبي تمام والبحتري وابن الرومي وسواهم، وتكراره للمعاني، وهذا عندي ليس بعيب فللشاعر أن يستعين بمعناه متى شاء، على أن لا يفرط في ترددها، والمتنبي لم يفرط في التكرار.

وهو أقل الشعراء إخلالاً بالأوزان، فليس في ديوانه غلا بيت أو بيتان خرج بهما عن الوزن كقوله:

---

(١) مثله: منصوب على الحال لأنه نعت نكرة قدم عليها، وألف خبر عن محذوف أي بل أنت ألف، يقول: أنه لا يرضى لممدوحه أن يكون ضعف الورى بل ألوف الأضعاف.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ٤٩٣.

(٣) ترى: حذف أن ، أي أن ترى، الصمصام: من أسماء السيف، والمعنى أن سيف الدولة صمصام، فعيب عليه أن يحمل صمصماً في الحرب، وما يصنع به وهو مثله؟

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣١٦.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ١٦١.

(٦) سعيد: اسم ممدوحه وهو سعيد بن عبد الله الكلابي المنبجي .

(٧) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ١٦٢.

تعثرَتْ بهِ في الأفواهِ ألسُنها والبُردُ في الطُّرق والأقلام في الكتب[١][٢]

فقد اختلس حركة الهاء من به، ويدرك عليه بعض سقطات في اللغة كقوله:

من لبيضِ الملوكِ أن تُبدل اللو ن بلَونِ الأستاذِ والسَّحناء[٣][٤]

ووجه الكلام أن يقول: (أن تبدل بلونها لون الأستاذ.) لأن ما دخل عليه حرف الجر في هذا الفعل كان هو المتروك.

منزلته:

أوتي المتنبي شهرة لم يؤتها شاعر قبله، فسار شعره على غوارب السني والأحقاب، تردده الحواضر والبوادي، وتختصم فيه مجالس الأدب، وتعقد عليه حلقات الطلب، وحجب شعراء زمانه فلم يذكر معه إلا أبو فراس، ولولا مكانه من السلطان لأخفاه، وكان من عداوة الأدباء له أن ضاعفت سيرورة شعره، لأن اهتمامهم بنقد أقواله، وإظهار معايبه، جعل الناس يتلفتون لفتة من كل صوب، وقام له أنصار ينافحون عنه، ويردون حجج خصومه، فصنفت الكتب في ماله وما عليه، وعني الشرّاح بتفسير ديوانه لكثرة الراغبين فيه، فكتب له الخلود في أرفع ألواحه، وتبوأ أعلى درجاته، هذا ولسنا نزعم أن خلوده مدين لعداوة الأدباء دون غيرها، فلو لم يكن في شعره ما يستحق هذا الاهتمام لما شغل به الناس، وملأ الدنيا على حد قول ابن رشيق، فإن في شعره من قوة البلاغ، وطيب المساغ، ما يستبي الأسماع، ويلج القلوب بغير استئذان، ولربما قرأت له قصيدة دون أن تبغي حفظ شيئ منها فما تتركها إلا وأنت راوية له على الرغم منك. ولا ريب في أن ذلك عائد على وفرة مقلداته التي استقاها من فلسفة الحياة، فلا تقع حادثه في نظام الاجتماع إلا كان لها في شعره ما يتمثل به، فكأنه كما يقول الشيخ إبراهيم اليازجي: (ينطق بألسنة الحدثان، ويتكلم بمخاطر كل إنسان.) وقد وفق لإفراغ هذه

---

(١) به: الضمير لخبر وفاة أخت سيف الدولة، البرد: جمع بريد، وهو الرسول ، بقول: تلجلجت بذكره الألسنة ذعراً، وتعثرت الرسل الحاملة له في الطزق ، ورجفت أيدي الكتاب في كتابته.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ١٣٩.

(٣) من لبيض الملوك: أي من يكفل لهم، السجناء: الهيئة.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ١٠٣.

المقلدات في قالب سهل واضح، فساغتها النفوس، وعلقت بالحوافظ؛ وقلما وجدت له بيتاً عابراً إلا وقد جمع حلاوة اللفظ وشرف المعنى.

وشيء آخر عمل لتوطيد شهرة المتنبي وخلوده، وهو ما تجد في شعره من تصوير المعامع، وإطراء الشجاعة والحمية والشرف؛ فإن الإنسان مطبوع على حب القوة، يلذ له أن يتغنى بها، ويتمنى أن ينسب إليها ولو كان ضعيفاً، وكذلك الإنسان يُكبر الشرف والحمية، وإن كان دنيئاً ساقط المروءة. فاشتمال شعر أبي الطيب على هذه الميزات العالية ملكه قلوب الناس وخواطرهم، فحفظوه واستشهدوا به حتى أن الصاحب بن عباد وهو أشد خصومه لدداً كان أحفظهم لشعره، وأكثرهم تمثلاً به في محاضراته ومكاتباته، ولا يزال شعر المتنبي في زماننا معيناً نميراً يترسف منه الشعراء والكتاب.

وامتازت لغة المتنبي في قوتها فلاءمت بها قوة نفسه ومعانيه وأغراضه، وتبدو هذه القوة في ألفاظه الصلبة، وتراكيبه المتينة، وتشابيهه واستعاراته، يمدها خيال بدوي عنيف، يسبح في سماء محجبة بالغيوم، تنقضُ منها الصواعق، وتثور فيها الزوابع، وتنقذف عنها الرجوم، فما يعود إلا مضرجاً بالدماء.

وكان لحياته المضطربة تأثير في توجيه عاطفته، فإن تردده في البادية، ومغامراته الكثيرة، واخفاقه المتتابع، وتشاؤمه بالزمان وأهله، جعل عاطفته تنمو مخشوشنة متصلبة، لا ترتاح إلى سوى العنف والشدة، وكذلك أثرت فيها ثقافته الفلسفية وتطلبه للمعاني عملها في كثير من المواطن بقدر ما قوي عمل التفكير.

وتتفاوت ديباجته، فأحياناً تتجلي صافية لها رونق ورواء، فتُطرب وتبهج وتحمس، وأحياناً تتجهم كدرة معقدة نافرة، فتضيق بها النفس وتتأذى منها الآذان.

وأبو الطيب يمثل شطراً كبيراً من عصره، ففيه تتجلى تلك النهضة الفكرية التي سمت بها العلوم والفلسفة والمنطق، وفيه يتمثل اتساع الرزق على الشعراء لتعدد حواضر العلم والأدب، وتنافس الأمراء في استقدام الشعراء ليمدحهم، ويغلوا في نعوتهم حتى أصبح الشعر تكسباً كله. وفيه يتمثل اضطراب الحالة السياسية، وتحفز كل ذي طموح إلى التملك، وكثرة الحروب والخروج والفتن.

وعلى الجملة فشعر المتنبي مستند تاريخي لزمانه، وهو أبرع مـــن وصـــف جيشاً، وصور ملحمة؛ ولو طالت ملاحمه لسد ثلة في الشعر العربي، وهو أكثـــر الشعراء المتقدمين بيتاً مقلداً، وأنضجهم تفكيراً وحكمة، وأبصرهم بفلسفة الحيـــاة، وأخلدهم على مرور الأجيال.

الفصل الثالث

الشكوى – العتاب – الحكمة – المثل

الشكوى عند المتنبي:

كما أن في الحياة سعادة وأفراحاً فإن فيها من المصاعب والمصائب ما لا يعدُّ ولا يحصى ولا شيء يهون مصائبها ومصاعبها كالإيمان العميق بالله العلي العظيم.. والإنسان بطبعه يفر من المصائب فراره من الأسد ولكن هيهات ..

غير أن الألم النفسي عند الكرام أصعب من الألم الجسدي بكثير.. وكلا الأمرين يتعرض له الحر في هذه الحياة: الألم النفسي والجسدي ..

أما الذين تعودوا الذل والهوان فلا يشكون إلا من الألم الجسدي

يقول المتنبي : من يهُنء يسهُل الهوانُ عليه – ما لجرح بميّت إيلامُ [1]

والذي تعوّد الذل – وربما ألفه!! – يشبهه العرب بالوتد الذي يدق على رأسه، وبالحمار الذي يربط ذليلاً مهاناً :

ولا يقيم على ضيمٍ يراد به إلا الأذلان عيرُ الحي والوتدُ

هذا على الخسف مربوط برمَّته وذا يُشَجُّ فلا يرثي له أحَدُ !

ولهذا نجد أن شكوى كرام النفوس في تراثنا العربي وموروثنا الشعبي هي من المواقف النفسية التي يأبونها كل الإباء.. وهي شكوى حرية الاستماع والحفظ لأنها تمجد عزة النفس وتصور حال هذه الحياة وتصف الدرب الذي مَرّ به الكرام على مَرِّ الزمان، وهو درب مطروق حافل مرت به وستمر به أجيال وأجيال وفي شكوى من سبق ما يخفف وقائع المفاجأة وانذهال الاستغراب، على أن كل جيل – على مَرّ العصور – يشكو من جيله ..

قال صاحب الأغاني :

"حدثنا محمد بن جرير الطبري قال حدثنا أبو السائب سالم بن جنادة قال حدثنا وكيع عن عردة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنهما أنها كانت تنشد للبيد :

ذهب الذين يعَاش في أكنافهم وبقيتُ في خَلَف كجلد الأجرب !

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٣٧٤.

ثم تقول :رحم الله لبيداً لو أدرك مَن نحن بين ظهرانيهم؟ !

قال عروة :رحم الله عائشة فلو أدركت من نحن بين ظهرانيهم؟ !!

قال وكيع :رحم الله هشاماً لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم؟ !

قال أبو السائب :رحم الله وكيعاً لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم؟ !

قال أبو جعفر الطبري :رحم الله أبا السائب فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم؟

قال أبو الفرج الأصفهاني راوي القصة :ونحن نقول: الله المستعان! فالقصة أعظم من أن توصف "!!

قلت :يغني عن هذا كله قول الله عز وجل: {لقد خلقنا الإنسان في كبد}[1]

وإذا توافق الإنسان مع نفسه اولاً.. فإن البقية أهون.. ينبغي قبول الذات بعيوبها ثم السعي لإصلاحها بمحبة وجهاد، يكافح الرجل الكريم وهو يبتسم، ويحسن به أن يعرف طبائع الناس والحياة حتى لا تهزه المفاجآت، وللإنسان نفسه حالات وعجائب.. ومواقف ..

وشعر الشكوى من أصدق الشعر، فهو يصدر من النفس، ومن النفس حين تفيض، فهو جيشان عاطفة، وفيضان ومشاعر ..

انه يتدفق كالسيل الهادر في مجراه، ليس فيه علُّق المديح، ولا تكلف الصناعة، انه بوح.. والبوح من القلب، ويخرج غصبا ..

والمتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ليس أجمل شعره ما قاله في المديح أو الغزل (ولم يحب أصلاً حتى يتغزل حبه الوحيد العز والامارة) .

أجمل شعره هو الشكوى ..

كقوله :أفاضل الناس أغراض لذا الزمن –يخلو من الهم أخلاهم من الفطَن[2]

وإنما نحن في جيل سواسية –شرّ على الحُرِّ من سُقم على بدَن[3]

فَقرر الجهول بلا عَقَل إلى أدب –فَقر الحمار بلا رأس إلى رَسَن

---

(١) آية ٣ سورة البلد .

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤٥٢.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤٥٣.

لا يعجبن مَضيماً حسن بزَتِّه –وهل يروق دفيناً جودة الكَفَن[١]

لله حال أرَجِّيها وتخلفني –وأقتضي كونها دهري ويمطُلني

وحين فَرَّ من مصر وحلّ عليه العيد وهو كاره لنفسه لمدحه كافور، قال قصيدته المشهورة التي تختلط فيها الشكوى بهجاء كافور كأنما هو ينفِّس عن غضبه في كافور :

عيد بأية حال عدتُ يا عيدُ –بما مضى أم بأمر فيكَ تجديد؟ ![٢]

أما الأحبة فالبيداء دونَهم –فليت دونك بيداً دونَها بيدُ [٣]

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي –شيئاً تتيمه عينٌ ولا جيّدُ[٤]

ماذا لقيتُ منَ الدنيا، وأعجبهُ –أني بما أنا باك منه محسودُ؟![٥]

ما كنتُ أحسبُني أحيا إلى زمن –يسيء بي فيه كلبٌ وهو محمود[٦] !

من كلِّ رخو وكَاء البطن مُنفَتق –لا في الرجال ولا النسوان معدودُ ![٧]

وعندها لذَّ طعم الموت شاربهُ –إن المنية عند الذُّلِّ قنديدُ[٨] !

والقنديد: عصير قصب السكر، وهو أحلى من العسل!.. وقوله: ويلُمِّها: كلمة تقال للتعجب والاستغراب وأصلها: وَي لأمِّها.. ونحن نعجب بالمتنبي في شعره كله، ولكنه في الشكوى يثير الإعجاب لأنه يشعر من الأعماق، ويخرج الشعر من قلبه كالقذائف وفي ثناياها شظايا من الحكم الحار

على أي حال فإن كل جيل يشتكي من الجيل الذي بعده، تكاد تكون قاعدة، ويشكو زمنه كما فعل المتنبي، وهو أصدق – في الواقع أما في الشعور فهو صادق في شكواه – حين قال الإمام الشافعي[٩] :

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤٥٥.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣٣٤.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣٣٥.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ٣٣٥.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣٣٦.

(٦) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣٣٧.

(٧) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ٣٣٦.

(٨) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣٣٩.

٩ احمد حسن الزيات تاريخ الادب العربي دار النهضة القاهرة الطبعة الاولي ص ٢٨٩

نعيب زماننا والعيبُ فينا –وما لزماننا عيب سوانا

والمعري قد عمَّم بشكل غير مقبول حين قال في شكواه من الناس :

يحسن مرأى لبني آدم –وكلهم في الذوق لا يعذب

ما فيهُمُ بَرٌّ ولا فاجرٌ –إلاَّ إلى نفع له يجذبُ

أفضل من أفضلهم صخرةٌ –لا تظلم الناسَ ولا تكذبُ

وفي هذه الدنيا الكل يشكو إلا من عصم ربي :

كل من لا قيت يشكو دهرَهُ –ليت شعري هذه الدنيا لمَن؟ !

الغنُّي قلق، والفقير مكتئب.. الشابُ متوتر.. والشيخ منزو.. المرأة شكواها لا تُعَدّ ولا تحصى.. والرجل ينطوي على شكواه.. الصغير والكبير ..ولكن من المؤكدّ انه لا سعادة بدون شكر الله عز وجل، من رضي فله الرضى، ومن سخط فعلى نفسه.

العتاب عند المتنبي(١):

المتنبي شاعر مبدع متميز وقد كتب في أغراض متنوعة ومن ذلك العتاب،حيث قال معاتبا سيف الدولة وأنشدها في محفل من العرب وكان سيف الدولة إذا تأخر عنه مدحه شق عليه وأحضر من لا خير فيه وتقدم إليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب، وأكثر عليه مرة بعد مرة فقال يعاتبه:

واحر قلباه ممن قلبه شبم * ومن بجسمي وحالي عنده سقم

مالي أكتم حباً قد برى جسدي * وتدعي حب سيف الدولة الأمم

إن كان يجمعنا حب لغرته * فليت أنا بقدر الحب نقتسم(٢)

هذا عتابك إلا أنه مقة * قد ضمن الدر إلا أنه كلم(٣)

---

(١) ديوان المتنبي، ج٢، ص ٢٨٨.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج٢ ، ص ٢٨٨.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢ ، ص ٢٩٤.

الحكمة في شعر المتنبي:

إن أبا الطيب من أبرع الشعراء في الاهتداء إلى الحكمة في مختلف المناسبات الإنسانية، وتعيش الحكمة متنقلة من جيل إلى جيل بنفس الحيوية التي ولدت بها ولقد كان مصدر الحكمة عند أبي الطيب أحداث الزمان وما ابتلي به من النكبات وما كيد به من أعدائه وحساده.

كان ينتقي عباراته مدققاً ممحصاً باحثاً عن الكلام الموجز ومن ذلك.

وهَبني قلت :هذا الصبحُ لَيلٌ أَيعمى العالَمونَ عَن الضّياء؟[1]

ذكر المتنبي هذا البيت في مدح الحسين بن إسحاق التنوخي وكان قوم هجوه، وعزوا الهجاء إلى أبي الطيب فكتب يعاتبه وأبدع في ذلك حيث يقول: قدر أنني هجوتك وكأنني كمن يقول هذا النهار ليل فكيف تأتي هذا وفعالك لا تخفى على أحد كضياء الشمس، وهل يعمى العالمون عن الضياء.

وقال [2]:

وإذا خَفيتُ على الغَبِيِّ فَعاذِرٌ أنْ لا تَراني مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ

فالمتنبي من شدة اعتزازه بنفسه يقول : إذا خفي مكاني على الغبي فلم يعرف قدري ولم يقر بفضلي فأنا عاذر له كالأمعى الذي لا يرى الأشياء والأعمى معذور فكلذك الغبي الجاهل.

وقال[3] :

ما الخِلُّ إلا مَن أَودُّ بِقَلبِهِ وأَرَى بِطَرفٍ لا يَرَى بِسَوائِهِ

لا تَعذُلُ المُشتاقَ في أَشواقِهِ حتّى يَكُونَ حَشاكَ في أَحشائِه

فيقول: ليس الصديق إلا من لا فرق بيني وبينه فإذا وددت فكأني أود بقلبي وإذا نظرت فكأني انظر بعينه حقيقة أنها حكمة خالدة ولا نشك في ذلك وفي البيت الآخر يقول : لا تلم العاشق حتى تحب مثل ما يحب.

---

(١) ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ٩٤.

(٢) ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ٩٤.

(٣) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٨٧.

وقال أيضاً[١] :

فَـالمَوْتُ أَعْـذَرُ لـي والصَّبْرُ أَجْمَلُ بي والـبَرُّ أَوْسَـعُ والدُّنْيـا لِمَـنْ غَلَبا

فبين أن الموت أعذر من أن يعيش الإنسان ذليلاً والدنيا لمن غلب وزاحم لا لمن لزم عقر داره.

ويقول[٢] :

فـالمَوْتُ تُعْـرَفُ بالصِّفـاتِ طِباعُـهُ لـم تَلْـقَ خَلْقـاً ذاقَ مَوْتـاً آيبا

يوضح لنا أن الموت يعرف بالوصف لا بالتجربة حيث أننا لم نجد مخلوقاً مات ثم رجع فيخبرنا عن حقيقة الموت.

وقال[٣] :

كَثِـيرُ حَيـاةِ المَـرْءِ مِثْـلُ قَلِيلِهـا يَـزُولُ وبـاقي عَيشِـهِ مِثْـلُ ذاهِبِ

يبين لنا أن طول العمر وقصره سيان لأن نهاية كل منهما إلى الزوال وما بقى من العيش لا حق بما ذهب.

ويقول كذلك [٤] :

وقـد فـارَقَ النـاسَ الأَحِبَّـةُ قَبلَنـا وأَعيـا دواءُ المَـوت كُـلَّ طَبِيبِ

حقيقة أن الفراق حاصل والموت ليس له دواء ولا علاج.

ويقول أيضاً[٥] :

إِذا اسـتقبلَتْ نَفسُ الكَـرِيمِ مُصابَهـا بِخُـبثٍ ثَنَـتْ فاسـتَدبَرَتْهُ بِطِيـبِ

الواضح أنه إذا استقبل الكريم أصابه الدهر بالجزع راجع عقله فاعتصم بالصبر لحلمه أن الجزع لا يفيد.

ويقول[٦] :

ومن صَحِـبَ الدُنيـا طَـويلاً تَقَلَّبَـتْ عـلى عَينِـهِ حـتَّى يَـرَى صِدْقَها كِذْبا

---

(١) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ١٥٨.

(٢) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ١٦١.

(٣) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ١٧٦.

(٤) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ١١٤.

(٥) ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ١١٧.

(٦) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ١١٨.

حقيقة أنه من صحب الدنيا تقلبت أحوالها عليه حتى يرى ما اطمأن إليه من صفاتها ونعيمها قد تغير وحال عما كان عليه كأن لم يغن بالأمس.

ويقول فيموضع آخر [١] :

ومن تكُنِ الأُسْدُ الضَّوارِي جُدودَهُ يَكُنْ لَيلُهُ صُبحاً ومَطعَمُهُ غَصْبا

أي من كان نسل الشجعان وكان آباؤه كالأسود، عاش عيشة الأسود وكان مطعمه مما يأخذه من أعدائه قهرا.

ويقول[٢] :

ولَستُ أُبالي بَعْدَ إِدراكِيَ العُلَى أَكانَ تُراثاً ما تَناوَلتُ أم كَسْبا

هذا بين أنه لا يبالي بعد إدراكه معالي الأمور أكان مما يحصل في يدي إرثاً أم كسب فالتراث المالي الموروث.

ويقول [٣] :

فحُبُّ الجَبانِ النَفْسَ أَورَدَهُ البَقا وحُبُّ الشُجاعِ الحَرْبَ أَورَدَهُ الحَرْبا

يبين أن الجبان يتقي الحرب ويترك القتال والشجاع يقدم على الحرب دفاعاً عن نفسه .

ويقول كذلك[٤] :

وجُرمٍ جَرَّهُ سُفهاءُ قَومٍ وَحَلَّ بِغَيرِ جارِمِهِ العَذابُ

لاشك أنه كم من جرم جناه سفيه فنزل العذاب بغيره.

ويقول[٥] :

وكُلُّ امرِىءٍ يُولي الجَمِيلَ مُحببٌ وكُلُّ مَكانٍ يُنبِتُ العِزَّ طَيبُ

المكان الذي تطيب فيه الإقامة أنه مكان سعادة وعز.

وقال[٦] :

وأَظلَمُ أَهلِ الظُلْمِ مَن باتَ حاسدًا لِمَن بات في نَعمائِهِ يَتَقَلبُ

---

(١) ديوان المتنبي ، ج١ ، ص ١٢٠.

(٢) ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ١٢٠.

(٣) ديوان المتنبي ، ج١ ، ص ١٢٣.

(٤) ديوان المتنبي ، ج١ ، ص ١٣٥.

(٥) ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ١٩٣.

(٦) ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ١٩٤.

حقاً إن أشد الظالمين ظلماً من تقلب في نعمة إنسان، ثم بات يحسده على تلك النعمة.

وقال بيتاً يتردد على ألسنة الناس[١] :

أَعَــزُّ مَكــانٍ فــي الــدُنَى سَــرجُ سابِحٍ وخَـــيرُ جَــليسٍ فــي الزَمــانِ كتابُ

هذا البيت يقول فيه إن سرج الفرس هو أعز مكان، لأنــه يمتطــي لطلــب المعالي، وإن الكتاب هو خير جليس لأنه مأمون الجانب.

ويقول[٢] :

عِشْ عَزيـــزاً أَو مُــت وَأَنــتَ كَــريم بيـــن طَعـــنِ القَنــا وخــفْق البنود

بين لنا إما أن يعيش الإنسان عزيزاً ممتنعاً من الأعداء أو يموت موت الكرام في الحرب، لأن القتل في الحرب يدل على شجاعة المقتول والقتل خير من العيش بذل.

ويقول[٣] :

فــاطْلُبِ العِــزَّ فــي لظَــى وَدَعِ الــذُّ لَّ وَلَـــو كـــانَ فــي جِنــانِ الخــلُودِ

البيت كله مبالغة في طلب العز والبعد عن الذل وإلا فلا عز في جهــنم ولا ذل في الجنة.

ويقول[٤] :

وَمــا مـــاضي الشـــبابِ بمســتَرَدٍّ وَلا يَـــــوم يمُـــــر بمســـــتعادِ

يحثنا الشاعر على طلب الأهم فالأهم فإن الأيام تنهب العمر.

ويقول [٥] :

وَمِن نَكَــدِ الدنيــا عــلى الحُرِّ أَن يَرَى عَـــدُوًّا لـــهُ مــا مــن صَداقَتِــه بُدُّ

أي من نكد الدنيا أن الكريم لا يجد مندوحة من إظهار الصداقة فيها لعدوه مع علمه أنه له عدو، ليأمن شره ويدفع غائلته.

---

(١) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٢٠٠.

(٢) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٢٧٧.

(٣) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٢٧٨ .

(٤) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٢٩٦.

(٥) ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ٣٠٦.

يقول[1] :

ذا غَـــدَرَتْ حَسْـناء وفَّـتْ بِعَهْدِهـا فَمِـنْ عَهْدِهـا أَنْ لا يَـدُومَ لَهـا عَهـدُ
كَذلِكَ أَخْـــلاقُ النِّســـاءِ ورُبَّمـــا يَضِـلُّ بهـا الهـادِي ويخْـفَى بِها الرُّشدُ

يقول: إذا غدرت الحسناء لم تعد سجاياها ، لأن شنشنتها الغدر، لأن عهـدها أن لا تبقى على عهد فوفاؤها إذن غدر وفي البيت الثاني يقول هذه هـي أخـلاق النساء ، بيد أنهن مع ذلك يسحرون عقول الرجال حتى يضل بهن من يهدي غيره فيخفي عليه الرشد ويبتلي بهن.

ويقول[2] :

وحـيدٌ مِـنَ الخُـلانِ فـي كُـلِّ بَلـدةٍ إِذا عَظُـمَ المَطلـوبُ قَـلَّ المُساعِد

يقول: إن مطلبي عظيم، ومن ثم لا أجد من يساعدني على مـا أطلـب لأن المطلوب إذا كان عظيماً قل من ينهض بالمساعدة عليه.

يقول[3] :

بِـذا قَضَـتِ الأَيَّـامُ مـا بيـنَ أَهلِهـا مَصـائِبُ قَـومٍ عِنْـدَ قَـومٍ فَوائِـدُ

ويقول[4] :

فـإِنَّ قَلِيـلَ الحُـبِّ بِـالعَقلِ صـالِحٌ وإِنَّ كَثِـيرَ الحُـبِّ بـالجَهْلِ فاسِـدُ

يبين أن الحب بعقل فيه منفعة والحب في جهل لا منفعة فيه.

ويقول[5] :

ومـا قَتَـلَ الأَحـرارَ كـالعَفوِ عَنهُـمُ ومَـن لَـكَ بِـالحُرِّ الَّـذي يَحـفَظُ اليَدا

يقول: إن العفو عن الكرام قتل لهم فمن صفح عن حر استرقه بهذا الصـفح فيذل به وينقاد.

---

(١) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٣١٣.

(٢) ديوان المتنبي ، ص ٢٤٥.

(٣) ديوان المتنبي ، ص ٢٥١.

(٤) ديوان المتنبي ، ج ، ص.

(٥) ديوان المتنبي ، ص ٢٥٦.

ويقول[1] :

ووضْــعُ النَدى في مَوضعِ السَيف بِالعُلَى مُضِــرٌّ كوَضعِ السَّيفِ في مَوضِعِ النَدَى

يقول: ينبغي أن يعامل كل إنسان حسبما يستحق فمن اســتحق العطــاء لــم يستعمل مع السيف، ومن استحق القتل لم يكرم بالعطاء ومن فعل هذا أضر بعــلاه وهدم أركانه.

يقول[2] :

وَقَنِعــــتُ باللُّقيــــا وأَوَّلِ نظــــرَةٍ إن القَليــــلَ مِــــنَ الحَــــبيبِ كَثــيرُ

ويقول[3] :

إِذا الفَضْــلُ لــم يَرْفَعكَ عَن شُكْرِ ناقصٍ عــلى هِبَــةٍ فــالفَضْلُ فيمَــنْ لهُ الشُّكرُ

يقول: إذا لم يرفعك فضلك عن أخذ هبة الناقص وشــكره عليهــا، فالفضــل حينئذ له، لأنه قد استوجب شكرك فصار له عليك فضل المشكور علــى الشــاكر وفي هذا إشارة للترفع عن هبة الناقص والتنزه عن الأخذ منه حتى لا تحتاج إلــى أن تشكره.

ويقول[4] :

مَــن كــان فــوقَ مَحَلِّ الشَمسِ مَوضِعُهُ فَلَيسَ يرفَعُــــهُ شَــــيءٌ ولا يَضَــــعُ

أي أن من بلغ الغاية في الرفعة فليس وراء الغاية موضــع وإذن لا يرفــع نصرته أحد ولا يتضع خذلانه أحد.

ويقول[5] :

غــــير اختيــــارٍ قبِلــــتُ بِــرَّكَ بــي والجــــوعُ يُــرضي الأُســودَ بالجيفِ

يقول : قبلت برك بي اضطراراً لا اختياراً لاحتياجي إليه كالأســد يرضــي بأكل الجيف إذا لم يجد غيرها لحماً.

---

(١) ديوان المتنبي ، ص ٢٥٧.

(٢) ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ٣٩٤.

(٣) ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ٤٠٤.

(٤) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٤٥٧ .

(٥) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٤٧٨.

ويقول[١] :

نَبكـــي عـــلى الدنيـــا ومـــا مـــن مَعْشَرٍ جَـــمَعَتهُمُ الدُّنيـــا فلـــم يَتَفَرّقُـــوا

فالفراق واقع لا مفر منه فلم البكاء وعلى هذه الدنيا.

ويقول[٢] :

والغِنـــى فـــي يَـــدِ اللئـــيم قَبيـــحٌ قَـــدرَ قُبـــح الكَـــرِيمِ فـــي الإِمـــلاق

يقول : إن المال في يد اللئيم قبيح، لأنه يضن به عن حقوقه كما يقبح الفقر في يد الكريم.

يقول[٣] :

وَمـــا الحُســـنُ فـــي وَجـــهِ الفَتَى شَرَفاً لَهُ إِذا لـــم يَكُـــنْ فـــي فِعلِـــهِ والخَلائِق

أي إذا لم تكن أفعال الفتى وأخلاقه حسنة جميلة فليس حسن وجهه شرفاً له.

ويقول[٤] :

ومَـــنْ يَـــكُ ذا فَـــمٍ مُـــرٍّ مَـــريضٍ يَجـــد مُـــرّاً بـــه المـــاءَ الزُّلالا

يبين أن المريض يجد الماء الزلال مـراً لمـرارة فمـه والـذين يرمونـه وينتقصونه لعدم إدراكهم فضله، فلو صحت حواسهم لعرفوا فضله.

ويقول[٥] :

وليسَ يَصِـــحُّ فـــي الأَفهـــام شَـــيءٌ إذا احتـــاج النَهـــارُ إلـــى دَلِيـــلِ

يقول: إن من لا يعرف النهار إلا بدليل يدل على عدم صحة فهمـه لأنـه لا فهم له فمن لم يفهم كلامي كمن لا يعلم النهار نهاراً إلا بدليل.

ويقول[٦] :

يهـــونُ علَينـــا أن تُصـــابَ جسُـــومُنا وتســـلمَ أَعـــراضٌ لَنـــا وعُقـــول

المهم سلامة العرض والعقل فإذا أصيب الجسم أمره هين.

---

(١) ديوان المتنبي ، ج ٢ ، ص ٢٨.

(٢) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٤٩.

(٣) ديوان المتنبي ، ج ٢ ، ص ٢٠.

(٤) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ١٩٨.

(٥) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ١١٧.

(٦) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ١٢٦.

ويقول[١] :

وأَتعَبُ مَن ناداكَ مَن لا تُجيبُهُ وأَغيَظُ مَن عاداكَ مَن لا تُشاكِلُ

أي أن أتعب من ذلك من ناداك فلم تجبه لأنك لا تشفيه بالجواب، فيهجد في النداء كما أن أغيظ الأعداء لك من عاداك وهو دونك لأنك تترفع عن معارضته فلا تشفى منه.

ويقول[٢] :

وإِذا ما خَلا الجَبانُ بأَرضٍ طَلَبَ الطَعْنَ وَحْدَهُ والنِزالا

يقول: الجبان إذا كان متفرداً يحس من نفسه شجاعة ويطلب الطعان والمنازلة.

يقول[٣] :

مَن أَطاقَ التِماسَ شَيءٍ غِلاباً واغتِصاباً لم يَلْتَمِسْهُ سُؤَالا

أي : من أمكنه أن ينال من الناس شيئاً غلبة وقهراً لم يتكلف أن ينالـه بذل السؤال.

ويقول أيضاً : [٤] :

كَدعواك كُل يَدَعي صِحةَ العَقلِ ومَن ذا الذي يَدري بِما فيهِ مِن جَهل

يعني ليس أحد يعلم جهل نفسه، لأنه متى علم جهل نفسه لم يكن جاهلاً.

ويقول[٥] :

تُريدين لُقْيانَ المَعالي رَخيصة ولا بُدَّ دُون الشّهدِ مِن إبَرِ النَحل

المعالي لا تدرك رخيصة فلابد من بذل النفس والتعرض للأهوال، فمن حاول اجتناء الشهد قاسى لسع النحل ولا يبلغ حلاوة العسل إلا بمقاساة مرارة اللسع،

---

(١) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ١٣١.

(٢) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ١٤٧.

(٣) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ١٥٠.

(٤) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٢٣٨.

(٥) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٢٣٩.

ويقول[1] :

هُـمُ لأمـــــوالهِم ولَســـن لَهُـــمْ والعـــارُ يَبقـــى والجـــرحُ يَلتَئـــمُ

يقول: إن اللئام مملكون لأموالهم لأنهم يتعبون في سـبيل حفظهـا وجمعهـا ومنعها والعار أبقى من الجرح لأن جرح السيف يبرأ ويلتئم أما جرح العار فإنـه يبقى ولا يزول عن صاحبه.

ويقول[2] :

مَـــن يَهُـــن يَسـهُلِ الهَـوانُ عَلَيـهِ مـــا لُجِـــرْحٍ بِمَيِّـــتٍ إِيـــلامُ

يقول: إذا كان الإنسان هيناً في نفسه سهل عليه احتمال الهوان كالميت الذي لا يتألم بالجراحة.

المثل عند المتنبي

١ – بنية المثل:

تعد بلاغة الكلام مكونا أساسيا في بنية الشعر العربي القـديم. بـل إن بـن خلدون قد اعتبر هذا المكون أقرب عنصر إلى حقيقة الشعر من المكونين الشكليين المتمثلين في المكون الإيقاعي والمكون الغرضي. وفي ذلك يقول ابـن خلـدون: "وقول العروضيين في حدة إنه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر الـذي نحن بصدده ولا رسم له. وصناعتهم إنما تنظر في الشعر باعتبار مـا فيـه مـن الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة. فلا جرم أن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا، فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية، فنقول: الشعر هو الكـلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بـأجزاء متفقـة فـي الـوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به".

ويبدو واضحا من خلال هذا النص أن لبلاغة الكلام قيمة فنية تهـيمن فـي الشعرية العربية القديمة، وهذا ما يجعل منها عماد بيت الشعر وأُسَّهُ المتين.

---

(١) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٣٥.

(٢) ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ٣٧٤.

وحين نتحدث عن بلاغة الكلام في مفهوم النقد القديم، فغالبا ما تتبادر إلى الذهن صورة المثل، لأنها تجسد جوهر هذه البلاغة أفضل تجسيد، بل إن المثل يرتبط بالبلاغة ارتباطا وثيقا، وأن العلاقة بينهما تقوم على التضمن واللزوم. ويبدو أن القدماء قد فطنوا إلى شيء من هذا القبيل حين عرفوا المثل بمثل ما عرفوا به البلاغة فقالوا: "في المثل ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه"، فهذه الخصائص هي نفسها التي تحدد بها البلاغة.

ويتبين من خلال هذا التداخل بين البلاغة والمثل أنهما يقومان على علاقة الجزء بالكل والعموم بالخصوص. واستنادا إلى ذلك يمكن أن نحدد المثل – اصطلاحا– بأنه صورة بلاغية أو حكائية تتبني فيها العبارة على الاستعارة والتكثيف. كما أن الدال فيها يبعد عن مدلوله. ويحيل فيها المعنى الأول على معان ثانوية. وبذلك تتحول الدلالة في المثل إلى دلالة رمزية تعبر من المجاز إلى الحقيقة ومنها إلى الواقع الإنساني. فالمثل في جوهره صورة إيحائية لا تنطق بمعنى إلا أوحت بآخر هو "معنى المعنى" على حد تعبير عبد القاهر الجرجاني. وبهذه الصفة يغدو المثل شبيها بلغة الشعر التي هي لغة ثانوية داخل لغة أصلية وتقوم بنمذجة للواقع الخارجي. وفي ذلك تكمن قيمته الشعرية التي يستمد منها النص خاصيته الجمالية والفنية.

إننا إذا أمعنا النظر في شعر المتنبي لفتت انتباهنا فيه قيمة فنية تهيمن على بقية القيم الأخرى، وتتجسد في شعرية المثل التي أعطت لشعره سمة فنية متميزة. وهذا ما أشار إليه الصاحب بن عباد بعد أن استخرج من أشعاره واحدا وسبعين وثلاثمائة بيتا، فقال: "وهذا الشاعر مع تمييزه وبراعته، وتبريزه في صناعته، له في الأمثال خصوصا مذهب سبق به أمثاله، فأمليت ما صدر عن ديوانه من مثل رائع في فنه، بارع في معناه ولفظه، ليكون تذكرة في المجلس العالي، تلحظها العين العالية، وتعيها الآذان الواعية".

وإذا كان المثل يحضر على المستوى الكمي في شعر المتنبي وينتشر في كل أغراض شعره بصورة لافتة للانتباه، فهذا يعني أننا نكون إزاء نوع شعري جديد، يمكن أن نسميه شعر التجربة والحقيقة، وهو شعر ينبع من التجارب الإنسانية التي

تنتزع من الحياة انتزاعا وتوضع ضمن سياق فني يعيش خارج الزمن والمكـــان. وكلما توفرت للشعر هذه الصورة النموذجية، وكلما استطاع أن يكون مرآة للحيـــاة لا للحظة في الحياة، فإنه يكتسب صفة الخلود على الرغم من انقضـــاء المناســبة الخاصة التي كانت سببا في وجوده. ونعني بصفة الخلود أن يكون الشعر صـــورة أيقونية تجسد متلقيا نموذجيا يعيش خارج الزمن والمكان على حد تعبير ريتشـــارد هوجارت. وهذا ما يعني أن هذا الشعر يتناول مظاهر أكثر ثباتا وديمومة وأكثـــر ارتباطا بجوهر الإنسان الكوني، الذي ينتمي إلى واقع إنساني شامل وثابت تنتفـــي فيه نسبية المكان والزمان، وتتلاشى فيه جدلية النص مع مؤلفه وبيئته. وفي ظـــل هذا المفهوم يغدو الشعر كشفا وتعليما تتآلف فيه الفطنة مع البصيرة ويتـــآزر فيـــه العقل مع الخيال. وعندها يصبح الشاعر حكيما صاحب بصيرة يعلم الناس الحكمة ويستخلص العبرة ويكشف عن الحقيقة ليس للآخـــرين طـــريقهم بمـــا اســـتخلص واكتشف. وهذا ما يجعل من الشعر فنا بموضوعه وأشيائه لا بلغته وأسلوبه. لأنـــه ينطوي على حكمة تأملية أو حكمة عملية يغدو الشعر بسببها أرفع من نفسه علـــى حد تعبير كروتشه. وذلك حين ينسلخ عن واقعه التاريخي فيرتبط بحقـــائق كليـــة نابعة من تجربة إنسانية توسع من آفاق الفكر في الحياة. ولقد تحدث عبد القـــاهر الجرجاني عن هذا النوع من الشعر في معرض حديثه عن فكـــرة "خيـــر الشـــعر أصدقه"، فأشار إلى أنه يعتمد ما يجري من العقل على أصل صحيح وبذلك "يكون ثمره –كما يقول الجرجاني– أحلى وأثره أبقى وفائدته أظهر وحاصله أكثر".

وتعد هذه إشارة تلميحية من الجرجاني إلى وجود نوع شعري تكمـــن قيمتـــه الجمالية في بعده الفكري والإنساني، وتدخل ضمن هذا النوع مقطوعات شـــعرية وأبيات مفردة مستقلة تعيش حياة هادئة ولا يغير هويتها تغيير، لأنها تتحدث عـــن تجارب إنسانية وحقائق بديهية يسلم بها العقل ولا يختلف فيها. وهذا مـــا تجســـده على وجه الخصوص شعرية المثل عند المتنبي، تلك التي تقوم علـــى خصـــائص نوعية يمكن إجمالها في الآتي:

١/ الشكل:

وهي صيغة تعبيرية تقوم على الاختزال والتوسع أو على الإيجاز والإطناب في علاقتها بمرجعها الخارجي. بمعنى أن المثل يختزل في عبارة موجزة ومكثفة تجارب إنسانية تتسم بالتفصيل والامتداد، أي أن المثل يجمل ويكثف ما هو مبسوط ومفصل على مستوى التجربة الفعلية، حيث يصبح الانتقال من الحدث الخارجي إلى بنية المثل مبنيا على التدرج من جزئيات إلى كليات. ويخضع هذا المسار لمنطق تعليمي مبدؤه الكشف عن حقيقة كلية تتحول إلى رمز يكتسي صبغة التعميم والحياد.

فمن هذا المنطلق إذن جاءت شعرية المثل عند المتنبي من حيث مبناها موجزة العبارة، خالية من تعقيد الصور البلاغية إلا ما يكون من أمر الصور القائمة على التراكيب البسيطة التي تنتشر على مساحة صدر البيت أو على مساحة عجزه أو عليه كاملا. ومن أمثلة ذلك قوله:

ليس التكحل في العينين كالكحل[١]

وفي الماضي لمن بقي اعتبار[٢]

ما كل دام جبينه عابد[٣]

مصائب قوم عند قوم فوائد[٤]

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا[٥]

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا[٦]

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب[٧]

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام[٨]

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ١١٤.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣٧٨.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣٥٩.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٢٤٨.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ١٩٨.

(٦) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٢٥٧.

(٧) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ١٩٣.

(٨) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٣٧٤.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد[1]

فلا مجد في الدنيا لمن قل مالـــــــــه ولا مال في الدنيا لمن قل مجـــده

ولما كانت شعرية المثل عند المتنبي على هذا النحو من التكثيـــف وبســـاطة التركيب ووضوح الصورة، جاءت واضحة الدلالة على معانيها كـــل الوضـــوح، مستقلة عن سياقها الخاص وظروف نشأتها، مما يجعلها قابلة لأن تعلق بالأذهـــان ويسهل حفظها ليتم إدراجها بعد ذلك في أي سياق مماثل، ولتكون أيضا موضوعا للتضمين والاستشهاد في المحاورة والمراسلة.

٢/ المكون المعنوي:

أما من حيث المعنى فإن شعرية المثل تدور على حقائق بسيطة مـــن قبيـــل البديهيات الشائعة التي تعتمد معنى عقليا محضا "يشهد له العقل بالصـــحة وتتفـــق العقلاء على الأخذ به، والحكم بموجبه في كل جيل وأمة ويوجد له أصل في كـــل لسان ولغة".

وهذا يعني أن هذه الحقائق البديهية هي عصارة تجارب بشرية طويلـــة فـــي صراعها التاريخي مع الكون والطبيعة وصراع الناس بعضهم ضد بعض وصراع الذات المفردة ضد المجموعة وضد أصناف الحدود والعراقيل التي تفســـد العـــيش والحياة.

فإذا قال أبو الطيب مثلا:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

رأى فيه عبد القاهر الجرجاني حكمة بالغة ومثلا سائرا يحيل علـــى "معنـــى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته، ويرى العارفون بالسياسة الأخـــذ بســـنته، وبه جاءت أوامر الله سبحانه (...) إذ كان موضوع الجبِلَّة على أن لا تخلو الـــدنيا من الطغاة الماردين، والغواة المعاندين، الذين لا يعـــون الحكمـــة فتـــردعهم، ولا يتصورون الرشد فيكفهم النصح ويمنعهم، ولا يحسون بنقائص الغـــي والضـــلال، وما في الجور والظلم من الضعة والخبال، فيجدوا لذلك مس أليم يحبســـهم علـــى الأمر ويقف بهم عند الزجر، بل كانوا كالبهائم والسباع، لا يوجعهم إلا ما يخـــرق

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ١، ص ٣٠٦.

الأبشار من حد الحديد، وسطو البأس الشديد، فلو لم تطبع لأمثالهم السيوف ولم تطلق فيهم الحتوف، لما استقام دين ولا دنيا، ولا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتبة العليا، فلا يطيب الشرب من منهل لم تنف عنه الأقذاء، ولا تقر الروح في بدن لم تدفع عنه الأدواء".

ويشير مثل هذا الكلام إلى أن الجرجاني قد فطن إلى أن شعرية المثل تدور على حقائق سرمدية مشتركة بين الناس كلهم، لم يزد الشاعر على أن ذكرهم بها في صيغة تعبيرية بسيطة مع الإبقاء على الإطلاق والتعميم.

٣/ الصورة النموذجية:

إن مما يميز شعرية المثل عند المتنبي –انطلاقا من معانيها العقلية المرتبطة بالحقائق المشتركة– هو انفتاحها على التجربة العامة التي لا تتقيد بتجربة أبي الطيب الذاتية ولا تختص بالسياق الخاص الذي نشأت فيه، وإنما تنزع إلى ملابسة جميع الأحوال المماثلة لمضمونها، وقد يسر لها هذا الأمر الالتحام بتجارب الآخرين في ظروف تاريخية مغايرة، مما جعلها تكتسب صفة الصورة النموذجية التي تتميز بطابعها اللامكاني واللازماني على حد تعبير بارت.

وبما أن لهذه الصورة علاقة بالسلوك الإنساني العام وبحتمية الموت والفناء، والتحذير من الاغترار بالدنيا والناس، فقد جاءت مفتوحة على عامة الناس دون تحديد شخصية المخاطب. ولذلك نجد في شعرية المثل انتشار ضمائر الحياد تلك التي لا تختص بمتكلم نطق بها، ولا تعين متلقيا بذاته، وإنما تنفتح على المتلقي النموذجي الذي ينسلخ عن قيود الجنس والزمان، فيستقل بذاته عنهما فيعيش في مقام مجرد ينفتح على التجربة العامة. ومن طبيعة هذا الضمير أنه ينتشر في شعر الحكمة والمثل كالذي نجده عند المتنبي. حتى أصبح هذا الضمير سمة أسلوبية ميزت شعرية المثل عند المتنبي. ونضرب لذلك أمثلة بالشواهد الشعرية الآتية:

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جبانا[١]

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٤٧٣.

الظلم من شيم النفوس فإن تجـد ذا عفة فلعلـــة لا يظلـــــم[١]

ذو العقل يشفى في النعيم بعقلـه وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم[٢]

إذا نظرت نيوب الليث بـــــارزة فلا تظنن أن الليث مبتســـم[٣]

إنما أنفس الأنيـــــس سبـاع يتفارسن جهرة واغتيـــــالا

من أطاق التماس شيء غلابـا واغتصابا لم يلتمسه ســـــؤالا[٤]

كل غاد لحاجـة يتمنـــــى أن يكون العضنفر الرئبـــــالا[٥]

ويظهر من خلال هذه الشواهد أن الضمير فيها لا يعين شخصية بذاتها، وإنما هو ضمير حيادي جمعي تعددي يعبر عن عدة وجوه لسانية. وهذا ما يجعل مـن شعرية المثل عند المتنبي كلاما لا يتوجه إلى معلوم ينحصر في متلق محدد بقـدر ما يتوجه إلى كل المتلقين من حيث إنهم أفراد تجـري علـيهم قـوانين الوجـود وأحكامه. ولذلك يكون مجاله هو المشترك بين الناس لا ما ينفرد به بعضهم عـن بعض.

٢ – الوظيفة:

وتدفعنا العلاقة بين المثل والمتلقي النموذجي إلى الحـديث عـن وظيفتـين متكاملتين تؤديهما شعرية المثل عند المتنبي. فالوظيفة الأولى تربوية، والوظيفـة الثانية معرفية نفسية.

ـ الوظيفة التربوية:

تجدد هذه الوظيفة العهد بوظيفة أساسية من وظائف الشعر العربـي القـديم الذي كان ينغرس في الحياة الاجتماعية ويغوص في أعماقها فتنتشر الحكمـة فـي تضاعيفه وتمازج العبرة معظم أغراضه. ويكفي أن نورد في هذا الصدد ما قالـه عمر بن الخطاب في وصيته لأبي موسى الأشعري: "مُرْ مَنْ قِبَلك بتعلم الشـعر؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب".

---

(١) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٣٩٦.

(٢) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٣٩٥.

(٣) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ٢٩١.

(٤) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ١٤٩.

(٥) ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، ج ٢، ص ١٥٠.

وما رواه أيضا الزبير بن بكار عن العمري في قوله: "روّوا أولادكم الشعر، فإنه يحل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحض على الخلق الجميل".

فضمن هذا السياق التربوي الخلقي تتدرج إذن شعرية المثل عند المتنبي. ذلك أنها أقيمت على أساس أخلاقي تربوي، يتجلى في التحريض على قيم إيجابية من شأنها أن تعيد الهوية للإنسان النموذجي والمثالي الذي لم يعد له وجود فعلي في زمن المتنبي، وفي الدعوة إلى رفض قيم سلبية لعلها هي السبب في ما آل إليه الواقع العربي من تدهور وانحطاط.

إن الجبن قيمة سلبية ظلت تتردد بكثرة في أمثال المتنبي لأنها هي أم العلل التي جرت الواقع العربي آنذاك إلى الانحلال والفناء.

ــ فما ينفع الأسد الحياء من الطوى

ولا تتقى حتى تكون ضواريا

وفي مقابل ذلك توجد قيمة الشجاعة وهي فضيلة إيجابية من شأنها أن تعيد ما ضاع من مجد، لذلك دعا إليها المتنبي وأكثر من ذكرها.

ــ لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم.

٤/ الوظيفة المعرفية النفسية:

تتبع هذه الوظيفة من الخصائص التركيبية لبنية المثل التي تتجسد في كونها بنية نصية مستقلة بذاتها عن أي مرجع أو سياق خاصين. فهي تحمل في كيانها السياق والمرجع.

وإذا كان المثل يرد في مظهر القدوة أو العبرة بعد أن تم إبرازه في شكل تجارب فردية في الحياة سرعان ما تنزع من سياقها الخاص فتتحول إلى تجربة عامة بعيدا عن أي تجربة ذاتية منفردة، فهذا يعني أنه قابل للاندراج في أي سياق بعد أن تعاد صياغته في جمل قائمة برؤوسها تتضمن الحكم والعبر استنادا إلى تجارب السابقين. وهذا ما يؤهلها لتكون أجوبة لعدد لا يحصى من الأسئلة التي يطرحها القراء على أنفسهم، وعلى هذا الأساس تكون أبيات الحكم والأمثال قابلة لأن تقرأ القراءات المتعددة وأن تقدم أجوبة لأسئلة كثيرة. ويرجع السبب في ذلك

إلى أن كل متلق يتفاعل معها على مقدار عثوره على ذاته فيها، ليس هذا فحسب، بل إن للمثل عند المتنبي أيضا وظيفة نفسية تتمثل في قدرته على التسلية وتهـــوين المصائب على النفس. والسر في ذلك أن عددا من أمثال المتنبي قد جـــاءت مـــن الإنسان على الوجع، ولذلك وجد فيها كل متلق تفريجا لكربه وتهوينا لهمه وتعبيرا عن الخصوصية في تجربته.

٣ – خلاصة:

انطلاقا مما سبق يمكن القول: إن المثل جنس أدبي مهاجر، حيث بإمكانه أن يسافر إلى بيئات ثقافية مختلفة ومتعددة، فيصبح متداولا في فضاء أكبر. كمـــا أن متلقيه قد يتحول من إنسان مقيد إلى إنسان مطلق ذي طبيعة كونية شاملة تتعـــدى مكانها وزمانها إلى ما هو أوسع وأرحب. وفي ذلك تكمن القيمة الشعرية والجمالية التي تميز المثل. ومن أجلها اعتبره العرب جنسا أدبيا سائرا في الزمان والمكـــان. وهذا ما أكسبه صفة الاستمرارية والتفاعل مع المتلقين لمدة زمنية طويلة حتى بعد تلاشي السياقات التاريخية التي نشأ فيها، فكلما أفلح الأدب في هز أفئدة عدد كبير من الناس، وانتشر في مكانه وفي غير المكان الذي قيل فيه، وفي زمانـــه وغيـــر الزمان الذي نشأ فيه، كان ذلك سببا في خلوده ودليلا على أنه مشتمل على الجودة مجسم للقيمة الفنية كل التجسيم.

الباب الرابع

الدراسة الفنية

الفصل الأول : بناء القصيدة عند المتنبي.

الفصل الثاني : الموسيقى الشعرية.

الفصل الثالث : الصورة الشعرية عند المتنبي .

الفصل الرابع : الأسلوب الجزل – السهل – الحوشي – الألفاظ والجمل والتكرار.

الفصل الخامس : الفنون البديعية عند المتنبي – طبقا – جناس – التورية.

الفصل الأول

بناء القصيدة عند المتنبي

البناء الهيكلي في قصيدة المتنبي:

(أخذت القصيدة العربية صورتها النهائية، فاستقرت منذ العصر الجاهلي، وتأصلت صورتها بوجهيها القديم والجديد)[١].

(فأجزاء البناء الهيكلي الرئيسية في القصيدة الشعرية هي (مبدؤها) و(تخلصها) و(خاتمتها)[٢].

يقول القاضي الجرجاني[٣]: (والشاعر الحاذق من يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء).

وقد كان المتنبي من الشعراء الذين عرفوا بجودة البناء الهيكلي للقصيدة على تعريف العلماء، يقول ابن رشيق [٤]: (وقد أربى أبو الطيب على كل شاعر بجودة فصول هذا الباب الثلاثة، إلا أنه ربما عقد أوائل الأشعار ثقة بنفسه، وإغراباً عن الناس).

وقد كان المتنبي من الشعراء الذين عرفوا بجودة التخلص، يقول القاضي الجرجاني[٥]: (..، فأما أبو تمام والمتنبي فقد ذهبا للتخلص كل مذهب، واهتما به كل اهتمام، واتفق المتنبي فيه خاصة ما بلغ المراد، وأحسن وزاد).

---

(١) حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني ، ص٣٤.

(٢) صلاح عبد الحافظ ، الصنعة الفنية في شعر المتنبي، دار المعارف ، بلا مكان، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م، صفحة ٤١٢.

(٣) الجرجاني ، القاضي على بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل ، وآخر، دار القلم ، بيروت، بلا طبعة، ص٤٨.

(٤) ابن رشيق ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجيل بيروت ، بلا طبعة ، الجزء الأول ، صفحة ٢٣٩.

(٥) الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، صفحة ٤٨.

وكان ابن رشيق يسمي التخلص بالخروج، يقول[١]: (ومن الناس من يسمي الخروج تخلصاً وتوسلاً). ولذلك نجده يقول[٢]: (...، ولطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح،..).

وقد أفرد القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة جزءاً كبيراً لبعض الأبيات التي أجاد المتنبي فيها حسن التخلص، ومن ذلك قوله:

نودعهم والبين فينا كأنه قنا ابن أبي الهيجاء في قلب فيلق[٣]

وقوله[٤]:

مرت بنا بين تربيها فقلت لها: من أين جالس هذا الشادن العربا

أما الخاتمة فقد برع فيها المتنبي، ساعده على ذلك الحكمة والتي أشتهر بها على غيره من الشعراء لأن الحكمة خالدة مع الزمن، ولا شك أن الخاتمة، كما يقول ابن رشيق[٥]: (وخاتمة الكلام تبقى في السمع وألصق بالنفس لقرب العهد بها، فإن حسنت حسن، وإن قبحت قبح، والأعمال بخواتيمها، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم).

ويقول أيضاً: (وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكماً لا يمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاح له أن يكون الآخر قفلاً عليه)[٦].

وفي ذلك يقول يسري محمد سلامة[٧]: (وتأتي الحكمة مأتاها الطبيعي في السيفيات نتيجة منطقية لتسلسل الأحداث أو المقدمات التي يسوقها الشاعر وكأنها شريط للأفكار التي تأتي في سياق الصورة العامة).

ومن حسن الخواتيم قوله:

---

(١) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، الجزء الأول ، صفحة ٢٣٦.

(٢) المصدر السابق ، الجزء الأول، صفحة ٢١٧.

(٣) ديوان المتنبي ، ح٢ ، ص ١٣.

(٤) ديوان المتنبي ، ح٢ ، ص١٥٣.

(٥) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، الجزء الأول، صفحة ، ٢١٧.

(٦) المصدر السابق ، الجزء الأول ، صفحة ٢٣٩.

(٧) يسري محمد سلامة ، الحكمة في شعر المتنبي ، صفحة ٧٧.

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما[1]

يتضح من ذلك أن المتنبي قد تميز عن غيره بجودة بناء القصيدة.

مطلع القصيدة عند المتنبي:

أهتم المتنبي بصياغة مبادئه اهتماماً كبيراً، وهو محق في هذا لأن المبدأ – أو المطلع – بمثابة مفتاح القصيدة، فهو أول ما يقرع السامع منها كما يقول ابن الأثير)[2].

يقول ابن رشيق[3]: (...، ولاسيما وهذا النوع – أعني جودة الابتداء – من أجل محاسن أبي الطيب، وأشرف مآثر شعره إذا ذكر الشعر).

وقد أعطى النقاد المطلع أهمية كبرى، وذلك لما له من أهمية، كما يقول أسامة بن منقذ: (أحسنوا الابتداءات فإنها دلائل البيان). ويقول أبو هلال العسكري[4]: (وإذا كان الابتداء حسناً بديعاً ومليحاً رشيقاً، كان داعية إلى الاستماع إلى ما يجئ بعده من الكلام).

وقد نظر صلاح عبد الحافظ إلى مطلع القصيدة عند المتنبي بعدة اعتبارات ووزعها إلى الأنواع الآتية:

١/ مبادئ عامة:

وهي التي تتساوى في سبكها وقوتها مع الأبيات التي تليها كائن ما كان موضوعها ومعناها والغرض الذي قيلت فيه.

وذلك مثل قوله:

اليوم عهدكم فأين الموعد؟ هيهات ليس ليوم عهدكم غد [5]

---

(١) ديوان المتنبي ، ح٢ ، ص ٣٨٥.

(٢) صلاح عبد الحافظ ، الصنعة الفنية في شعر المتنبي ، صفحة ٤١٦.

(٣) ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، الجزء الأول ، ص٢٢٢.

(٤) العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ، الصناعتين الكتابة والشعر ، تحقيق مفيدة قميحة ، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١م ، ص٣٩٦.

(٥) ديوان المتنبي ، ح١ ، ص ٢٨٠.

٢/ مبادئ تعمد فيها المتنبي الإغراب والغموض:

لغرض في نفسه، وهنا يعلو المبدأ عن بقية أبيات القصيدة، ويختلف – على الأقل– عن الأبيات التي تليه مباشرة،..، ولكن هذا الغموض أو الإبهام لا يصل فيها على حد الإحالة أو فساد المعنى واستغلاله عن الفهم. وذلك مثل قوله:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه

بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه[١]

٣/ المبادئ اللينة:

وهي مبادئ نسي المتنبي فيها أو تناسى أنه شاعر يخاطب أميراً أو ملكاً وخاطبه مخاطبة الصديق، فبدأ بهدوء لا يعهد فيه، وتخلو تلك المبادئ من التعقيد أو الفخامة، وكلها مبادئ لقصائد في سيف الدولة، وهذا يدل على ما كان يحتله هذا الأمير في قلب الشاعر.

وفي ذلك قوله[٢]:

لا حزن الله الأمير فإنني

سآخذ من حالاته بنصيب

وخصص القاضي الجرجاني في كتابه جزءاً مقدراً لجيد ابتداءاته، وذلك مثل مبادئه الآتية:

أيدري الربع أي دم أراقا وأي قلوب هذا الركب شاقا[٣]

أتراها في كثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي[٤]

حاشي الرقيب فخانته ضمائره وغيض الدمع فانهلت بوادره[٥]

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن[٦]

---

(١) ديوان المتنبي ، ح٢ ، ص ٢٦٤.

(٢) المصدر السابق ، ج١/ ص ١١٣.

(٣) المصدر السابق ، ج٢/ ص ٥.

(٤) نفسه، ج٢/ ص ٤٤..

(٥) نفسه ، ج١، ص ٣٨٢.

(٦) نفسه ، ج٢ ، ص ٤٥٢.

يقول الجرجاني[1]: (وهذه أفراد أبيات منها أمثال سائرة ومنها معاني مستوفاة لم تجد في أخواتها،..، ولعل أكثرها أو معظم ما اثبت منها، وكثيراً مما ذكر في درج ما تقدمها من اللمع المختارة، مختارة المعاني، مفترعة المذاهب).

فقد أفرد البديعي في الصبح المنبئ حيزاً للمحاسن مطالعه، يقول[2]: (هذه نبذة من محاسنه وروائعه وغرائبه وقلائده وفرائده التي زاد فيها على ما تقدم وسبق بها جميع من تأخر،...، فمنها حسن المطالع).

وقد جاء بهذه المطالع التي جاء بها القاضي الجرجاني وزاد عليها بعض المطالع الأخرى.

---

(١) الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص ١٦٠-١٦١.

(٢) البديعي ، الصبح المنبيئ ، عن حيثية المتنبي ، ص٣٩١.

الفصل الثاني

الموسيقى الشعرية

الموسيقى في شعر المتنبي:

تناول في هذا الفصل معنى الموسيقى، ونتعرف على أهميتها في الشعر وأيضاً ندرس عنصري الموسيقى وهما الوزن والقافية ونتعرف على بحور الشعر التي استخدمها المتنبي وأي هذه البحور أكثر استخداماً، ولماذا.

المقصود بالموسيقى الوزن والقافية، فالموسيقى ملازمة للشعر بل لا يوجد شعر بدون موسيقى يقول شوقي ضيف[١]: فلا يوجد شعر بدون موسيقى، وهي فيه تقوم مقام الألوان في الصورة، فكما أنه لا توجد صورة بدون ألوان كذلك لا يوجد شعر بدون موسيقى.

والآن ننتقل إلى الحديث عن عناصر موسيقى الشعر وهما الوزن والقافية.

أولاً: الوزن:

لكثرة قصائد المتنبي اقتصرت على القصائد التي تصف المعارك حيث استخدم المتنبي خمسة بحور من مجموع البحور كلها وهذه البحور هي الطويل والبسيط والكامل والخفيف والوافر.

١/ البحر الطويل:

مفتاح البحر الطويل:

طويل له دون البحور فضائل فعولن مفاعيل فعولن مفاعيلن

وهو أكثر بحر استخدمه المتنبي في هذه القصائد بل هو أكثر بحر استخدمه في جميع شعره.

وبحر الطويل أكثر البحور المستخدمة في الشعر العربي وخاصة القديم يقول إبراهيم أنيس[٢] ليس من بحور الشعر ما يضارع البحر الطويل في نسبة شيوعه فقد جاء ما يقرب من ثلث الشعر العربي القديم من هذا الوزن.

---

(١) شوقي ضيف في النقد الأدبي، مطبعة دار المعارف القاهرة، ط ٢ ١٩٦٦م، ص ٨٧.

(٢) دكتور إبراهيم انيس، موسيقى الشعر، ط٣، ١٩٦٥م، ص ٥٩.

ويقسم إبراهيم أنيس أبيات المتنبي جميعها على البحور فقال[١]: لو نظرنا في ديوان المتنبي نجد أنه اشتمل على ما يقرب من ٥٣٠٠ من الأبيات موزعة حسب النسب الآتية:

الطويل ٢٨%	الكامل ١٩%	البسيط ١٦%
الوافر ١٤%	الخفيف ٩%	المنسرح ٧%
المتقارب ٤%	الرجز ٢%	السريع ١%

نرى من هذه النسب أن العصر الذي عاش فيه المتنبي ظل شعراؤه يحتفظون بنسب القدماء في أوزان الشعر وبحوره. لذلك نجد أن المتنبي قد نظم في بحر الطويل أكثر شعره وهو لكثرة مقاطعه يناسب مواقف المفاخرة والمهاجاة والمناظرة. مثل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم * وتأتي على قدر الكرام المكارم[٢]

٢/ البحر البسيط:

مفتاح البحر البسيط:

البسيط لديه يبسط الأمل مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

وهو أخو الطويل في الجلالة والروعة وكذلك البحر البسيط بعيد عن العنف يقول عبد الله الطيب في ذلك[٣] إن البحر البسيط شديد الصلاحية للتعبير عن العنف.

وللمتنبي في بحر البسيط روائع عدة منها:

عقبى اليمين على عقبي الوغى ندم * ماذا يزيدك في إقدامك القسم[٤]

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع * إن قاتلوا جبنوا وإن حدثوا شجعوا[٥]

---

(١) د. إبراهيم أنيس، ص ١٧٥.

(٢) ديوان المتنبي، ج٢ ، ص ٢٩٧.

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب، ج٣، ص ٤٢٣.

(٤) ديوان المتنبي، ج٢ ، ص ٣١٩.

(٥) ديوان المتنبي، ج١/ ص ٤٥٠.

٣/ بحر الكامل:

مفتاح البحر الكامل:

كمل الجمال من البحور الكامل متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وفي شعر المتنبي يقول أنيس[١]:

وهو أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات وفيه لون خاص من الموسقى يجعله ــ إن أريد به الجد فخماً جليلاً ويجعله إن أريد به الغزل حلواً عذباً مع صلصلة كصلصلة الأجراس ونوع من الأبهة يمنعه أن يكون خفيفاً أو شهوانياً.

وقد نظم المتنبي من هذا البحر:

الرأى قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهي المحل الثاني[٢]

٤/ البحر الخفيف:

مفتاح البحر الخفيف:

خفيف خفت بت الحركات فاعلتن مستفعلن فاعلاتن

ونجد أيضاً في هذا البحر الفخامة ولكن فخامته أقل من فخامة الطويل والبسيط يقول في ذلك عبد الله الطيب[٣] إن الخفيف يجنح صوب الفخامة والسر في فخامته أنه واضح النغم والتفعيلات.

ونجد أن المتنبي وجد في هذا البحر فخامة وحماسة ومن ذلك:

ذي المعالي فليعلون مَنْ تعالى * هكذا هكذا وإلا فلا لا[٤]

٥/ بحر الوافر:

مفتاح البحر الوافر:

بحور الشعر وافرها جميل مفاعلتن مفاعلتن فعول

---

(١) د. إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص ٢٦٤.

(٢) ديوان المتنبي، ج٢/ ص ٤٣١.

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب، ص ٢٠٥.

(٤) ديوان المتنبي، ج٢، ص ١٤٠.

يمتاز هذا البحر بميزات غريبة يذكرها لنا إبراهيم أنيس فيقول[١]:

يحدث في كل شطر خاصة غريبة وهي أن عجزه سريع اللحاق بصدره وأحسن ما يصلح هذا البحر في الاستعطاف والبكائيات وإظهار الغضب في معرض الهجاء والفخر والتفخيم في معرض المدح[٢].

ومن ذلك قول المتنبي:

لهذا اليوم بعد غدٍ أريج * ونار في العدو لها أجيج[٣]

خلاصة:

المتنبي أختار أشهر بحور الشعر العربي ونظم فيها لذلك جاءت قوية وعنيفة.

ثانياً: القافية:

هي التي ينتهى بها بيت الشعر وقد وصفها محمد مندور بالأصوات المتكررة في آخر البيت فيقول في ذلك[٤] ليست القافية إلا عدة أصوات تتكرر في أواخر الأشعار أو الأبيات من القصيدة وتكررها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية ويتوقع السامع ترددها ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة.

والقافية مهمة في جرس الموسيقى للقصيدة يقول محمد مندور: وللقافية قيمة موسيقى في مطلع البيت وتكرارها يزيد في وحدة النغم ولدراستها في دلالتها أهمية عظيمة.

نخلص إلى أن المتنبي كان يعمد في قصائده إلى غرضه مباشرة إلا في قليل والتي بدأها بالنسيب والوقوف على الديار واهتم المتنبي بالتخلص وكان تخلصه من النوع السهل الجيد وقد أجاد المتنبي ختام القصائد حيث أختتم أغلبها بالحكمة أما بالنسبة للموسيقى فقد اهتم بالوزن والقافية.

---

(١) د. إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص ٣٥٨.

(٢) د. إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص ٢٥٩.

(٣) ديوان المتنبي ، ج١ ، ص ٢٢٤.

(٤) محمد مندور، الأدب وفنونه، ص ٢٧٧.

الفصل الثلث

الصورة الشعرية عند المتنبي

تتخذ الصورة البيانية عند شعراء البديع مظاهر بلاغية واضحة الدلالة، ولعل تلك المظاهر جزء من بلاغة الخطاب الشعري الذي عرف به شعراء البديع.

إن المظهر التشبيهي، والاستعاري، ومظاهر الكناية والرمز اتخذت موقعاً متميزاً في تصويرات شعراء البديع، وليس في هذا عجب، فإن هذه المظاهر هي جزء من فنية (البديع) كما فهمه شعراء تلك الحقبة ونقادها.

الصورة الشعرية هي رسم قوامه الكلمات أخذين بعين الاعتبار ووفقاً لمقتضيات الضرورة النقدية في أن الصورة هي نظرة فكرية تنبثق من واقع معاش إلى واقع متخيل تمثل معادلة تفاوتية وتباينية بين الشيء ونقيضه والقارئ العاشق للأدب حينما تمر الصورة الشعرية على مسامعه يضعف لها في قلبه لأنها مفتاح رمزية القصيدة ومدلولاتها السائرة بخطى واثقة نحو تشكيل الواقع الشعري.

لقد استطاع هذا الفصل رصد تلك الصور في اشعار الشعراء ودرسها على وفق اهميتها في التفصيلات الاتية:

المظهر التشبيهي:

التشبيه: فن من فنون البلاغة العربية، هيمن على جزء كبير من بنية القصيدة العربية، وهو في ابسط تعريفاته: "قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتستفتي فيه الافهام والاذهان لا الاسماع والاذان"(١). وبنية الجملة العربية تستدعي فيه: "طرفين مشبهاً ومشبهاً به، واشتراكاً بينهما من وجه، وافتراقاً من اخر، مثل ان يشتركا في الحقيقة ويختلفان في الصفة او بالعكس" (٢) ولذلك فإن "التشبيه في تصوير البلاغة العربية مقارنة بين طرفين متمايزين لاشتراك بينهما في سمة او سمات". (٣)

---

(١) أسرار البلاغة: ٢٠.

(٢) مفتاح العلوم: ٤٣٩.

(٣) رماد الشعر: ٢٩٠.

وللتشبيه "عند نقاد العربية السالفين إجـــلال وإعظـــام فقـــد توســـموا فيـــه البراعة والفطنة، وحضوا عليه وأقاموه دليلاً قاطعاً على البيان والبلاغة ومقياســـاً للشاعرية، وجعلوه منبعاً يستقون منه اختيارهم للشعر ومصدراً ينتقون منـــه مـــا يحفظ، ومستدراً للإعجاب". (١)

والتشبيه مظهر من مظاهر الصورة عند الشعراء وهو "محاولة بلاغية جادة لصقل الشكل وتطوير اللفظ، مهمته تقريب المعنى الى الذهن بتجسيده حياً، ومن ثم ينقل اللفظ من صورة إلى صورة أخرى على النحو الذي يريده المصور، فإن أراد صورة متناهية في الجمال والأناقة شبه الشيء بما هو أرجح منه حسناً، وإن أراد صورة متداعية في القبح والتفاهة شبه الشيء، بما هو أردأ منه صفة".(٢)

وقد كان "للتشبيه أثر عظيم في التعبير عن المعاني، ونقل الأفكار وإمتـــاع النفوس بالصور والأخيلة وتقريب الكلام إلى الأزهان والسموّ به من أرض الواقع إلى فضاء الخيال، وكلما تدرج المرء في هذا الارتفاع كان تصويره ابعد أثراً فـــي القلب، واشد رسوخاً في النفس". (٣)

ولقد قسم البلاغيون التشبيه تقسيمات عدة(٤)، من حيث الأداة ومـــن حيـــث وجه الشبه ومن حيث الطرفين، وستكون الدراسة في هذا المبحث مختصة بأنواع التشبيه التي تساعد في دراسة الصورة البيانية عند شعراء البديع.

---

(١) الكامل في النقد الادبي: كمال ابو مصلح: ١١٨، ط٣، المكتبة الحديثة، بيروت، ١٩٦٩م.

(٢) الصورة الفنية في المثل القرآني: د. محمد حسين علي الصغير: ١٦٧، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م.

(٣) لم اساليب البيان: د. غازي يموت: ١٨٣، ط١، دار الاصالة – بيروت ١٤٠٣هـــ – ١٩٨٣م.

(٤) ينظر: م. ن: ٩٣ ومابعدها.

أقسام التشبيه:

وسنتناول التشبيه باعتبار أركانه وباعتبار وجه الشبه.

١. التشبيه باعتبار أركانه:

للتشبيه أربعة أركان هي: المشبه والمشبه به ووجه الشبه، وأداة التشبيه على أساس هذه الأركان ينقسم التشبيه إلى أربعة أقسام وهي: مرسل مفصل، مرسل مجمل، ومؤكد مفصل، وبليغ.

أ. مرسل مفصل: وهو ما ذكرت فيه أركان التشبيه الأربعة ونجد ذلك في قول المتنبي:

فأوردهم صدر الحصان وسيفه * فتى بأسه مثل العطاء جزيل[١]

نجد التشبيه في قوله (بأسه مثل العطاء جزيل) حيث شبه الشاعر البأس بالعطاء في الكثرة، فذكر أركان التشبيه الأربعة وهي المشبه (البأس) والمشبه به (العطاء) ووجه الشبه (جزيل) والأداة (مثل) فالشاعر شبه لنا البأس وهو شيء يدرك بالعقل لا بالحواس، فقد شبهه بالعطاء وهو أيضاً يدرك بالعقل فالشاعر عوضنا شيئاً عقلياً وهو البأس بشيء عقلي وهو العطاء وقد أخذ الشاعر هذه الصورة من واقع الحياة التي نجد فيها أن الذي يعطى يكون عطائه جزيلاً، لأنه يعطى عن رغبة وعن طيب خاطر.

ب. مرسل مجمل: وهو ما حذف منه وجه الشبه ومثل ذلك قول الشاعر المتنبي [٢]:

تثنى على قدر الطعان كأنما * مفاصلها تحت الرماح مراود

التشبيه في قوله (كأنما مفاصلها تحت الرماح مراود) فقد شبه الشاعر مفاصل هذه الخيل (فالضمير ها في مفاصلها يعود للخيل) في حركتها بمسار المرود الذي حيثما أدير فنجد أن الشاعر لم يذكر وجه الشبه الذي هو حرية

---

(١) ديوان المتنبي، ج٢ ، ص ١٢٤

(٢) ديوان المتنبي، ج١ ، ص ٢٤٥.

الحركة في جميع الاتجاهات فقد شبه الشاعر مفاصل الخيل وهي شيء محسوس والمشبه به (مسمار المرود) وهو شيء محسوس فالشاعر عوضنا شيئاً محسوساً وهو مفاصل الخيل بشيء محسوس وهو مسمار المرود وهذا من محاسن التشبيه لأنه أدرك بحاسة البصر مما يجعل هذه الصورة راسخة في الذهن باقية الذكر.

ج- تشبيه مؤكد مفصل : وهو ما حذف منه الأداة وذكر فيه وجه الشبه ، فالتأكيد باعتبار حذف الأداة والتفصيل باعتبار ذكر وجه الشبه ومثل ذلك قول الشاعر المتنبي :

أيْـــنَ أزْمَعْتَ أيُّهَذاَ الهُمَامُ نَحْنُ نَبْتُ الرُّبَا وأنْتَ الغَمَامُ[١]

د. التشبيه البليغ(ويعرف بالتشبيه المؤكد المجمل): وهو تشبيه حذفت أداته ووجهه، فهو بنية بلاغية قائمة على الإيجاز، وأعمال الفكر، وقد حده ابن ابي الاصبع المصري (ت٦٥٤هـ) بـ"اخراج الاغمض الى الاظهر بالتشبيه مع حسن التاليف".[٢]

والتشبيه البليغ بعيد كما يرى القزويني لغرابته "وموقعه من النفس ألطف وبالمسرة أولى، ولهذا ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ".[٣] ولذا كان في هذا النوع من التشبيه "مبالغة او اغراق في ادعاء أن المشبه هو المشبه به نفسه، فحذف الاداة يوحي بتساوي الطرفين في القوة، وحذف الوجه الذي يدل على اشتراك الطرفين في صفة او صفات، دون غيرها يوحي بانهما متشابهان وفي كل صفاتها المناسبة ويفسح في الخيال لتصوير هذه الصفات". [٤]

ومن البلاغيين من يرى أن التشبيه البليغ هو البعيد أو الغريب الذي يحتاج إلى أعمال فكر فيكون موقعه في النفس ألطف[٥].

---

(٥) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٥ .

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن: ابن ابي الاصبع المصري: ١٥٩ تحقيق: حفني محمد شرف، لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة ١٣٨٨هـ.

(٣) الايضاح: ٢: ٢٥٩.

(٤) علم اساليب البيان: ١٥٤.

(٥) ينظر: الايضاح في علوم البلاغة: ٢٥٩، فن التشبيه: ٢: ٢٩٧، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: د. احمد مطلوب: ٢: ١٨٠، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٦ – ١٩٨٦م.

وهو ما حذف منه الأداة ووجه الشبه وذلك مثل قول الشاعر[١]:

أبا الغمرات توعدنا النصارى * ونحن نجومها وهي البروج

نجد في هذا البيت تشبيهين، التشبيه الأول في قوله (نحن نجومها) حيث شبه الشاعر أنفسهم بالنجوم، والتشبيه الثاني في قوله (وهي البروج) خشية الحرب بالبروج أي أنهم ــ سيف الدولة وجنوده ــ لا ينفكون عن الحرب وجاء بهذا التشبيه لبيان النجوم، وفي هذا إظهار لقوة هؤلاء الجنود وشجاعتهم وبسالتهم لأن الذي يجبن لا يلازم الحرب، بل يفارقها خوفاً من الموت. نجد في التشبيه الأول أن المشبه وهو سيف الدولة وجنوده وهو يدرك بحاسة البصر والمشبه به هو النجوم وههو يدرك بالبصر أيضاً إذن الشاعر عوضنا محسوس بمحسوس وفي التشبيه الثاني نجد المشبه الحرب وهو يدرك بالعقل والمشبه به البروج يدرك بالعقل أيضاً فالشاعر عوضنا معقول بمعقول وقد أخذ هذه الصورة من الطبيعة.

التشبيه التمثيلي:

وهو أن ينتزع "من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر، حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الأفراد، لاسبيل الشيئين يجمع بينهما وتحفظ صورتهما"[٢]، وهو عند المعاصرين ان يكون: "وجهه منتزعاً من متعدد، أمرين أو أو أكثر، بأن يكون لكل من الطرفين كيفية حاصلة من مجموع شيئين أو أشياء قد تضامت وتلاءمت حتى صارت شيئاً واحداً، فيعمد الشاعر إلى أجزاء الطرف المشبه فيشبهها مع الهيأة الحاصلة من تركيبها بالطرف الآخر"[٣]. وهذا التعريف ما كان عليه جمهور البلاغيين مثل الخطيب القزويني[٤] ومن جاء بعده في تعريفهم له، فهم لا يشترطون غير تركيب الصورة سواءً أكانت العناصر التي

---

(١) ديوان المتنبي، ج١ ، ص ٢٢٥.

(٢) اسرار البلاغة: ١٠١.

(٣) فن التشبيه: علي الجندي: ٢: ١١، ط٢، مكتبة الانجلو المصرية، ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦، وينظر: الصورة البيانية بين النظرية والتطبيق: ١٢٣.

(٤) ينظر: الايضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني: ٢٤٩، مطبعة المثنى – بغداد.

تتألف منها صورته تركيبة حسية او معنوية"[١]، ثم تبعهم في ذلك البلاغيون المتأخرون.

وللتمثيل أهمية كبيرة في الصورة البيانية أوجزها عبد القاهر الجرجاني بقوله: "اعلم ان مما اتفق العقلاء عليه، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، او برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب اليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً"[٢].

وفي هذا يقول الشاعر[٣]:

مضى بعدما التفى الرماحان ساعة * كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا

حيث شبه الشاعر التفاف الرماح وشدة اشتباكها، شبهها باشتباك الأجفان عند النوم والصورة المنتزعة هي: اشتباك شيئين اشتباكاً شديداً فقد رسم لنا الشاعر صورة لهذا الاشتباك العنيف بين سيف الدولة والروم الذي تداخلت فيه الرماح واشتبكت أشد الاشتباك وقد وضحت لنا الصورة عظم الموقف وشدة القتال فالمشبه هو تداخل الرماح مع بعضها وهو يدرك بالبصر والمشبه به هو التقاء واشتباك أهداب الإنسان عند النوم وهو يدرك بالبصر أيضاً فالشاعر عوضنا محسوس بمحسوس.

ويقيناً أن التشبيه التمثيلي ابلغ وأوقع في النفس من التشبيه غير التمثيلي وذلك لان وجه الشبه فيه منتزع من عدة أمور ولذلك يكون جمال التشبيه التمثيلي هي في بعد الانتقال من المشبه إلى المشبه به مما يعطي بذلك صورة تكون اقرب للنفس وأجمل، لأنها تحتاج إلى تخيل صورة جديدة تبعد عن الواقع.

---

(١) علم اساليب البيان: ١٣٦.

(٢) اسرار البلاغة: ١١٥، وينظر ايضاً: ١٢١.

(٣) ديوان المتنبي، ج١ ، ص ١٢٢.

المظهر الاستعاري:

الاستعارة:

قيل في تعريف الاستعارة الكثير غير ان اهمها: "أن تذكر احد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الاخر، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، دالاً على ذلك بإثبات للمشبه ما يخص المشبه به".[١] وهي عند البلغاء ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة[٢] وذلك لأنه يشتمل على نوعي الاستعارة التصريحية والمكنية.

وللاستعارة أهمية كبيرة في البلاغة العربية فهي على حد تعبير ابن رشيق القيرواني: "أول أبواب البديع، وليس في حلي الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها"[٣]، وهذا يوافق ما تناوله ابن المعتز حينما جعل الاستعارة الباب الأول من أبواب البديع.[٤]

ولذلك فإنها: "مبالغة في التخييل والتشبيه مع الإيجاز غير المخل بالمعنى والتوسعة على المتكلم في العبارة".[٥]

إن جمال الاستعارة "يظهر في أنها تصور المعنى تصويراً يحقق غرض القائل مع مبالغة مقبولة، وتأثير في نفس السامع مع إثارة لخياله دون اطالة او أطناب"[٦] وهي تعتمد "ما في الكلمة من حمل أو خصب كامن"[٧] ولكن هذا الخصب لا يمكن ان يكون في الجملة المفردة وإنما عندما تكون في السياق الذي يعطيها هذا الخصب.

---

(١) مفتاح العلوم: ٤٧٧.

(٢) ينظر: تأويل مشكل القران: ابن قتيبة: ١٠١، تحقيق: احمد السيد صقر، دار احياء الكتب العربية، علم أساليب البيان: ٢٣٨.

(٣) العمدة: ١: ٣٦٨.

(٤) ينظر: البديع: ٣.

(٥) المنزع البديع في تجنيس اساليب البديع: محمد القاسم الانصاري السجلماسي: ٢٣٥، تحقيق: علال الغازي، ط١، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ١٩٨٠.

(٦) علم أساليب البيان: ٢٧٣.

(٧) الصورة الأدبية: د. مصطفى ناصف: ١٢٥، ط٣، دار الاندلس، بيروت – لبنان، ١٩٧٣م.

فالاستعارة "علاقة لغوية تقوم على المقارنة، شأنها في ذلك شان التشـــبيه، لكنها تتمايز عنه بأنها تعتمد على الاستبدال او الانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات المختلفة". [١]

والاستعارة عند ريشاردز: "الوسيلة العظمى التي يجمع الذهن بواسطتها في الشعر أشياء مختلفة لم توجد بينها علاقة من قبل، وذلك لأجل التأثير في المواقف والدوافع"[٢]، ولذلك كانت أمراً أصيلاً في الشعر، بل انها خيوط نسجه[٣]، ولهـــذا يرى د. مصطفى ناصف: "أن لفظ الاستعارة إذا احسن ادراكه، قد يكون اهدى الى لفظ الصورة، وأن الصورة اذا جاز الحديث المفرد عنها، لن تستقل بحال ما عـــن الادراك الاستعاري"[٤]، فهي كما قال بعض النقاد: "ان كل صورة شعرية تحتـــوي على قدر ما من الاستعارة فهي تنظر من مرآة لاتتلقى مظهر الحياة فحسب وإنمـــا تمثل شيئاً من الحقيقية الكامنة وراء هذا المظهر". [٥]

وقد قسم البلاغيون المتأخرون الاستعارة تقسيمات عدة يهـــم البحـــث هنـــا الاشارة الى نمطين مهمين هما:

١. الاستعارة التصريحية:

وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه به او ما استعير فيها لفـــظ المشـــبه بـــه للمشبه.[٦].

ومن أمثلتها قول المتنبي:

وفينـــا الســـيف حملتـــه صـــدوق * إذ لاقـــى وعارتـــه لجـــوج[١]

---

(١) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: د. جابر عصـــفور: ٢٠١، ط٢، دار التنـــوير، بيروت لبنان ١٩٨٣.

(٢) مبادئ النقد الادبي، رتشاردز: ٣١٢، ترجمة: مصطفى بدوي، المؤسســـة المصـــرية العامـــة للتـــأليف والترجمة والنشر القاهرة، ١٩٦٣.

(٣) ينظر: النقد المنهجي عند العرب: د. محمد مندور: ٤٨، دار نهضة مصر، للطبع والنشر.

(٤) الصورة الادبية: ٥.

(٥) علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته: د. صلاح فضل، مؤسسة مختار، القاهرة: ١٩٩٢.

(٦) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٨٥، والمجاز في البلاغة العربية: د. مهدي صالح الســـامرائي: ١٢٢، ط٢، دار الدعوة، حماه، سورية ١٣٩٤، ١٩٧٤م.

الاستعارة في قوله (وفينا السيف) حيث استعار السيف لسيف الدولة فيكون المستعار هو السيف والمستعار له هو سيف الدولة فالمستعار هنا نستطيع أن نشاهده فهو أمر حسي، والمستعار به أيضاً ندركه بأعيننا ونراه فهو أيضاً أمر حسي فالشاعر إذن استعار لنا محسوساً بمحسوس والجامع بينهما هو الصرامة وهو أمر عقلي وقد أخذ الشاعر هذه الاستعارة من أرض المعركة التي يوجد فيها كثير من معدات القتال. ولكنه اختار السيف لتميزه عنها بشدة وسرعة فصلها من توجه نحوه ونستطيع أن نقول إن الشاعر موفق في هذه الاستعارة لأنها أدت الغرض الذي ضربت من أجله وهو المبالغة في وصف سيف الدولة بالصرامة وسرعة قتله للعدو.

الاستعارة المكنية:

وتسمى أيضاً الاستعارة بالكناية "وهي كما عرفت ان تذكر المشبه وتريد المشبه به دالاً على ذلك بنصب قرينة تنصبها وهي ان تنسب اليه وتضيف شيئاً من لوازم المشبه به المساوية"(٢) وهي التي حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه.

والاستعارة المكنية "ترسم لنا صورة مجسمة يتمثل فيها المشبه المحسوس غير العاقل شخصا او يتجسد من خلالها المعنوي محسوساً"(٣)، فهي اكثر جمالاً من الصورة الاستعارية التصريحية.

ومن ذلك قول المتنبي:

تغدو المنايا فلا تنفك واقفةً * حتى يقول لها عودي فتندفع(٤)

الاستعارة في قوله (تغدو المنايا) والغدو هو المجرية على أمر عقلي، واستعار الغدو للموت، والموت أمر عقلي لأنه يدرك بالحاسة، فالشاعر استعار لنا معقولاً بمعقول والجامع بينهما أمر عقلي وهو المجيء فالشاعر في هذه الاستعارة

---

(١) ديوان المتنبي ، ح١ ، ص ٢٢٥.

(٢) مفتاح العلوم: ٤٨٧.

(٣) بناء القصيدة الفنية في البيان العربي: ٣٣٨.

(٤) ديوان المتنبي ، ح١ ، ص ٤٥٦.

استطاع أن يجسد الموت في شكل إنسان ويجعلـــه يغـــدو ويقـــف وينـــدفع بـــأمر الممدوح.

مظاهر أخرى:

١. المظهر الكنائي:

الكناية من ألوان البلاغة وباب من أبواب البيان، ومظهـــر مـــن مظـــاهر الصورة في الشعر العربي، فقد جاءت في أشعار العرب القديمـــة وفـــي القـــرآن الكريم وأحاديث الرسول (ﷺ) وقد نالت إعجاب البلاغيين قـــديماً وحـــديثاً، فعبـــد القاهر الجرجاني يقول عنها: "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يـــذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجـــود فيوميء إليه ويجعله دليلاً عليه".(١)

والكناية في الشعر العربي تمثل "مظهراً من مظاهر المجاز في التعبير عن الاشياء بما يلأئمها من اوصاف لإضفاء الغموض عليها"(٢) وذلك لانها تقدم المعنى المجاور للمعنى الحقيقي.

ومن اسباب بلاغة الأسلوب الكنائي "أنـــه يضـــع المعـــاني فـــي صـــور المحسوسات".(٣)

وعلى الرغم مما قيل في بلاغة الكناية فإن للدكتور رجاء عيد رأيـــاً آخـــر فيها حيث يقول: "لم تكن الكناية أول الامر تمثل قضية فنيـــة ذات خطـــورة فـــي تشكيل البناء اللغوي، بل ولعلها مازالت كذلك، ولكن الرغبة في تفتيت كل شـــيء والدوران حوله ثم التفنن فيما لا فن فيه كان لابد أن يشمل ما اصطلح عليه باســـم الكناية".(٤)

ولا يمكن الوقوف عند هذا الرأي لأن "الأسلوب الكنائي مازال حياً يســـاير التطور الزمني والنضج الفكري على مختلف العصور ويمكن بقليل مـــن التـــذوق

---

(١) دلائل الاعجاز: ٦٦. ينظر: الطراز المتضمن لاسرار البلاغة، وعلوم حقائق الاعجـــاز العلـــوي: ٣٣٦ ومابعدها، مطابع المقتطف القاهرة، ١٣٣٢هـــ – ١٩١٤م.

(٢) بنية القصيدة العربية البحتري انموذجاً: د. صلاح مهدي الزبيدي: ١٠٦.

(٣) الصور البيانية بين النظرية والتطبيق: ٤٤٨.

(٤) فلسفة البلاغة: بين التقنية والتطور: د. رجاء عبد: ١٨١، منشأة المعارف بالاسكندرية.

الفني لهذا الأسلوب أن يقوم بدور خطير في رسم الصورة الادبية"[١]، وعلى اية حال فإن "الكناية في جميع صورها اذ كانت واقعة موقعها هي اسهل تصوراً على الذهن واوضح صورة من الحقيقة، فتكون من ثم ابلغ واشد في النفس تأثيراً منها"[٢].

والكناية عند الجرجاني[٣] المراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ إليه دليلاً عليه.

فالكناية إذاً هي أن تطلق كلاماً تريد به لازم معناه وتنقسم الكناية باعتبار المكني والمكني عنه إلى ثلاثة أقسام هي: الكناية عن الصفة والكناية عن الموصوف الكناية عن النسبة.

١) الكناية عن الصفة:

وقد كني المتنبي عن كثير من الصفات منها الشجاعة، الكرم، الخوف. وسأتحدث عن الشجاعة حيث أنها أهم صفة لأن الذي يتصف بها يحقق هدفه وينتصر على عدوه يقول المتنبي:

وصول إلى المستصعبات بخيله * فلو كان قرن الشمس ماءً لأوردا[٤]

الكناية في قوله (فلو كان قرن الشمس ماءً لأوردا) يعنى أن هذه الشمس برغم بعدها لو كانت ماءً لأورد سيف الدولة منها وذلك أنه يصل إلى مرامه مهما بعد ومهما كان ذلك صعباً وهذا يدل على شجاعته إذن فهي كناية عن الشجاعة، والمكني هو قوله لو كان قرن الشمس ماء لأوردا، فهو أمر محسوس، والمكني عنه هو الشجاعة وهو أمر معقول فالصورة نقلتا من عالم المحسوس إلى عالم المعقول وقد أخذ الشاعر هذه الصورة من الطبيعة.

---

(١) الصورة البيانية بين النظرية والتطبيق: ٤٤٧.

(٢) فلسفة البلاغة: جبر ضومط: ١٠٤، المطابع العثمانية في بعبدا لبنان، ١٨٩٨م.

(٣) دلائل الإعجاز للجرجاني، ٥٤.

(٤) ديوان المتنبي ، ج١ ، ص ٢٥٣.

٢) كناية عن الموصوف:

يقول المتنبي[١]:

وفارس الخيل من خفــت فوقرهــا * في الدرب والدم في أعطافها دفــع

فجملة الكناية في قوله (وفارس الخيل) المقصود بها الصفات التي نجدها في الفارس مثل الشجاعة والإقدام والهزيمة وغيرها وأراد الشاعر بهذه الصفات سيف الدولة فهذه إذن كناية عن موصوف وهو سيف الدولة، والمكني هنا هــو فــارس الخيل وهو أمر معقول والمكني عنه هو سيف الدولة وهو أمر محسوس.

نستنتج أن المتنبي ربط بين المعانى والصور التي استخدمها وجسد المعــانى العقلية في صور محسوسات وعبر لنا تعبيراً جيداً عن بعض الصور الذهنية.

في شعر المتنبي يمكننا دراسة ادواته الفنية في شعر الحكمة لديه كما يأتي:

الادوات: ١.اللغة ٢.الصورة ٣. الموسيقى

-الــلــــــــغة:

بدأ المتنبي حياته الفنية تلميذا بارعا في مدرسة أبي تمام، ومضــى يترســم خطاه ويقتفي أثره في خطواته الأولى على الطريق الفني الذي كــان أبــو تمــام يضرب بخطاه الثابتة القوية فيه، مثيرا من حوله تلك الضجة النقدية الضخمة التي شغلت القرن الثالث ووضعته على قمة حركة التجديد فيه، ممثلا لتلــك المدرســة الجديدة التي شق دروبها الأولى رائدها الأول مسلم بن الوليد. وفي قصائد المتنبي المبكرة التي نظمها في صدر حياته الفنية تبدو بصمات أبي تمام البديعية واضحة، وتطل أصباغه وألوانه وتشكيلاته الزخرفية وكأنها تعلن عن نفسها، ولكنها تبدو – على الرغم من كل الجهد الذي يبذله المتنبي في صــناعتها– مجــرد محــاولات ساذجة يحاول فيها التلميذ الناشئ أن يقلد أستاذه الكبير. ويمكننا أن نعتبر الأسلوب هو المنهج أو الطريقة التي يصوغ بها الأديب أو المبدع أفكاره ويعبر بهــا عمــا يجول في خاطره من عواطف وانفعالات سواء أكانت هذه الطريقة شعرا أم نثرا، فهو بذلك أداة لإبراز الأفكار وبلورة العواطف.

---

(١) ديوان المتنبي، ج١، ص ٤٥٢.

وقد كان المتنبي واسع الإطلاع على كتب اللغة والنحو ودواوين الشعراء، واسع العلم بأسرار اللغة وغريبها ولهجاتها، ومذاهب النحاة وشواهدهم. فقد كان مبرزا في مجال اللغة، مكثرا في نقلها، مطلعا على غريبها وحوشيها. وأكثر استشهاده بكلام العرب نظما ونثرا. قرأ عليه ابن العميد كتابه الذي جمعه في اللغة وكان يعجب من حفظه وغزير علمه. كما قرأ عليه أهل مصر كتاب المقصور والممدود لأبي العباس ابن ولاد فصححه وأخذ على مؤلفه بعض الغلطات. قيل إن كتبه بعد موته كانت تحمل ملاحظات نفيسة دونها بيده. وكان حريصا على حمل مكتبته في أسفاره وقد امتازت لغة المتنبي في قوتها فلاءمت بها قوة نفسه ومعانيه وأغراضه. وتبدو هذه القوة في ألفاظه الصلبة، وتراكيبه المتينة، وتشابيهه واستعاراته وقد وُصف بأنه نادرة زمانه، وأعجوبة عصره، وظل شعره إلى اليوم مصدر إلهام ووحي للشعراء والأدباء. وكان أكثر الشعراء تمكنًا باللغة العربية وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها، وله مكانة سامية لم تتح مثلها لغيره من شعراء العربية.

إن اللغة الأدبية تختلف عن لغة العلم والحياة اليومية اختلافا بينا وهي بهذا السياق تعبير لألفاظ مفردة بما تحمله من انفعالات ودلالات إيحائية، ولهذا فإن لهذه اللغة المثيرة ألفاظها الخاصة التي لا يجوز للشاعر تجاوزها، وذلك أن لغة الشعر لغة العاطفة تختلف عن لغة العقل.

ومن هذا المنطلق فقد أولاها النقاد والدارسون أهمية بالغة لما تمتاز به من مكانة في العمل الإبداعي باعتبارها العنصر الأساسي لكل عمل فني يعتمد الكلمة كأداة للتعبير.

ويعتبر الدكتور مصطفى سويف أن اللغة مجرد وسيلة عند من عنوا بالمضمون في العمل الفني دون الصورة، وعلى الضد من ذلك هي غاية الفنان عند فريق آخر من الباحثين من. فالنقد نفسه لا يتعلق في التجربة j.p. Sartre (أمثال ريتشاردز وجان بول سارتر الشعورية بالعمل الأدبي إلا حين تأخذ صورتها اللفظية. ولأن الحكم عليها لا يتأتى إلا باستعراض الصورة النقدية التي وردت فيها وبيان ما تنقله هذه الصورة إلينا من حقائق ومشاعر.

ولهذا كان من أوليات الشعر، حسن استظهار خصائص اللغة لأنها مادة العمل الشعري، فكانت بذلك علاقة تجربة الشاعر بلغته، أوثق من علاقة الشاعر أو المؤلف المسرحي، وذلك لأن الشاعر يعتمد على ما في قوة التعبير من إيحاء بالمعاني في لغته التصويرية الخاصة.

ومن هنا عمد النقاد والدارسون إلى اعتبار الشعر اكتشافا دائما للكلمة واكتشافاً للوجود، من خلال اللغة وطريقة تعامله معها تتم عن مدى قدرته على عملية الخلق والاكتشاف للأبعاد الجديدة التي تحملها الألفاظ، والتراكيب، ومن ثم فإن: "الشعر الوسيلة الوحيدة لغنى اللغة وغنى الحياة على السواء، والشعر الذي لا يحقق هذه الغاية الحيوية لا يمكن أن يسمى شعرا بحق" وعلى هذا الأساس فقد تفاوت الأدباء والشعراء وتمايزوا في طريقة تعاملهم مع اللغة،منهم المجيد، ومنهم العادي ومنهم دون ذلك لأن التعبير الأدبي في أبسط صوره صنعة لغوية تختلف اختلافا واضحا من أديب إلى آخر، فقد يكون البعض مقتصدا كأحمد حسن الزيات، أو مسرفا كطه حسين، أو أن يكون هادئا كإبراهيم ناجي، أو هادئا كحسن إسماعيل أو مكثفا معقدا كالرافعي، أو سهلا رشيقا كنزار قباني. وليس ذلك مرده إلى طبيعة الشاعر، بل إنه يعود إلى طريقة تعامله مع اللغة وفهمها وفي إحساسه لها في استعماله كل حبالها من البساطة الكاملة إلى المعاضلة المعقدة.

ونتيجة للدور الكبير والهام الذي تلعبه اللغة في الحكم على العمل الإبداعي، كان من واجبنا أن نقف على هذا الجانب في شعر المتنبي لنكتشف ونستقصي الخصائص التي تميزت بها لغة شاعرنا.

لقد أضفت لغة المتنبي القوية على أشعاره صورا حماسية رائعة ارتسمت في تطور منحاه البياني، هذه الروح الثورية المتأججة، وهذه الصرخات الأليمة التي تصدر من نفس شاعرنا التي تشكل المصدر أو الينبوع المتدفق في بناء قصائده، إذ يقول في قصيدة يمدح فيها سيف الدولة

وَمَــا أَنَا إِلاَّ سَمْهَــرِيٌّ حَمَلْتَــهُ فَزَيَّـــنَ مَعْـــرُوضًا وَرَاعَ مُسَـــــــدَّدَا
أَجِزْنِـــي إِذَا أَنْشَــدْتُ شِعْراً فَإِنَّمَا بِشِعْـــرِي أَتَــاكَ الْمَادِحُـــونَ مُـــرَدَّدَا[1]
وَدَعْ كلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنَّنِي أَنَــا الصَّــائِحُ الْمَحْكِــيُّ وَالْآخَــرُ الصَّــدَى
تَرَكْتُ السُّرَى خَلْفِي لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَأَنْعَلْتُ أَ ْ فرَاسِي بِنُعْمَــاكَ عَسْجَــدَا[2]

فالمتأمل لهذا النص الشعري يلفته الشكل الخارجي للغة التي تحمل جملــة من الوظائف والدلالات في بنيتها الفردية (الكلمة) وبنيتها الكلية (التركيب). فاللغة بهذا البناء الفني عند المتنبي كانت مادة لدلالة ظاهرة وباطنــة تتجــاوز القــرائن البعيدة لتقف عند سطوة المدرك الملموس الذي يستشعره المتنبي. فقد أوجد عالمــا كاملا من الكلمات في مستوى طموحه (سمهري، مسددا، عسجدا...) كلمات كلها قوة، ويمكن أن نرد هذا إلى نفسيته المتأججة بنار الثورة المتطلعة إلــى المعــالي وهذا ما مكن هذه النفس الثائرة إنتاج فخامة على هذا الشعر الذي له علاقة وطيدة بنفسية صاخبة وهو ما مكن العمل الفني أن يكون في مستوى تطلعاته وطموحــه واعتداده بذاته من جهة، وميله إلى نهج سبيل القوة من جهة أخرى.

إذاً فاللغة الشعرية عند المتنبي لغة تسعى إلى البحث عــن الجديــد وغيــر المألوف لكي تكون تمثلا صادقا لنفسية الشاعر، ولقد سعى بلغته هذه إلــى بنــاء معمار فني خاص، يعتمد على استثمار العلاقات الصوتية للغة فتسعى الكلمات في قصائده إلى أن تغمر القارئ بمتعة صوتية تصرفه عن المعنى للحظة في عالم من التراكيب المتخيلة، ولكنه لا يلبث بعد انتهاء الموجة الشعرية أن يكتشف جلاء هذا الغموض مما يولد لديه إحساسا بالارتياح.

وهذا ما لاحظه الدكتور طه حسين: " روحا عذبا غريبا ليس مــن اليســير وصفه ولا تصويره، ولكنك تحسه إحساسا قويا، بل أنت تقرأ القصيدة، فــإذا هــذا الروح يسبق ألفاظها ومعانيها إلى قلبك، ويشيع في نفسك خفة وطربا...والغريــب أن هذا الروح العذب الخفيف يحتفظ بعذوبته وخفته في القصيدة كلها، ولكنه مــع ذلك يتخذ أشكالا، وإن شئت فقل يتخذ ألوانــا مختلفــة، تتبــاين بتبــاين المعــاني

(١) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٢٥٨.
(٢) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٢٥٩.

والموضوعات التي يطرقها الشاعر في هذه لقد ارتقى أبو الطيب المتنبي باللغة إلى أبعد الحدود وأعطاها أبعادا جديدة تكشف عن رؤية جديدة لنظام اللغة حيث كانت له قدرة فائقة على تطويع الكلمة واستخدامها في شعره.

ويحذر الشعر من تلك القيود التي يراها بمثابة المعوقات التي تحد من الانطلاق في التحليق نحو سماء الشعر، فيستطيع من خلال تلك الكلمات المضيئة المشرقة أن يرسل نشيده الخالد الذي يملأ الكون بضيائه ويعيد الإنسان إلى كيانه البشري.

هذه هي إذا مهمة الشاعر الذي يجعل من الكلمة ثورة لا تهدأ وصرخات تهز العالم هزا، فالكلمة بهذا التصوير هي ثورة غاضبة وعاصفة هوجاء عند شاعرنا تبعث في الخاملين والكسالى، وتفجر من الألم أملا وتبعث من اليأس رجاء، فيقول المتنبي:

الْخَيْل وَاللَّيْل وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
صَحِبْتُ فِي الْفَلَوَاتِ الْوَحْشِ مُنْفَرِدًا حَتَّى تَعَجَّبَ مِنِّي الْقُورُ وَالْأَكَمُ[1]

ويقول أيضا:

أَرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أَن يُبَلِّغَنِي مَا لَيْسَ يَبْلغُهُ مِنْ نَفسِهِ الزَّمَنُ[2]
مَا كلُّ مَا يَتَمَنَّاهُ الْمَرْءُ يُدْرِكهُ تَجْرِي الرِّيَّاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِي السُّفُنُ[3]

وقوله كذلك:

وَمَا أَنَا إِلَّا سَمْهَرِيٌّ حَمَلْتَهُ فَزَيَّنَ مَعْرُوضًا وَرَاعَ مُسَدَّدَا[4]
وَمَا الدَّهْرُ إِلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَلاَئِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

ذلك أن أبا الطيب ينظر إلى الكلمة على أنها ينبوع الثورة المتفجر فهو لم يتوانى لحظة في استخدام الكلمة المعبرة، فكأن لسان قومه في التعبير الثوري الذي يتأتى طرق الموت والهلاك ناشدا الوصول إلى بغيته. فكان يكثر من اختيار الألفاظ المدوية التي تحمل دلالات كبيرة ومن تلك الألفاظ (الرياح، سمهري، الدهر).

قد افتخر بنفسه في التشبه بالرمح،وعظم الأمير بإظهار طواعيته له وخضوعه المطلق لإرادته، وهذا يظهر لنا قدرته الفائقة على مزاوجة المعاني، وجمع المتناقض منها في معنى واحد بالتخريج والتأويل.

ويمكننا القول أن المتنبي الذي استوعب تراثه وثقافة عصره على نحو فريد، استطاع أن يجعل في قصائده أعماقا وتجليات لتلك الثقافة وذلك التراث، ولكنه استطاع في الوقت نفسه أن يتعداهما إلى تحقيق إنجازه الشعري الباهر، الذي يتمثل في الدرجة الأولى بلغة شعرية صقيلة نافذة متألقة. بهذا الإنجاز الشعري، ربح المتنبي معركته مع الزمن، الذي كان في شعره أبرز الخصوم

---

(١) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٢٩١.
(٢) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٤٦٧.
(٣) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٤٦٩.
(٤) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٢٥٨.

ويقول الأصفهاني في كتابه (الواضح في مشكلات شعر المتنبي): "وجملة القول". في المتنبي أنه من حفاظ اللغة، ورواة الشعر .

ويعتقد جودت فخر الدين أن التباس المتنبي بأسرار لغته هو أساس الموقف الذي صدر عنه في شعره كله. إنه موقف الشعور بالتفوق، الذي يضع المشروع الشعري اللغوي فوق أي مشروع آخر، والذي يتراجع إزاءه كل غرض وكل موضوع وكل موقف آخر.

إزاء هذا الموقف، لا يكون المديح سوى ذريعة أو فرصة. وكذلك الهجاء أو الغزل... أو. غير ذلك من الأغراض. لا أظن أن الدارسين قد ذهبوا بعيدًا في الكشف عن أسرار اللغة الشعرية للمتنبي. وعلى رغم الدراسات الكثيرة والسجالات والمعارك النقدية التي دارت حوله، فإن شعره لا يزال يغري بالمزيد من البحث والتعمق و لعل سر اقتران الحكمة الشعرية بالمتنبي أكثر من غيره من الشعراء هو قدرته اللغوية الفائقة، والخبرة بمتطلبات الصياغة التي جعلت أبياته تتردد على الألسنة ؛ فتكتسب سيرورتها واستمرارها، وهي لغة صقيلة حاسمة واضحة ؛ تقنع المتلقي وتدهشه معا. يقول المتنبي في هذا البيت:)وَوَضعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى فهذا البيت يخبر عن معنى دقيق، خلاصته أن الأفعال لا تمدح أو تذم مجردة عن ظروفها وملابساتها ؛ فللشدة مواطنها التي لا ينفع فيها الرفق واللين، والعكس صحيح أيضا. فهو في هذا البيت قد سكب هذه الحكمة المستمرة الثابتة في قالب الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والرسوخ والدوام، واللافت أنه لم يستخدم في البيت فعلا قط ! وهذا الاختيار أي الاقتصار على الأسماء في أبيات الحكمة، هو اختيار واع من الشاعر للغته، ويكاد يكون ملمحا أسلوبيا في شعر الحكمة ؛ إذ له نظائر كثيرة، منها قوله: الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ، وَهِيَ فِي المَحَلِّ الثَّانِي وقوله أيضا:

فَطَعْمُ المَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ المَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ في حين يرى الدكتور/ صالح بن عبد الله بن عبد العزيز الخضيري أن المتنبي ينأى عن الألفاظ المستعملة في الوسط الأدبي و يختار الألفاظ الغريبة أو النادرة أو الشاذة ويقحمها في نصه الشعري عن قصد و تنتشر هذه الألفاظ في شعره بشكل يختلف إلى حد

كبير عن الأدباء المعاصرين له، فقد قال في مطلع قصيدته التي مدح بها عبد الواحد بن العباس المتنبي صاحب اللغة المتجددة، جودت فخر الدين.

أَرِكَائبَ الأحْبَابِ إنَّ الأدْمُعَا تَطِسُ الخُدُوْدَ كَمَا تَطِسْنَّ اليَرْمُعا

فَاعْرِفنَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَيْكنّ النَّوَى وَامْشِيْنَ هَوْنَا فِي الأزِمَّةِ خُضَّعَا[1]

لقد اختار كلمة "تطس" من بين عدة بدائل متاحة، و كان بإمكانه أن يختار كلمة "تدق " لكنه اختار كلمة تطس لأنها هي التي تعبر عما في نفسه، وكذلك اختار كلمة اليرمع، وكان بإمكانه أن يختار كلمة الحجارة، وربما يكون للقافية دور في اختيار كلمة اليرمع.

فقد أصبح اختيار الألفاظ الغريبة و تفضيلها على غيرها من البدائل المتاحة هي إحدى " Stylistic السمات الأسلوبية لشعر أبي الطيب المتنبي، فهي بمثابة البصمة الأسلوبية التي امتاز بها المتنبي عمن عداه من الشعراء.Finger " لقد أخضع المتنبي مهارته الأسلوبية لإيثاراته الخاصة فهو شاعر متحرر مما يمليه عليه المقام ولا يضبط اختياراته تبعا لما يتطلبه الموقف، لذلك نجده يختار الألفاظ ذات المعاني غير المألوفة و يقحمها في شعره مع إمكان استبدالها بغيرها. على أن طبيعة الشاعر ونفسيته وراء اختيار هذا النوع من الألفاظ، فهو لا ينظر إلى الممدوح فقط لأن صورة المتلقي تتراءى أمامه ولا تغيب عنه، فالمتلقي هو الغائب الحاضر.

٢-الصورة:

إن الصورة من أهم عناصر العمل الإبداعي الشعري وأحد مقومات جودته وقد أولى لها الدارسون والنقاد عناية خاصة سواء تعلق الأمر بالقدامى أو المحدثين

وتعد معيارا فنيا في دراسة الشعر ونقده بوصفها قيمة جمالية تحددها أخيلة الشعراء وبراعتهم في اختيار الأدق وفقا على نفسية متلقيهم لأنها تمثيل وقياس نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا فضلا عن كونها وسيلة لنقل فكرة الأديب وعاطفته.

---

(١) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٤٧٤.

الفصل الرابع

الأسلوب الجزل – السهل – الحوشي

الأسلوب/هو طريقة الكاتب، أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ وتركيبها في جمل على نحو خاص يرتضيه ذوقه، ويراه هو الأنسب للتعبير عن أفكاره ومشاعره، وهذا العمل هو ما يسمى بالصياغة.

ومقاييس الأسلوب تحكم على الألفاظ المفردة من حيث سلامتها من العيوب التي تخلّ بفصاحتها، أو الأخطاء الدلالية التي يمكن أن يقع فيها الأديب؛ نظرًا لقلة علمه باللغة ومعاني مفرداتها، وكذلك على الجمل المركبة من هذه الألفاظ من حيث استواء نظمها، ومجيئها وفق النظام السليم للجملة في لغة العرب.

وقد عُني النقد القديم بالصياغة أو الأسلوب عناية كبيرة، فهذا ابن رشيق – مثلا– يقول نقلا عن بعض العلماء:"إن المعاني موجودة في طباع الناس يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل على جودة الألفاظ وحسن السبك وصحة التأليف. ألا ترى لو أن رجلا أراد في المدح تشبيه رجل، لما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث والبحر، وفي الإقدام بالأسد، وفي المضاء بالسيف، وفي العزم بالسيل، وفي الحسن بالشمس، فإن لم يحسن تركيب هذه المعاني في أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة، والعذوبة والطلاوة والسهولة لم يكن للمعنى قدر؟

وبعضهم مثّل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة، فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس؛ فقد بخست حقها وتضاءلت في عين مبصرها".

وتختلف الأساليب باختلاف المعاني التي يراد أداؤها، وقد ذكر علماء النقد عددا من أنواع الأسلوب، منها:

١ـ الأسلوب الجزل:

والجزل في اللغة: القوي، وكلام جزل أي: قوي شديد، واللفظ الجزل خلاف اللفظ الركيك.ويعرّف أبو هلال العسكري الأسلوب الجزل بقوله: "أما الجزل، والمختار من الكلام فهو الذي تعرفه العامة إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها".

ومن نماذج الأسلوب الجزل قول المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي * وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها * ويسهر الخلق جراها ويختصم[١]

٢ـ الأسلوب السهل:

وهو ما خلا من ألفاظ الخاصة، وارتفع عن ألفاظ السوقة.

ومن نماذج الأسلوب السهل قول المتنبي:

يهز الجيش حولك جانبيه * كما نفضت جناحيها العقاب[٢]

وإذا كانت النفوس كباراً * تعبت في مرادها الأجسام[٣]

٣ـ الأسلوب السوقي:

وهو ما كان المعنى فيه صوابا، واللفظ باردا أو فاترا

ومن أمثلته قول أبي الطيب المتنبي

رواق العز حولك مسبطر * وملك على ابنك في كمال[٤]

ولعل لفظة الاسبطبرار في مراثي النساء من الخزلان الضعيف الدقيق المغير.

---

(١) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٢٩٠.

(٢) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ١٣٢.

(٣) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٤) ديوان المتنبي ، ج٢ ، ص ٧٣.

٤ـ الأسلوب الحُوشي:

وهو ما تغلب عليه الألفاظ الغريبة الحُوشية أو الوحشية، تلك التي تحجب المعنى وتتزلق به إلى الغموض.

ومن ذلك قول الشاعر أبوتمام:

أفي تنظم قول الزور والفند وأنت * أنذر من لا شيء في العدد

وأيضاً قوله:

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع * فإن لحْت ذابت في الخدور العوائق[١]

(١) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٢٤٠.

الفصل الخامس

الفنون البديعية عند المتنبي- طباق -جناس – التورية

البديع مصطلحاً وشعراء:

أ. المصطلح:

ظهر مصطلح البديع في الشعر العربي ليدل على الجديد، أو المحدث موافقاً في ذلك المعنى اللغوي لهذه الكلمة، ففي لسان العرب: "بدعَ الشيء يبْدعُه بدعاً وابتدعه: أنشأه وبدأه، وبدع الركية استنبطها وأحدثها، وركيٌّ بديع الحفر والبديعُ والبدع: الشي الذي يكون أولاً، وفي التنزيل (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ)،[1] أي ما كنت أول من أرسلَ، قد ارسل قبلي رسلٌ كثيرٌ"[2]، وجاء في الصحاح: "أبدَعْتُ الشيء: اخترعته لا على مثال، وابدع الشاعر: جاء بالبديع".[3]

ويرى الدكتور احمد مطلوب ان كلمة البديع لايخرج معناها في المعاجم الاخرى عن معنى الجدة والبراعة، وهي من الالفاظ التي وردت في الشعر القديم[4]، ثم إن "الرواة أول من اطلق معنى البديع على المستظرف الجديد من الفنون الشعرية وعلى بعض الصور البيانية التي يأتي بها الشعراء في اشعارهم فتزيدها حسناً وجمالاً"[5]، وهذا ما ذكره الجاحظ (ت٢٥٥هـ) حينما علق على قول الاشهب بن رُميلة:

هُمُ ساعدُ الدهر الذي يتقى به وماخير كف لاتنوء بساعد

---

(١) الاحقاف: ٩.

(٢) لسان العرب: ابن منظور، مادة: بَدَعَ، طبعة جديدة اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب، محمد صادق العبيدي، ط٣، دار احياء التراث العربي، بيروت – لبنان ١٤١٩– ١٩٩٩م.

(٣) الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري: مادة بدع، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

(٤) ينظر: فنون بلاغية البيان والبديع: احمد مطلوب: ١٩٦، ط١، دار احياء البحوث العلمية، الكويت، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

(٥) القزويني وشرح التلخيص: د.احمد مطلوب:٤٢٤، ط١، مطابع دار التضامن بغداد، ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م.

قوله: (هم ساعد الدهر) انما هو مثل وهذا الذي تسميه الــرواة البــديع(١)، وقال أيضاً: "والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقــت لغــتهم كــل لغـــة وأربت على كـــل لسان"[٢] فهل حقاً ان البديع مقصور على العربية وبه تفوقــت على كل لغة، ولسان؟.

لقد شغل هذا السؤال الباحثين، وفي اجابة الباحث ضياء خضير تكمن اجابــة يمكن قبولها، فقول الجاحظ فيه مبالغة: "يدخل فيها موقف الجاحظ مــن الحركــات الشعوبية في عصره وحرصه على نسبة الفنون اللغوية كلها للعرب، فانه يمكن أن يوضح لنا موقف النقاد والادباء في القرن الثالث من قضية نسبة البديع التي يبــدو أنها لم تكن سبب اثارتها على هذا النحو يرتبط بالمشكلات الفنية التي اثارها ابــو تمام ومن قبله مسلم بن الوليد اللذان افرطا في استخدام هذا اللون من الفــن علــى نحو لايعرف له مثيل من قبل" [٣]. فالجاحظ لم يكن على علم تام باللغات الاخرى، ولم يكن في عصره قد درست اللغات دراسة مقارنة، ولعله في قولــه هــذا كــان منحازاً الى لغة الشعر عند العرب التي تمثل فيها البديع بكم لافت للنظر بخــلاف لغة النثر يوم ذاك و"لعل الجاحظ كان اول من اهتم بالبديع وصوره حينما تحــدث عن الاستعارة والتشبيه والكناية والسجع والارصاد وحسن التقسيم وغيرهــا مــن فنون البيان الاخرى" [٤]. وبذلك يكون مصطلح البديع عند الجاحظ يعنــي فنــون البلاغة جميعاً دون تمييز بين أنواعها ولا تقسيم لها، ولــيس فــي هــذا غرابــة فالمصطلحات في ايامه كانت شائعة من دون تبويب أو تقسيم دقيقين.

خطا البديع خطوات عدة على يد عبد الله بن المعتز (ت٢٩٦هــ) في كتابــه (البديع)، يقول ابن الأثير الحلبي (ت٧٣٧هــ) إن: "أول من سمى هذا النوع البديع

---

(١) ينظر: البيان والتبيين: الجاحظ: ٥٥/٤، تحقيق:عبد السلام محمد هارون، ط١، مطبعــة لجنــة التــأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٨هــ - ١٩٤٩م، ليس للشاعر ديوان والبيت من البحر الطويل.

(٢) البيان والتبيين: ٤: ٥٦.

(٣) بحثاً عن الطريق، وابحاث ومقالات في النقد: ضياء خضير: ٩٩، دائرة الشؤون الثقافية والنشــر، دار الحرية للطباعة - بغداد - ١٩٨٣م.

(٤) مناهج بلاغية: د. احمد مطلوب: ٣٢١، ط١، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٣٩٣هــ ـ ١٩٧٣م.

ابن المعتز وألف فيه كتاباً" [١]، ويقول ابن المعتز موضحاً سبب تأليفه للكتاب: "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدناه في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله (ﷺ) وكلام الصحابة والإعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم ان بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن قبلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه" [٢]، وهو أول كتاب ظهر يحمل هذا الاسم نبه فيه الى أن هذا الفن قديم ولم يخترعه الشعراء المحدثون[٣]، فقد وضع أبوابه وقعد اصوله وهو القائل: "قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا وكأني بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال البديع أكثر من هذا وقال البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها فيقل من يحكم عليه لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو" [٤]، ويرى الدكتور قاسم مومني ان ابن المعتز اكثر دقة من الجاحظ عندما لاحظ البديع بمعناه الاصطلاحي[٥]، هذا كلام صحيح ولا عيب فيه على الجاحظ فابن المعتز نهضت في زمنه الدراسات الادبية واللغوية وأخذت حيزاً واضحاً في البحث والاستقصاء فكان بذلك أول من اطلق هذا المصطلح على مجموعة من فنون الشعر، وهي عنده مختلطة بين علوم البلاغة الثلاثة التي انفصلت وقعدت فيما بعد، "وليس البديع عند ابن المعتز ما تعارف عليه المتأخرون من وجوه تحسين الكلام اللفظية والمعنوية، وانما هو

---

(١) جواهر الكنز تلخيص كنز البراعة في ادوات ذوي البراعة: نجم الدين ابن الاثير الحلبي: ٤٨، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالاسكندرية وينظر: تاريخ علوم اللغة العربية: د. طه الراوي: ١٦٥، ط١، مطبعة الرشيد، بغداد، ١٣٦٩هـ – ١٩٤٩م.

(٢) البديع: ابن المعتز: ١، نشر اغناطيوس كراتشكوفسكي: مكتبة المثنى – بغداد، ١٩٧٩م.

(٣) ينظر: البلاغة فنونها وافنانها علم البيان والبديع: د. فضل حسن عباس: ٢٧١، ط١، دار الفرقان، عمان الاردن، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

(٤) البديع: ابن المعتز: ٥٨.

(٥) ينظر: الموازنة بين ابي تمام والبحتري للامدي تحليل ودراسة: قاسم مومني: ١٨٤، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

معنى واسع أو مصطلح عام تنطوي تحته كثير من موضوعات البلاغة: كالاستعارة والجناس والكناية والتشبيه والطباق" [١].

أما قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) فإنه من معاصري ابن المعتز جمع من البديع أنواعاً كثيرة، كالتصريع والسجع والجناس والطباق والالتفات ولكنه لم ينظر إليه غير نظرة معاصره. [٢]

وكان أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) قد عقد الباب التاسع من كتابه (كتاب الصناعتين) في شرح البديع وهو عنده مختلف الصور البيانية من استعارة وتعريض وتطريز وتشطير، والبديع في هذا الكتاب خمسة وثلاثون فناً(٣)، وقد قال عنه: "فهذه أنواع البديع التي ادعى من لا رواية عنده أن المحدثين ابتكروها وأن القدماء لم يعرفوها وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين، لان هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبرئ من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة"[٤].

ويرى أكثر من باحث ان علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت٣٩٢هـ) لم يعتن باصناف البديع ولم يذكر منها الا أنواعاً قليلة، ويبدو أنه سمى فنون القول بديعاً كما كان الباقلاني (ت٤٠٣هـ) يسميها" [٥].

اما ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) فقد اعتنى بالبديع وفرق بينه وبين فنون البلاغة المعروفة[٦]، بخلاف ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) الذي لم يفرق:

---

(١) القزويني وشروح التلخيص: د. احمد مطلوب: ٤٢٦.

(٢) ينظر: نقد الشعر: قدامة بن جعفر: ٩١، ومابعدها، تحقيق: د. عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية ــ بيروت.

(٣) ينظر: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر: ابو هلال العسكري: ٢٧٢، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم، مطبعة عيسى بابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٢م.

(٤) م. ن: ٢٧٣

(٥) ينظر: القزويني وشروح التلخيص: احمد مطلوب: ٤٢٦، ينظر: تطور البديع: حذام جمال الدين الالوسي: مجلة كلية الاداب، العدد: التاسع عشر: ٥٢ لسنة ١٩٧٦، جامعة بغداد.

(٦) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده: ابن رشيق القيرواني: ١: ٢٣٥، ط١، تح: محمد محيي الدين عيد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٣هـ ١٩٣٤م، ينظر: مناهج بلاغية: احمد مطلوب: ٣٢٢.

"بين موضوعات البلاغة وكان معاصره عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) مثله"[١]. ويرى الدكتور عبد العزيز عتيق أن: "المتصفح لكتابي عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) يرى أنه لم يحاول فيها وضع نظرية في علم البديع، كما فعل بالنسبة الى علمي المعاني والبيان، ولو أنه فعل لأعفى أصحاب البديع من توزيع مباحثهم فيه توزيعاً حال بينها وبين أن يصير علماً واضح المعالم والمباحث كالمعاني والبيان" [٢]، ومن يقرأ كتابه (أسرار البلاغة) يجد أنه أطلق البديع على الاستعارة وعلى سائر أقسام البديع كالتجنيس والحشو والطباق وحسن التعليل، ويسمى هذه الموضوعات وبحوثاً أخرى دخلت في علم المعاني بياناً في كتابه (دلائل الاعجاز). [٣]

فكلمتا البيان والبديع متقاربتا المعنى عند عبد القاهر ولم يكن لهما المدلول الخاص الذي أطلقه السكاكي (ت٦٢٦هـ) والمتأخرون [٤]. أما أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ) في كتابه (البديع في نقد الشعر) فقد جمع فيه ما ذكره السابقون من فنون البديع ووزعها على خمسة وتسعين باباً،[٥] وفيه جملة من أبواب البلاغة التي كانت معروفة في عصره استطاع ان يجمعها بذوقه المرهف ووفرة مصادره النقدية والأدبية. [٦]

وبهذا يكون البديع عند هؤلاء جميعاً يشمل فنون البلاغة كلها لأنها كانت غير مقسمة على علومها الثلاثة، وحينها ظهر السكاكي وقسم البلاغة الى المعاني والبيان والحق بهما البديع وهو عنده وجوه يؤتى بها لتحسين الكلام، ثم ذكر ستة

---

(١) القزويني وشروح التلخيص: ٤٢٦.

(٢) علم البديع: عبد العزيز عتيق: ٢٦، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠م.

(٣) ينظر: اسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني: ٢٠، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، ط١، دار المدني السعودية (١٩٩١)، دلائل الاعجاز: عبد القاهر الجرجاني: ٦٦، وما بعدها، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني – السعودية .

(٤) ينظر: القزويني وشروح التلخيص: ٤٢٦.

(٥) ينظر: البديع في البديع في نقد الشعر: اسامة بن منقذ: ٢٥، تحقيق: عبد علي مهنا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

(٦) ينظر: تطور البديع: حذام جمال الدين الالوسي: ٥٢، مجلة كلية الاداب، العدد التاسع عشر لسنة ١٩٧٩م. جامعة بغداد.

وعشرين محسناً معنوياً ولفظياً ولم يسمها بديعاً[١]، وإنما تركها ولم يجمعها تحت الوان هذا الفن.

وترى الباحثة حذام الالوسي: أن: "أول من أطلق البديع على القسم الثالث من البلاغة هو بدر الدين بن مالك (ت٦٨٦هـ) في كتابه المصباح[٢]، وكان تلخيصاً للقسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي وكان له الأثر الواضح في الكتب التي جاءت بعده، وعد احد المصادر" [٣] وتبعه في ذلك الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) وسمى القسم الثالث من البلاغة بديعاً، اذ قال فيه "وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقة على مقتضى الحال ووضوح الدلالة" [٤]، وكان هذا التعريف الجامع المانع لأصول علم البديع وقواعده.

ثم ظهرت بعد هذا "البديعيات" والبديعية هي: "قصيدة طويلة في مدح النبي (ﷺ) – ونادراً غيره – يتضمن كل بيت من ابياتها نوعاً من أنواع البديع يكون هذا البيت شاهداً عليه، وربما وري باسم النوع البديعي في البيت نفسه في بعض القصائد"[٥]. ويرى علي أبو زيد أن ظهور البديعيات واشتمالها على فنون البديع عامة دلالة واضحة في تأكيد انفصال هذا الفن عن البيان والمعاني وإشاعة هذا الانفصال بين الناس عن طريقها، ويرى أيضاً أن مما آكد هذه الظاهرة الانفصالية لهذا الفن ترسيخ قواعده وتوضيح أنواعه وتحديدها من خلال الشروح التي قامت على هذه البديعيات واقتصارها على فنون البديع التي تأتي في أثناء البديعية، وإن أول ما يلمح من هذه القصائد الإشارة أحياناً إلى حياة هذا الفن منذ نشأته عند الأوائل إلى زمن البديعيات من خلال المقدمات التي كانوا يقدمون بها

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: السكاكي: ٥٣٢ ومابعدها، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٢) لم اطلع على الكتاب.

(٣) تطور البديع: حذام الالوسي: ٥٣.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني: ٢: ٣٣٤، تحقيق: لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر، مكتبة المثنى، بغداد.

(٥) البديعيات غي الأدب العربي، نشأتها وتطورها – أثرها: علي أبو زيد: ٤٦، ط١، عالم الكتب – بيروت، لبنان ١٩٨٣م.

لشروحهم، وأول من نظم بديعية علي بن عثمان الاربلي (ت ٦٧٠هـ) [١] وتابعه في ذلك نفر كبير من الشراح.

ولكن منهج السكاكي وبدر الدين بن مالك والقزويني لم يقض على الاتجاه البديعي[٢]، ولم يلتزم أصحاب البديعيات بهذا التقسيم فعلى سبيل المثال أكدت الباحثة ليلى سعد الله ناجي أن ابن معصوم المدني (ت١١٢٠هـ) في كتابه (انوار الربيع في أنواع البديع) لم يقسم البلاغة على فنونها الثلاثة، ولم يلتزم بالحدود والتقسيمات التي فرضتها بلاغة السكاكي واتباعه، إذ جاء البديع عند المدني ممتزجاً بمصطلحات البيان والمعاني والنحو والسرقات الشعرية، اذ تتحول هذه المصطلحات إلى كلمة واحدة هي البديع. [٣]

أما شعراء البديع الذين ظهروا في العصر العباسي وعرفوا بهذا المصطلح من دون غيرهم فقد كانوا مسبوقين بهذه الظاهرة القديمة التي اهتدى إليها القدماء وعرفها المحدثون[٤] وهذا ما نبه اليه ابن المعتز في كتابه واكد أن البديع قديم قدم العربية وهو موجود في القران الكريم واحاديث الرسول (ﷺ) وكلام الصحابة والشعراء الأوائل[٥]، اما القاضي الجرجاني فقد قال بمعرفة العرب القدماء للبديع: "وقد كان يقع ذلك من خلال قصائدها ويتفق لها في البيت بعد البيت من غير تعمد وقصد، فلما افضى الشعر الى المحدثين ورأوا مواقع تلك الابيات من الغرابة والحسن، وتميزها عن اخواتها في الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع، فمن محسن ومسيء، ومحمود ومذموم، ومقصد ومفرط" [٦]، اما ابن سنان

---

(١) ينظر: انوار الربيع في أنواع البديع: السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني:١: ٣١-٣٢. حققه وترجم لشعرائه:شاكر هادي شكر، ط٢١،مطبعة النعمان، النجف الاشرف، ١٣٨٨، ١٩٦٨م.

(٢) ينظر: مناهج بلاغية: ٣٢٢.

(٣) ينظر: الدرس البلاغي في انوار الربيع في أنواع البديع: ليلى سعد الله ناجي: ١١٠، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة ديالى، ٢٠٠٢م، ينظر: انوار الربيع في أنواع البديع: ١: ٢٤٣، ٣: ١٧٩، ٥: ١٩٥، ٥: ٣٨٩.

(٤) ينظر: الموازنة بين ابي تمام والبحتري، تحليل ودراسة: ١٤٩.

(٥) ينظر: البديع: ١.

(٦) الوساطة بين المتنبي وخصومه: القاضي الجرجاني: ٣٤، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، علي محمد البجاوي، ط٤، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

الخفاجي ففي قوله: "وقد استعملته العرب المتقدمون في اشعارهم، ثم جاء المحدثون فلهج به منهم مسلم بن الوليد الانصاري، واكثر منه" [١]، وهذا تأكيد للقول الاول.

ولعل الجاحظ من اوائل النقاد الذين أطلقوا هذا المصطلح على الشعراء حينما عدّ الراعي النميري وبشار بن برد والعتابي من شعراء البديع[٢]، ولعله قصد حينما عدّ الراعي النميري من شعراء البديع أن البديع يعني التشبيهات والاستعارات الطريفة[٣]، لانه انفرد بذكر الراعي النميري من شعراء البديع ولم يتابعه في ذلك النقاد القدماء مثل ابن المعتز في كتابه (البديع) وابن رشيق القيرواني في كتابه (العمدة)، ولذلك سنستبعد الراعي النميري من شعراء البديع الذين ستجري دراسة شعرهم.

والبديع عند حفني محمد شرف: "كائن حي في تطوره كلما تقدم به زمنه واختلف مكانه اختلفت النظرة اليه، فبعض الشعراء يسير فيه ويأتي على قدر ما يحتاج اليه المعنى والبعض الاخر يفرط استعماله، ولعل للحياة الاجتماعية بجانب الزمان والمكان دخلاً كبيراً في هذا، فعطاء الخلفاء ومنح الامراء كثرت للشعراء، ففتشوا جعبهم ليخرجوا ما يرضي ممدوحيهم، كما أن الحزبية كان لها الاثر الكبير في هذا الاكثار". [٤]

لقد صار الشعراء في القرنين الثاني والثالث فريقين: شعراء اقتفوا خطى الاقدمين لايحدثون في الشعر الوانا جديدة الا بالقدر الذي يتفق مع روح العربية، فبقوا على منهج القدماء وكان شعرهم امتداداً للشعر القديم من دون أن ينفصلوا عن عمود الشعر العربي ومناهجه القديمة الا من حيث صفاتهم العقلية، من هؤلاء

---

(١) سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي: ١٨٥، تصحيح: عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح واولاده، ميدان الازهر، مصر، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م.

(٢) ينظر: البيان والتبيين: ٤: ٥٥.

(٣) ينظر: الموازنة بين ابي تمام والبحتري للامدي، تحليل ودراسة: ١٧.

(٤) ابن ابي الاصبع المصري بين علماء البلاغة: حفني محمد شرف: ٤٥، ط١، مطبعة الرسالة، مصر.

الشعراء مروان بن حفصه، واشجع السلمي، ودعبل الخزاعي وابن الرومي والمتنبي. [1]

اما الفريق الاخر فقد: "كان منهم شعراء جاروا روح العصر وتمشوا مع الحياة الجديدة فجنحوا الى التجديد والكثرة من البديع ومن هؤلاء بشار بن برد، وآبن هرمة، والعتابي، وابو نواس، ومسلم بن الوليد، وابو تمام جرى بالبديع أشواطاً وتباعد عن مألوف الشعراء الاقدمين كما يقول الجاحظ وابو الفرج الاصفهاني (ت٣٥٦هـ) والامدي (ت٣٧١هـ) والقاضي الجرجاني وابن رشيق القيرواني".[2]

وازاء النصوص التي وردت في كتب الادب والنقد اختلف الادباء والنقاد ووقفوا يتساءلون في حيرة، من هو إمام البديع من الشعراء والقدوة فيه في عصر المحدثين؟

قال بعضهم؛ بشار بن برد وقال البعض الاخر، مسلم بن الوليد، وقال فريق ثالث، ابو تمام، والمسألة ليست خطرة كما توهم بعض العلماء فهي لاتعدو كما سبق أن قلت إن البديع يتطور وإن بشاراً اكثر من استعماله في القرن الثاني قياساً الى شعراء عصره، ولكن مع هذا كان شعره سلساً سهلاً، ثم اتبعه مع تفاوت في الكثرة والقلة كلثوم بن عمر العتابي ومنصور النمري، ومسلم بن الوليد وابو نواس، فلما حل القرن الثالث الهجري انقلبت أوضاع البديع وتبدلت احواله واصبح الشعراء يستعملونه مصرين بعد ان كانوا يطرقونه متظرفين، فلم يقف ابو تمام عند هذا التراث الذي ورثه، بل نماه وبالغ فيه الى حد الاسراف، لانه لم يقف امام ازدهار العلوم واختلاف الثقافات في عصره مكتوف الايدي بل نهل من بحرها ماشاء أن ينهل. [3]

وبذلك يكون بشار بن برد رأس هذا المذهب واكثرهم حظوة عند النقاد، وقد قيل إن أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد وهذا اقرب الاقوال الى

---

(١) ينظر: ابن ابي الاصبع المصري بين علماء البلاغة: ٤٥.

(٢) م.ن: ٤٥.

(٣) ينظر: م.ن: ٤٥.

الصحة، وكان له اتباع فنهجوا منهجه وسلكوا طريقه من بينهم ابراهيم بن هرمة، وكلثوم بن عمرو العتابي، ومنصور النمري، ومسلم بن الوليد، وابو نواس وابو تمام والبحتري، وابن المعتز، وقد حظي بشار بالرضا من اكثر النقاد الذين عاصروه والذين جاءوا بعده، كما تفوق في كثير من فنون الشعر". (١) وبهذا يكون: "قد ظهر مذهب بديعي في عصر المحدثين زعيمه بشار بن برد ومن رجاله ابن هرمة والعتابي والنمري، وابو نواس ومسلم بن الوليد، وابو تمام، والبحتري، وابن المعتز، ولكنهم ليسوا سواء في هذه الصنعة من حيث الاقلال والاكثار والتسهيل والتوعير والطابع والاتجاه". (٢)

يتضح مما سبق "أن النقاد والبلاغيين القدماء ظلوا الى عصور متأخرة لايميزون بين علوم البلاغة الثلاثة، المعاني والبيان والبديع، وإن البديع عندهم كان يطلق على جميع وجوه البلاغة"(٣) في العصر الذي عاش فيه شعراء البديع، لذلك كان مصطلح البديع يدل عند هؤلاء الشعراء على امرين هما:

اولهما: الجديد المستظرف من الاستعارات والتشبيهات والكنايات وغيرها من فنون البلاغة التي جاء بها الشعراء في ذلك العصر.

واخرهما: المحسنات اللفظية والمعنوية التي بدأت تظهر في ذلك العصر ثم تطورت الى ان اصبحت علماً مستقلاً اطلق عليه علم البديع كما اتضح ذلك في دراسة تطور المصطلح.

وبذلك ستكون دراسة الصورة الشعرية عند شعراء البديع مبنية على العناصر البلاغية التي اتبعها هؤلاء الشعراء، وهي الاستعارة والتشبيه والكناية وغيرها من العناصر البلاغية التي أسهمت في خلق الصورة الشعرية.

ويقيناً أن تكرار الصور البلاغية في شعرهم سيعطي صورة حقيقية لمصطلح البديع الذي عرفوا به، وعرف عندهم والذي شغل النقاد والمتأدبين

---

(١) القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي: من بشار الى ابن المعتز: د. توفيق الفيل: ١٤٩. مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٨٤م.

(٢) الصبغ البديعي في اللغة العربية: د. احمد ابراهيم موسى: ٦٢، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

(٣) الموازنة بين ابي تمام والبحتري للامدي تحليل ودراسة: ١٨٣.

فبحثوا فيه محاولين وضع اصوله وقواعده كاشفين عن تميزه من غيره من علـــوم البلاغة الاخرى.

الطباق:

معناه: الجمع بين المتضادين فى الكلام الطباق معنيـــان لا يلتقيـــان بطبيعـــة تكوينهما فالرجل طباق للمرأة والقصير طباق للطويل والليـــل طبـــاق للنهـــار ولا يوصف بينهما شيء واحد في آن واحد مثل قول المتنبي:

ودع كل صوت بعد صوتي فـــإنني * أنا الصائح المحكي والآخر الصدى[١]

(الصائح) والآخر (الصدى) ولا صدى بلا صائح ولا يجتمعان ومـــن ذلـــك أيضاً قول المتنبي:

وما انتفـــاع أخـــي الـــدنيا بنـــاظره * إذا استوت عنده الأنوار والظلـــم[٢]

السجع:

معناه: توافق الفاصلتين أو الفواصل من النثر على حرف واحد وهو الحرف الأخير والفواصل فى النثر كالقوافي فى الشعر والفاصلة هى الكلمة الأخيرة مـــن جملة مقارنة لأخرى وتسمى كل واحدة من هـــاتين الجملتـــين قرينـــة لمقارنتهـــا الأخرى كما تسمى فقرة.

ومن ذلك قول المتنبي:

جمـــدت نفوســـهم فلمـــا جئتهـــا * أجريتهـــا وســـقيتها الفـــولاذا[٣]

السجع في (جئتها ــ أجريتها ــ سقيتها) فمع المجئ جـــاء الصـــدام ومـــن الصدام جرى الدم ولما جرى شرب الخمر وارتوى والسجع يحقق إيقاعاً متوازناً.

---

(١) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٢٥٩.

(٢) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٢٩٠.

(٣) ديوان المتنبي ، ج١ ، ص ٣٦٢ .

التقابل:

نأخذ كلمة تقابل في المعاجم العربية معانى لغوية مختلفة منها التلقاء، المواجهة، الضم، والمقابلة هي مواجهة عامة وكل شيء يواجه شيئاً آخر فهو يقابله ويعارضه وإذا ضممت شيئاً إلى شيء قلت قابلته به فضم الشيء إلى الشيء مقابل له.

التقابل في اللغة المواجهة التي تتم بين شيئين يكون الأول منهما يواجه الثاني ويتقابل معه، ومن ذلك قول المتنبي:

وما الدهر إلا من رواة قلائدي * إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا[١]

ودع كل صوت غير صوتي فإنني * أنا الصائح المحكي والآخر الصدى[٢]

الجناس:

معناه: أن يتشابه اللفظان فى النطق ويختلفان فى المعنى

اتفقت أكثر كتب البلاغة في تعريف الجناس بأنه اتفاق الكلمتين في كل الحروف أو أكثرها مع اختلاف المعنى ويقسم إلى قسمين جناس تام وجناس ناقص.

١) **الجناس التام:**

هو ما اتفقت فيه الكلمتان في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها فإن كانتا من نوع واحد اسمين أو فعلين فهو جناس مماثل ومن أمثلته في ديوان المتنبي:

رأينا ببدر وآبائه * لبدر ولوداً وبدراً وليدا[٣]

توجد مجانسة بين البدر الأول وهو بدر بن عمار الممدوح والبدران الآخران وهما قمران ويقصد أحدهما آباء الممدوح وبالآخر الممدوح نفسه.

٢) جناس ناقص لاختلاف ترتيب الحروف وذلك في قوله:

---

(١) ديوان المتنبي ، ج١ ، ص ٢٥٨ .

(٢) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٣٥٩ .

(٣) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ٣٠٢.

حببتك قلبي قبل حبـــك مـــن نـــأى * وقد كان غداراً فكن أنت وافيـــاً[1]

(قلبي/ قلب) القاف واللام والباء. والباء وردت أكثر من مرة (حببتك وقلبـــي وقبل وحبك) الإيقاع لا ينظر في التكوين النحوي بل هو مرتبط بواقـــع مخـــارج الحروف في الأذن.

الجناس التام:

مثل:

١ – (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة).

٢ – صليت المغرب في المغرب

٣ –إلى حتفي مشى قدمي أرى قدمي أراق دمى

٤ –إذا ملك لم يكن ذاهبة فدعة فدولته ذاهبة

أمثلة على الجناس الناقص:

١ – بينى وبين ركنى ليل دامس، وطريق طامس.

٢ –وهم ينهون عنه ويناون عنه. ٣– ويل لكل همزة لمزة.

٤ –التفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق .

٥ –عسى تحظى فى غدك برغدك. ٦– جبة البرد جنة البرد.

٧ –حسامك فيه للأحباب فتح، ورمحك فيه للأعداء حتف.

٨ –اللهم استر عوراتنا وأمن روعاتنا.

سر جمال الجناس:

يطرب الأذن ويحرك الأذن بشرط البعد عن التكلف والارتباط بطبيعة معانى الأديب

التورية:

معناها: لفظ يتفق ظاهره مع رغبة السامع، ولكن المتكلم ينوى به أمرا آخر، يتناسب مع اتجاهه

ومن ذلك قول المتنبي:

وقفنـــا وممـــا زاد بثـــاً وقوفنـــا * فريقي هوى من مشوق وشـــائق[1]

---

(١) ديوان المتنبي ، ج٢ ، ص ٥٠٢ .

لقاء أكثر من تلقـــاه أوزار ذنـــوب * فلا تبـــالي أصـــدوا عنـــك أوزار
لهم عليك إذا جاؤوك أوطار حاجـــة * فإن قضوها تنحو عنك أو طـــاروا
أفعالهم حيث تبلوهن أو عار صعبة * وقـــولهم مـــأثم للمـــرء أو عـــار

سر جمال التورية:

١- القدرة على التلطف والخفاء، ووصول الأديب فـــى ذلـــك إلـــى غايتـــه

٢ -تثير الفكر والشعور بإحداث حركة ذهنية بارعة، مـــن انتقـــال الـــذهن مـــن المعنى القريب إلى المعني البعيد.

الالتفات:

هو الانتقال بالأسلوب من صيغة التكلم أو الخطاب إلى صيغة من هذه الصيغ بشرط أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً بنفس الأمر إلى الملتفت عنه بمعنى أن يعود الضمير الثاني على نفس الشيء الذي عاد إليه الضمير الأول وكان هـــذا الأسلوب موجوداً في الشعر الجاهلي وأول من أدخل هذا الأسلوب شـــاعر يـــدعى الأصمعى ومن ذلك قول المتنبي:

مللـــت مقـــام يـــوم لـــيس فيـــه * طعـــان صـــادق ودم صـــبب[٢]
وعاد في طلـــب المتـــروك تاركـــه * إنا لنغفل والأيـــام فـــي الطلـــب[٣]

وكذلك مدح سيف الدولة:

فإن تكن الأيـــام أبصـــرن صـــولة * فقد علم الأيـــام كيـــف تصـــول[٤]

لزوم ما لا يلزم:

هو ضرب من المحسنات اللفظية وذلك بأن يسبق الـــروي فـــي الشـــعر أو الفاصل المسجوعة في النثر بحرف يتكرر من غير لزوم أو ضرورة، وقد يبـــدو

---

(١) ديوان المتنبي ، ج٢ ، ص ٣٢ .
(٢) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ١٣٠ .
(٣) ديوان المتنبي ، ج ١، ص ١٤٢ .
(٤) ديوان المتنبي ، ج٢ ، ص ١٢٥ .

هذا الضرب من التفنن مستطلفاً وبليغاً إذا لم نشعر معه بالتكلف وباستجرار اللفــظ البعيد[١].

ومن ذلك قول المتنبي[٢] :

هو البين حتى ما تأتي الحرائقُ فريقي هوى منا مشوق وشائق[٣]

وقد صارت الأجفان قرحى من البكا وصار بهاراً في الخدود الشقائق

(١) انظر: المعين في البلاغة قدري مايو، ص ١٩٧.

(٢) ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي، ج ٢ ، ص ٣٢.

(٣) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٣٢ .

خاتمة:

لم ألخص هذه الحياة المتعبة إلا لأجعل صلة بينهـا وبـين شـعر المتنبـي الغامض الوجدان فإذا نظرنا في طائفة من شعر المتنبي تبين لنا أن بـين حياتـه الخاصة وبين هذا الشعر كثيرًا من التناسب، فمعظم شعر المتنبـي يكـاد يكـون صورة هذه الحياة التي ملئت بالتعب والقلق والاضطراب. لم تكن الحياة في نظـر أبي الطيب حياة هدوء وراحة. فالذين يريدون أن يعيشوا هذه العيشة التي وصـفها المتنبي ينبغي لهم أن يهيئوا أنفسهم لكثير من الجهاد. جاهد المتنبـي فـي حياتـه فزاحم ونازع وطاعن فكانت هذه الحياة المملوءة بالجهاد والمزاحمـة والمنازعـة والمطاعنة ملء شعره، فهو لم يصف هذا النوع من العيشـة إلا بعـد أن جربـه وقاسى أهواله ولقي منه ما لقي. فالحياة التي يريدها أبو الطيب إنما هـي الحيـاة السالمة من كل راحة ومن كل ضيم، وإذا وازنا بين حياته الخاصة وبين فلسـفته في الحياة وجدنا صلة وثيقة بين هذين النوعين. إنه لم يذق الراحة كل عمره .وإنه لم يتحمل الضيم في ظلال سيف الدولة ولا تحمله في ظلال كافور ولا تحمله فـي ظلال الوزير المهلبي، فالمتنبي يعرض لنا في شعره نمطًا من تعب الحياة وجهدها ثم يضرب لنا مثلاً لهذا النمط. أما هذا المثل فهو حياته الخاصة من مبادئها إلـى خواتيمها. علام نخاف الموت فقد يقتل العاجز وهو آمن في سربه؟ .والمتنبي لـم يخف الموت حتى في الأيام التي تفتر فيها الأعصاب ويميل فيهـا الإنسـان إلـى الهدوء. فقد قاتل لما تعرض له بنو ضبة القتال الجديد فلم يجبن ولم يهرب .

ما أتعب حياة المتنبي!

إذا كنت ترضـى أن تعـيش بذلـة * فـلا تسـتعدن الحسـام اليمانيـا
فما ينفع الأسد الحياء مـن الطـوى * ولا تتقى حتى تكـون ضـواريا[1]

(١) ديوان المتنبي ، ج ٢، ص ٥٠١ .

النتائج:

من خلال الدراسة والتحليل توصلت إلى نتائج كثيرة منها في الأغراض:

١/ المدح:

أ- يشتمل المدح على القسم الأكبر من شعر المتنبي وفيه تنطوي أكثر فنونه وأغراضه.

ب- أروع مدائح المتنبي ما قاله في سيف الدولة ويكاد يبلغ ثلث شعره ويمتاز في وصف الجيوش والمعارك وصدق العاطفة.

ج- مدائحه في كافور كذب لكنها رائعة الفن.

٢/ الرثاء: يختلف رثاء المتنبي باختلاف صلة المفقود، فقد رثى جدته لأمه وأبا شجاع فاتك، وأخت سيف الدولة الكبرى ذرف على هؤلاء ثلاث دمعات صادقات.

٣/ غزله: كان متعففاً ويؤثر البدويات على الحضريات.

٤/ الفخر: المتنبي شاعر شجاع باسل فعنصر الفخر مركب في طباعه رافقه منذ صباه حتى وافته المنية.

٥/ الهجاء: المتنبي اصطنع الهجاء يؤذي من آذاه وهجاء كافور لأنه وعده أن يقطعه ولاية ثم ماطل وكذب عليه، وهجاؤه مقذع مؤلم فاحش الألفاظ والمعاني.

٦/ وصفه: أبدع في وصف الأخلاق وتصوير الحياة صورة مادية واقعية يرفعها بالإغراق والتكبير.

٧/ الشكوى: شعر الشكوى من أصدق الشعر فهو يصدر من النفس وأجمل شعره في الشكوى.

٨/ الحكمة: إن أبا الطيب من أبرع الشعراء في الاهتداء إلى الحكمة وتعيش حكمه متنقلة من جيل إلى جيل بنفس الحيوية.

في الدراسة الفنية:

بناء القصيدة عند المتنبي كان المتنبي من الشعراء الذين عرفوا بجودة البناء الهيكلي للقصيدة وعرف بجودة التخلص واهتم بالمطلع والموسيقى والقافية.

الصورة الشعرية: استخدم التشبيه بأنواعه المختلفة والاستعارة بأنواعها المختلفة والكناية.

احتوى شعره على كثير من الألوان البديعية واللفظية وقد كثر الجناس في شعره وأجاد فيه.

هذه بعض النتائج التي توصلت إليها وأخيراً لا أدعى أنني قدمت كل ما يجب تقديمه في هذا الشأن ولكنني أعذر نفسي حيث لم أدخر جهداً في سبيل البحث وهذا كل ما استطعت عمله، وقفنا الله لما فيه صلاحنا وجعل حياتنا طريقاً لجنات النعيم.

توصيات البحث:

رأينا بعد هذه الدراسة الفنية لشعر المتنبي أن نخرج بهذه التوصيات والمقترحات لأي باحث أو دارس يجد هوى في نفسه لتناول هذا الفن ونأمل مخلصين أن نساهم في إثراء جوانب هذا الفن الرفيع.

أوصى أولاً: القيام بعمل دراسة مقارنة للبناء الفني عند عدد من الشعراء وأن تشمل الدراسة المقارنة بين الألفاظ التي استخدموها وكانت الأكثر شيوعاً عندهم وبيان ما فيها من أثر نفسي في تصوير أحاسيسهم وانفعالاتهم وأن تكون المقارنة بين أوزانهم العروضية وموسيقاهم الداخلية وبيان دورهما الفعال في القدرة على التأثير ونقل هذه الأحاسيس والمشاعر.

ثانياً: عمل دراسة منفصلة للصور والأخيلة الفنية المستخدمة في تصوير العاطفة في عصر المتنبي ومقارنتها بالعصر الحديث.

ثالثاً: أن تستمر الدراسة عن هذا الشاعر العظيم والخوض في أعماق قصائده وأبعاد مدلولاته.

رابعاً: ألوان البديع – اللفظية بصفة خاصة – تحتاج لمزيد من الدراسة من التمحيص من قبل المختصين لنبين الصالح منها غيره.

المصادر والمراجع:

١) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ط٣، ١٩٦٥م.

٢) ابن الأثير: الكامل جـ٦

٣) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري.

٤) ابن الجوزي: المنتظم جـ ١٣، مسكوبة: تجارب الأمم ٥/ ٢٤١، المسعودي /مروج الذهب جـ٤.

٥) ابن الزبير: الذخائر والتحف، تحقيق: د. محمد حميد الله، ط، الكويت سنة ١٩٥٩م.

٦) ابن جني: أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة دار الكتب المصرية، ج٢، ط١٩٥٥م.

٧) ابن خلكان، أبو العياس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الجزء الأول، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

٨) ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجيل بيروت، بلا طبعة، الجزء الأول.

٩) الآثار الباقية، ط. دار صادر – بيروت (نسخة مصورة عن ط. ليبزج سنة ١٩٢٣م).

١٠) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، بيروت مؤسسة الرسالة ط١، ١٩٧١م.

١١) أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي.

١٢) أحمد إبراهيم الشريف، مرجع سابق ن ص٣٣١، ابن الأثير: الكامل جـ٧، ص٣١-٣٦، ظهر الإسلام.

١٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام ١، د. جمال سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق وانظر النبراس ص٩٥

١٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء.

١٥) احمد حسن الزيات تاريخ الادب العربي دار النهضة القاهرة الطبعة الاولي.
١٦) انظر: يوهان فك،: العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ١٩٨٠م،
١٧) أنيس: د. إبراهيم، من أسرار العربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٧، ١٩٩٤م.
١٨) بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسة ومظاهر الحاضرة في العراق والمشرق من أوائل القرن ٤هـ حتى ظهور السلاجقة، ط. اولى مكتبة الأنجلو سنة ١٩٨٩م.
١٩) بول فاير، وكرستيان بايلون: مدخل إلى الألسنة، ترجمة طلال وهبة، المركز الثقافي ط١، ١٩٩٢م.
٢٠) تاريخ ابن خلدون جـ٤، ابن الأثير: الكامل ١٦٢/٨، د. حسن الباشا: دراسات في تاريخ الدولة العباسية ـ ط. دار النهضة العربية سنة ١٩٧٥م.
٢١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، د. صلاح الدين المنجد بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي.
٢٢) توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م.
٢٣) الثعالبي: أبو منصور عبدالله بن إسماعيل، يتميه الدهر، في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محي الدين، ج١، ط٢، ١٩٧٣م.
٢٤) الجرجاني: علي بن عبدالعزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، بيروت ١٩٦٦م.
٢٥) جون كوهن، بناء لغة الشعر، ترجمة د. أحمد درويش، القاهرة ط١، ١٩٨٤م.
٢٦) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة تونس دار الكتب الشرقية ١٩٦٦.

٢٧) حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي.
٢٨) حسن عبد العال: التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري.
٢٩) حسن علي حسن: حركة البساسيري بالعراق، بحث منشور بندوة التاريخ الإسلام بدار العلوم جـ٥، سنة ١٩٨٥م.
٣٠) حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.
٣١) حمدان عبد المجيد الكبيسي: عصر الخليفة المقتدر بالله (دراسة في أحوال العراق الداخلية)، ط النجف بغداد سنة ١٩٧٤م.
٣٢) خليل شرف، المتنبي أمة في رجل، دار ومكتب الهلال، بيروت، بلا طبعة، ١٩٨٧م.
٣٣) الذهبي: دول الإسلام ١، البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر، د. هاشم عبد الراضي الوزارة في العصر البويهي.
٣٤) سعد مصلوح، في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية، النادي الأدبي الثقافي بجدة ط١، ١٤١١/١٩٩١.
٣٥) السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه و علق عليه نعيم زرزور،منشورات دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٧م،
٣٦) شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.
٣٧) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي دار المعارف مصر الطبعة الثانية ١٩٦٠م.
٣٨) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط١١ دار المعارف (د.ت).
٣٩) صلاح عبد الحافظ، الصنعة الفنية في شعر المتنبي، دار المعارف، بلا مكان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

٤٠) عبد الحكيم راضي: نظرية اللغة في النقد العربي، القاهرة منشورات مكتبة الخانجي (د. ت).
٤١) عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة.
٤٢) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق مفيدة قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م، ص٣٩٦.
٤٣) العمدة لابن رشيق.
٤٤) العيني: عقد الحان – القسم الأول مخطوط جـ١٦/ورقة ٢٧، دار الكتب رقم ١٥٨٤.
٤٥) العيون والحدائق في أخبار الحقائق لمؤلف مجهول، تحقيق: عمر السعيدي جـ٤/ق٢/ص٤٣١ط، دمشق سنة ١٩٧٣م.
٤٦) فاضل الخالدي: الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق خلال القرن الخامس الهجري.
٤٧) محمد أحمد عبد المولى، العبارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي.
٤٨) محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ط. دار الفكر العربي سنة ١٩٥٧م
٤٩) محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ط ١، دار الفكر الغربي، سنة ١٩٧٦م.
٥٠) محمد حماسة عبد اللطيف، الجملة في الشعر العربي، القاهرة مكتبة الخانجي ط١، ١٩٩٠م.
٥١) محمد علي حيدر: (الاوضاع الاقتصادية في العراق والمشرق) رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم – وانظر د. عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي.
٥٢) محمد محي الدين عبد الحميد، مصر المكتبة التجارية الكبرى، ج٢، ط ٤، ١٣٨٠هـ ١٩٦١م.
٥٣) محمد مندور، الأدب وفنونه.

٥٤) المرشد لفهم أشعار العرب.
٥٥) المنتظم ١٣/١٨٠-١٨١، واقرأ ما كتبه النويري في (نهاية الأرب) عن عزل الوزراء في عهد المقتدر جـ٢٣.
٥٦) هاشم عبد الرحمن محمد علي، قضايا ومواقف من التاريخ العباسي ن ط٢، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٥٧) هاشم عبدالرازق محمد كتاب قضايا ومواقف من التاريخ العباسي ١٤٢١.
٥٨) يحيي بن حمزة العلوي الطراز، صححه سيد بن علي المرصفي، مصر، مطبعة المقطم، ج١٩٤١،١.
٥٩) يسري محمد سلامة، الحكمة في شعر المتنبي، دار المعارف، بلا طبعة، ١٩٨١م.
٦٠) يوسف خليف، في الشعر نحو منهج جديد، دار غريب، القاهرة، بلا طبعة، بلا تاريخ.
٦١) عبدالرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان ، ١٤١٣هـ- ٢٠١٠م.
62) MULIR, SIR WILLIAM: THE CALIPHATE.PP-568 ADINBURGE 1925
63) Roland Barthes , Ledegre Zero de Lecritur – 1953.Paris,le Seuil.